سلسلة التربية الإسلامية

٢

الفكر التربوي عند ابن رجب الحنبلي

تأليف

الدكتور حسن بن علي بن حسن الحجاجي

مدير عام فرع وزارة الشؤون الإسلامية
والأوقاف والدعوة والإرشاد بمنطقة مكة المكرمة

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م

دار الأندلس الخضراء

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ - هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

من آي الذكر الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق: ١ – ٥).

* * *

وقال تعالى:

﴿الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان﴾(الرحمن: ١-٤).

* * *

وقال تعالى:

﴿ن والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ (القلم: ١-٢).

* * *

وقال تعالى:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾(النحل: ٧٨).

* * *

من الحديث النبوي الشريف

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه البخاري، وفي رواية: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه».

***

عن عبدالله بن أبي قتادة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير ما يخلِّف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يُعمل به بعده» رواه ابن ماجة وابن حبان.

***

عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان، وهو يخطب يقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» رواه مسلم.

***

إهــــداء

* إلى الوالدين الكريمين اللذين لم يفتئا يدعوان لي بالتوفيق والسداد.. إليهما أهدي هذا الجهد، وهو ثمرة من ثمار تربيتهما ورعايتهما لي، فجزاهما الله عني خيراً، وأعلى درجاتهما عنده، وأمد في عمرهما في طاعته، وجعلني باراً بهما عطوفاً عليهما رحيماً بهما.
* إلى رفيقة الدرب وصديقة السفر أم جميل.. التي عاصرت مشوار حياتي العلمية منذ نعومة أظفاري وصبرت معي في الشدة والرخاء، والفقر والغنى، والصحة والمرض.. أم البنين والبنات.. وفقها الله وأعانها، وسدد على طريق الخير خطاها، وختم لها بالصالحات.
* إلى أستاذي الفاضل المربي القدير الشيخ عبد الرحمن موفق الباني الذي كان حريصاً على تنوير فكري التربوي بمبادىء التربية الإسلامية، وقام بتسديد آرائي، ولم يبخل علي بالنصح والتوجيه والإرشاد.
* إلى جميع العاملين في مجال التربية والتعليم من الأستاذة والمربين.. الذين يسعون جاهدين على ترسم خطى الحبيب المصطفى المربي الأعظم في المجال التربوي وخطى أصحابه وسلفنا الصالح.

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا العمل، وأسأل الله العلي القدير أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب.

المــؤلــف



مقـــدمـــة

بقلم الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي
وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن الله تعالى، أرسل رسله، وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، ولكي يصبح للناس، ميزاناً يهديهم في عباداتهم، ومعاملاتهم وسائر أمورهم.

وقد ختمت الرسالات السماوية بالرسالة الخاتمة، وهي الإسلام، وختم الوحي الإلهي بالقرآن الكريم، الذي أنزل على قلب رسول الله، وخاتم النبيين محمد ﷺ.

وفي القرآن الكريم، وفي حكمة الرسول وسنته وسيرته، وجد المسلمون أصول معارفهم، ومبدأ علومهم وثقافتهم، في عبادة الله عز وجل، وحده لا شريك له، وفي التشريع الإلهي لنظام حياتهم واجتماعهم، وفي المنظومة الخلقية الكاملة، التي أرسى قواعدها وأكمل بناءها القرآن الكريم، وطبقها أوفى تطبيق وأكمله خاتم النبيين.

وقد اكتملت تلك المنظومة الخلقية في الرسالة الخاتمة.

وكانت من أهم جوانبها ومن أعظم مهماتها.

يقول الرسول ﷺ: «إِنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وأما سيرة الرسول بين أهل بيته وبين أصحابه ومع أمته ومع الناس جميعاً، فكانت ترجمة للأخلاق التي هدى إِليها القرآن.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها في وصف الهدي النبوي في القول والفعل والحال:

«كان خلقه القرآن».

ومن أهم جوانب الدعوة إِلى الله، تزكية النفوس، وإِصلاح القلوب.

ويكون ذلك بالوعظ والإِرشاد، وضرب المثل، والدعوة إِلى اتباع أخلاق الإِسلام في التعامل بين الناس.

وكان لهذا الجانب، أعظم الأثر في العهد النبوي، فقد تولى الرسول ﷺ تربية المسلمين على هدي القرآن الكريم، والحكمة التي آتاه الله تعالى، والقدوة والأسوة الحسنة في قوله وفعله وحاله.

وخلال سنوات قليلة، ظهر في المجتمع المسلم، على قلة العدد وضعف المسلمين وصولة الباطل، أكابر الصحابة الذين رباهم الرسول، وصاروا رضوان الله عليهم، عوناً للرسول في نشر الدعوة، وإِحقاق الحق وإِزهاق الباطل.

ولم يكن ذلك في بداية الإِسلام بسبب قوتهم ومنعتهم وسلطانهم، وإِنما كان بسبب الخلق الذي اكتسبوه من هدي القرآن، وبسبب تعليم الرسول لهم، فكان الواحد منهم أمة بالإِيمان الصادق، والإِخلاص لله عز وجل، والتأدب بأدب الإِسلام، فيما يأتون ويذرون من قول أو فعل.

وبهذه الأخلاق، استحقوا صحبة الرسول، وكانت الصحبة له ﷺ

بما تتضمنه من كنوز العلم والفضل، والعمل والاقتداء، هي السبب في خلود الذكر والفوز في الدنيا والنجاة في الآخرة، بفضل الله ورحمته.

إن المجتمع المسلم في العهد النبوي، اكتسب خصائصه العليا من تعليم النبي ﷺ للمؤمنين، وتربيته لهم على أخلاق القرآن، وعلى هديه ﷺ.

وكل مجتمع مسلم، يتبع منهج القرآن في الأخلاق، وحكمة الرسول في تربية أصحابه، وتزكية نفوسهم على هدي هذا المنهج، يضمن التقدم والرقي في حياته، ويملك أهم عناصر القوة في مواجهة الحياة، والدفاع عن الإِسلام والمسلمين.

إن التربية الإِسلامية، هي الطريق الوحيد لتكوين مجتمع مسلم.

ومنهج القرآن وحكمة الرسول في تربية المسلمين صغاراً وكباراً، هو الاختيار الوحيد أمام المسلمين في هذا العصر، لأنه أوفى المناهج في إِصلاح العقول، وتزكية النفوس، وجمع القلوب.

وهو المنهج التربوي الوحيد الذي يحقق الفوز في الدنيا والنجاة في الآخرة.

* ومما يُحمد للمؤلف الأخ الدكتور حسن بن علي بن حسن الحجاجي، أنه اختار موضوعاً هاماً للكتابة فيه، وهو «الفكر التربوي عند ابن رجب الحنبلي».

وكان اختياره لهذا الموضوع، عن إِدراك لأهمية التربية في الإِسلام، وأنها كما أورد صراحة في مقدمة كتابه، السبيل الوحيد لإِنقاذ الإِنسانية اليوم.

وقد ظهر الفكر التربوي، واضحاً جلياً لدى الكثيرين من علماء الإِسلام في وقت مبكر، وتفرد بالتأليف فيه علماء كبار، يعدون من أعظم المربين في إِنتاجهم العلمي والفكري، كالإِمام ابن القيم

رحمه الله، وابن رجب الحنبلي، الذي اهتم المؤلف بفكره التربوي من بين مؤلفاته التي تربو على الخمسين مؤلفاً، في شتى المعارف والعلوم الإِسلامية.

لقد ألقى المؤلف، الضوء على حياة العالم الفقيه ابن رجب الحنبلي، وعلى العصر الذي عاش فيه، من النواحي السياسية والعلمية والاجتماعية، وهو أمر يفيد أعظم الفائدة في معرفة منابع فكره التربوي، وأصوله التي استمد منها فكره في هذا المجال، لأن ابن رجب الحنبلي، كان كما يبدو من سيرته وما اشتغل به من العلوم والفنون، عالماً موسوعياً، حصل علوم القرآن، واشتغل بالفقه والأصول والتفسير، وبعلم الحديث، وألف العديد من الكتب في هذه العلوم، ومارس الدعوة والوعظ والإِرشاد.

وقد أحصى المؤلف، مصنفات ابن رجب في هذه العلوم، فبلغت نحو خمسة وخمسين كتاباً، وكان يحسن، لو أفرد المؤلف من هذه الآثار الكثيرة لابن رجب، ما يتعلق منها بالتربية، وكان أفضل، لو حدد لنا مضمون التربية التي يقصدها ببحثه، لأن مؤلفات ابن رجب متنوعة في علومها ومعارفها.

فقد كتب في الفقه، وفي التفسير، وفي اللغة، وفي الوعظ والإِرشاد، وفي التاريخ، وله كتابة في التربية، تستحق أن تفرد، وتخصص بالذكر، بين معارفه المتنوعة، ومؤلفاته العديدة.

ويُحمد للمؤلف، أنه بدأ الفكر التربوي في الفصل الثاني من الكتاب، بالحديث عن مفهوم الإِنسان عند ابن رجب، إِذ الإِنسان، هو غاية التربية، وهو أيضاً موضوعها وأداتها.

والنظر إِلى الإِنسان، يأتي مقدمة لازمة للحديث في الأخلاق والتربية.

وللإِسلام نظرته إِلى الإِنسان، وهي نظرة متميزة، تبدأ بتكريم الله له:

﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾.

وتظهر في اختصاصه بالعقل والعلم، والمسؤولية والحساب، وتبدو في تزويده بأصول المعارف عن نشأته وحياته ومصيره.

ومما يُحمد للمؤلف، أنه تحدث عن التنمية الخلقية «النمو الأخلاقي» وتناول أعظم ما يؤتم به في هذا الباب، وهو خلق الرسول ﷺ.

وتحدث عن دور الإِرادة، في النمو الخلقي.

كما تناول، وسائط التربية ووسائلها، أو ما يعد من مؤسساتها في المجتمع، وأولها المسجد، وهو مكان العبادة ومدرسة التربية.

وقد ختم المؤلف بحثه، بعدة نتائج وبتوصيات عديدة، تهدف في جملتها إِلى تطبيق أصول التربية الإِسلامية في حياتنا، والاستفادة من توجيهات الإِسلام في الفكر التربوي.

ودعا المتخصصين في التربية إِلى الاهتمام والبحث في مجال التربية الإِسلامية، وهي في نظري دعوة جادة، تحقق أعظم فائدة للمجتمع المسلم، وتضمن لنا سلامة المنهج، وارتفاع مستوى المعلم والمربي، والارتقاء بوسائل التربية، وصلاح من يتولاهم أهل العلم بالتربية والإِرشاد.

والكتاب، ينم عن اطلاع واسع، وإِدراك كبير لأهمية التربية في حياة الإِنسان وأنها رسالة جليلة، تولاها الرسل والأنبياء.

وكانت الأمة الإِسلامية التي رباها الرسول ﷺ، خير أمة أخرجت للناس، ولا سبيل إِلى تحقيق خيرية الأمة في هذا العصر، سوى التزام منهج القرآن وحكمة الرسول، في التعليم والتأديب والإِرشاد، في كافة

المؤسسات التي تقوم على التربية والتعليم، وأهمها وأعظمها أثراً الأسرة والمسجد والمدرسة.

فلأخي الكريم الدكتور حسن بن علي الحجاجي، الشكر والتقدير على جهده النافع المثمر في هذا الكتاب.

سائلاً الله له، مزيداً من التوفيق، والعمل الصالح.

وراجياً من الله لي وله القبول.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور/ عبد الله بن عبدالمحسن التركي
وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

شكر وتقدير

الشكر لله أولاً وأخيراً على ما يسر ووفق وأعان وقدر، فلك الحمد ربنا كما تحب وترضى، ولك الشكر والثناء الحسن على توفيقك وامتنانك.

ثم الشكر لكل من أعان على إخراج هذا الكتاب، وأخص بالشكر زوجتي الحنون صاحبة القلب الطيب والخلق الرفيع سعادة الدكتورة حياة محمد علي خفاجي الأستاذ المشارك في جامعة أم القرى على جهودها المذكورة والمشكورة، حيث هيأت لي الوقت والجو العلمي الهادىء، تفعل هذا طاعة لله أولاً، وتحقيقاً لطموحاتي ثانياً، وإنني مهما أوتيت من فصاحة وبيان لن أوفيها حقها، لكني أتذكر قول رسول الله ﷺ الذي جاء فيه: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه، ومن قال لأخيه جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء».

لذا فإنني أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجزيها خير الجزاء، وأن يثيبها أعظم المثوبة، وأن يوفقها ويعلي منزلتها عنده، ويجعلها من عباده المتقين وحزبه المفلحين.



مقدمـــــــــــة

الحـمـد لله، خلق الإنسـان، علمه البيان، والصـلاة والسـلام على الهادي البشير والسراج المنير، وآله وصحبه ومن والاه.

أما بعـــــد:

فـهذا هـو الكتاب الثاني في سلسلة التربيـة الإسلامية بعنوان الفكر التربوي عند ابن رجب، حيث كان الكتاب الأول هو الفكر التربوي عند ابن القيم رحـمه الله، والذي كان موضوع رسالة الدكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

والفكر التـربوي عند ابن رجب قـد جاء مـؤصـلاً للفكر التـربوي الإسلامي بتوضيح مفهوم الإنسان ومفهوم التربية والمحتوى العلمي الذي نحتاجه والطريقة التي يقدم بها المحتوى، كل ذلك مستمد من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومسترشداً بمعالم من السيرة النبوية وسيرة السلف الصالح.

فلعلنا من خلال هذا الجهد المتواضع نكون قد أضفنا لبنة جديدة في بناء التـربية الإسـلامية، فإن وفـقنا فـذلك من فضل الله ومنّه، وإلا فإن التقصير من طبيعة البشر ونستغفر الله من الخطأ والزلل.

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على سيد البريات، محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه.

المـــؤلـــف



الفصــل الأول

مدخل إلى البحث

* الهدف من الكتابة عن ابن رجب .
* أهمية البحث في تاريخ التربية الإسلامية .
* التربية الإسلامية هي الخلاص للإنسانية التائهة اليوم .



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه. أما بعــــد:

فإن الله عز وجل قد ختم الرسالات برسالة الإسلام، وختم الأنبياء بمحمد ﷺ، وجعل رسالته للناس أجمعين، بل للثقلين الإنس والجن، قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾(١).

فإذا كان لا نبي بعد محمد ﷺ، ولا رسالة بعد رسالة الإسلام، فمقتضى هذا أن حملت أمة الإسلام مسؤولية الدعوة إلى هذا الدين، قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾(٢)، وقيض الله لهذا الدين في كل فترة من الفترات دعاة من هذه الأمة يبلغون الدين ويوضحون للناس ما هو مطلوب منهم كما قال ﷺ: «يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»(٣)، ولقد قام العلماء بمسؤولية التبليغ والتوضيح والإرشاد والتربية.

ولا تزال الأمة بخير إذا كان الخلف فيها يدرسون سيرة السلف ويترسمون خطاهم، ويشعرون بتقدير العلماء ومنزلتهم ويثقون بهم ثقة تدفعهم إلى الاستفادة من علمهم والأخذ بنصحهم، ومتى ما فقدت الأجيال اللاحقة الثقة بهؤلاء العلماء تخبطت الأمة وتاهت في دياجير الضلال والعمى.

---

(١) سورة الأنبياء، آية [١٠٧].

(٢) سورة آل عمران، آية [١١٠].

(٣) حديث صحيح، السلسلة الصحيحة رقم ١١٨٧٤، سنن أبي داود عن أبي هريرة.

إن الحديث عن التربية الإسلامية هو الحديث عن الإسلام بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

وللتربية الإسلامية أعلامها ورجالها الذين سطر التاريخ سيرتهم بأحرف من نور. ونحن بحاجة إلى معرفة هذه السيرة، فكل علم من أعلام هذه التربية يعتبر نموذجاً فذاً، فدراسة سيرته وفكره التربوي ضرورة ملحة حتى تعرف مساهمة كل علم من هؤلاء الأعلام.

ومن هؤلاء الأعلام الحافظ ابن رجب رحمه الله، فقد كانت له اليد الطولى في خدمة الإسلام وتوجيه المسلمين إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وهو علم من هؤلاء الأعلام وعالم من العلماء الربانيين علم بلسان حاله ومقاله وجند فكره ولسانه وقلمه وبنانه لخدمة الدين وتوضيح معالم التربية الإسلامية، وقد نشأ منذ نعومة أظفاره في أسرة اهتمت بالعلم واشتغلت به، (كان آباؤه قد تصدروا لحمل العلم وتحمل أعبائه، ومنهم جده أحمد بن الحسن الفقيه العالم صاحب الحلقة العلمية ببغداد التي يفد إليها الطلاب ورواد المعرفة وقت ذاك)[1] وقد ذكر ابن رجب حال جده هذا فقال: (... قرىء على جدي أبي أحمد رجب بن الحسن - غير مرة في بغداد - وأنا حاضر في الثالثة والرابعة والخامسة)[2].

وابن رجب رحمه الله كان يلازم حلقات العلم وهو لا زال في الثالثة من عمره، إنها همة الرجال، بل وتطلعات الأفذاذ منهم، فملازمته لهذه المجالس فيها الخير والبركة، ومن خصائص الطفل أنه يقلد أهله وآباءه ويتأثر بما يسمع ويرى، ولقد اعتاد آباؤه الرحلة في طلب العلم، (فرحل

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير، ابن رجب، ص ١١.

(٢) المرجع السابق: ١١.

جده هذا إلى دمشق مصطحباً معه أولاده، فأسمعهم بها وبالقدس، وجلس للإقراء بدمشق وانتفع به، وكان ذا خير ودين وعفاف)[1].

لقد تأثر ابن رجب بهذه البيئة العلمية، فأخذ يتتلمذ على أبيه وينتفع بعلمه وينهل من معين التربية الإسلامية على يد أبيه ومعلمه وأستاذه، وكان أبوه حريصاً على تزويده من مناهل العلم والمعارف المختلفة منذ نعومة أظفاره[2]، وكان يحرص أن يصطحبه معه إلى مجالس العلم وحلق الذكر ومدارس القرآن، ورحل إلى مكة ومصر والشام وهو برفقته ليستفيد ويتعلم من العلماء الذين يلتقي بهم، حتى أصبح له شأن ومكانة علمية مرموقة، فبعد ما اكتملت تربيته بدأ نشاطه التربوي يظهر وعطاؤه يبرز، وقد وصفه كثير من العلماء بصفات تدل على مكانته العلمية، فأثنى عليه كل من ترجم له أو كتب عن سيرة حياته.

قال ابن حجي: (أتقن الفن وصار أعرف أهل عصره بالعلل وتتبع الطرق).

وقال ابن فهد المكي: (الإمام الحافظ الحجّة والفقيه العمدة، أحد العلماء الزهاد والأئمة العباد، مفيد المحدثين واعظ المسلمين)، وقال أيضاً: (كان رحمه الله تعالى إماماً ورعاً زاهداً، مالت القلوب بالمحبة إليه وأجمعت الفرق عليه، كانت مجالس تذكيره الناس عامة نافعة وللقلوب صادعة)[3].

وقال الحافظ ابن حجر: (الشيخ المحدث الحافظ، كان صاحب عبادة وتهجد).

---

(١) المرجع السابق: ١١.
(٢) المرجع السابق: ١١.
(٣) ثلاث رسائل، ابن رجب، ص ١٩، ٢٠.

وقال ابن عبد الهادي المبْرد: (. . . الشيخ الإمام، أوحد الأنام، قدوة الحفاظ، جامع الشتات والفضائل. . .)، وقال أيضاً: (الفقيه الزاهد البارع الأصولي المفيد المحدِّث).

وغير هؤلاء كثير ترجموا له وأثنوا عليه وذكروا جملة من الصفات التي لا تجتمع في الغالب إلا في عالم رباني، ومربٍ قدير، ومعلم حاذق مثل ابن رجب رحمه الله.

إن ابن رجب قد تتلمذ على ابن القيم رحمه الله، تأثر بفكره ومنهجه التربوي، وابن القيم بدوره تتلمذ على ابن تيمية رحمه الله صاحب الفكر التربوي الأصيل الذي استمد منهجه من الكتاب والسنة، فمدرسة هؤلاء وغيرهم ممن سار على مناهجهم هي السلفية بكل ما تعنيه الكلمة.

فابن تيمية رحمه الله قد أصل فكره التربوي وكتبت فيه بحوث ورسائل علمية[1].

كذلك ابن القيم، فقد تناول فكره التربوي بعض الباحثين[2]، ولم أر شيئاً عن ابن رجب، وبالذات في مجال التربية، لذا فقد قررت الكتابة عنه مؤملاً أن أرسم أهم معالم فكره التربوي، وأوضح مفهوم التربية وأهدافها ومحتواها ومؤسساتها والطرق التي تؤدى بها والنظرة إلى الإنسان والمجتمع كما يراها رحمه الله.

إن مثل هذه الدراسة تثري النظرية التربوية الإسلامية، وتضيف شيئاً ذا بال في الصرح التربوي المعاصر، ونحن المسلمون في أمس الحاجة إلى فكر تربوي يجمع بين الأصالة والمعاصرة، يستمد من الكتاب والسنة، وبالذات في هذه الفترة التي سيطرت على النظم التربوية في كثير من بلاد

(١) مثل الفكر التربوي عند ابن تيمية، د. ماجد الكيلاني.
(٢) الفكر التربوي عند ابن القيم، د. حسن الحجاجي.

الإسلام أفكار التربية الحديثة، وكادت أن تضيع معالم التربية الإسلامية، فـقلد الكثيـر من المسلمين غيـرهم في نظامـهم التـربوي وحيـاتـهم الاجتماعية.

فكان لزاماً على أهل الفكر والقلم أن يوضحـوا ما لأسلافنا من آراء تربوية متميزة، لنفيد منها في تربيتنا المعاصرة، وننقل هذه الأفكار إلى الناس عامة وهم يعيشون حياة التيه والتخبط، فما أحوج البشرية إلى التربية الإسلامية لأنها ربانية المصدر من لدن حكيم خبير، يعلم سبحانه ما يصلح حال هذا الإنسان.

إن التربية الوضعية قد رسم معالمها واختط مبادءها الإنسان ذاته، والإنسان مهما بلغ من الكمال فهو عاجز أن يقنن لنفسه القوانين أو يضع لها التشريع الذي يصلح الحال والمآل، ومن يستطيع أن يضع القوانين الصالحة له هو خالقه وبارئه الذي يعلم ما يصلح حاله ويسعده في دنياه وأخراه: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[1].

لذا فإن الكتابة في التربية الإسلامية هي من أهم الضروريات اليوم للمسلمين خاصة وللبشرية التائهة بشكل عام.

---

(١) سورة الملك، آية [١٤].



الفصل الثاني

ابن رجب وعصره الذي عاش فيه

١ - شخصية ابن رجب:

اسمه - نشأته - حياته - ورعه - مؤلفاته - مصادره - منهجه - شيوخه - تلاميذه - وفاته.

٢ - العصر الذي عاش فيه ابن رجب من:

أ - الناحية السياسية.

ب - الناحية الاجتماعية.

جـ - الناحية الاقتصادية.

د - الناحية العلمية.



شخصية ابن رجب

أ - اسمه ونسبه:

هو الإمام الحافظ المحدث الواعظ، زين الدين، عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب بن الحسن بن محمد بن سعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي[1].

ب - نشأته:

ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ٧٣٦هـ[2]، وقيل في سنة ٧٠٦هـ[3]، وقدم دمشق مع والده[4] وهو صغير سنة ٧٤٤هـ[5].

وهذا ما يؤكد أن ولادته كانت في سنة ٧٣٦هـ؛ لأن عمره حال

---

(١) طبقات الحفاظ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط ١، سنة ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ص ٥٣٦.

(٢) المرجع السابق: ص ٥٣٦.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، ط ٢، سنة ١٣٨٢هـ، ١٩٦١م. مطبعة المدني ٢/ ٤٢٨.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ٤٢٨.

(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ٣٣٩.

قدومه دمشق مع والده ثمان سنوات. أما القول أن ولادته في سنة ٧٠٦هـ فهو خطأ، لأن عمره يكون حال قدومه دمشق ٣٨ سنة، وهذا غير صحيح.

جـ - حياته العلمية:

لقد تلقى العلم منذ نعومة أظفاره، حيث نشأ في أسرة علمية، وقد حرص أبوه على اصطحابه معه إلى حلقات العلم التي كانت تغص بها المساجد آنذاك، والتي كان يدرس بها فطاحل العلماء: (.. فسمع معه من محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز[1]، وإبراهيم بن داود العطار[2]، وغيرهما...)[3].

وكان يتنقل في الأمصار ويرحل في البلدان بقصد طلب العلم، ويحضر مجالس العلماء ويستمع منهم، ففي مصر سمع (... من أبي الفتح الميدموي[4]، وأبي الحرم القلنسي[5]، وغيرهما)[6]. (وأكثر من المسموع وأكثر الاشتغال)[7] بالعلم دراسة وتحصيلاً وتأليفاً، فكان يدرُس ويملي ويكتب ويعظ ويقوم بمسؤولية التربية والتعليم خير قيام.. كانت مجالس تذكيره للقلوب صادعة وللناس عامة مباركة نافعة)[8]. نعم كانت لجميع الناس على كافة مستوياتهم الاجتماعية، فيها الفقير

(١) المتوفى سنة ٧٥٦هـ.
(٢) وهو جمال الدين أبو سليمان، المتوفى سنة ٧٥٢هـ.
(٣) الدرر الكامنة، ابن حجر ٢/ ٤٢٩.
(٤) هو صدر الدين محمد بن إبراهيم، المتوفى سنة ٧٥٤هـ.
(٥) فتح الدين أبو الحرم محمد بن محمد القلنسي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٥٥هـ.
(٦) الدرر الكامنة، ابن حجر ٢/ ٤٢٩.
(٧) المرجع السابق: ٢/ ٤٢٨.
(٨) شذرات الذهب، ابن العماد، ص ٣٣٩.

والغني والصغير والفتى والشيخ والشاب والرجل والمرأة، إنه مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم، فلم يكن التعليم حكراً على فئة دون أخرى بل لجميع الناس دون تفريق، لعل البعض يقول: حتى النساء يحضرن هذه المجالس؟ نقول: نعم، لكن لا يتبادر إلى الذهن أن هذا يوجب الاختلاط الذي نسمع عنه ونشاهده في كثير من المؤسسات التعليمية في عالم اليوم. بل كان النساء يجلسن خلِ الرجال، تأتي الواحدة وهي بكامل زيها الإسلامي الساتر لا تفتن ولا تُفتن، فتحضر مجالس الخير والذكر والتعليم.

لقد كان ابن رجب رحمه الله محبوباً في كافة الأوساط العلمية في عصره، اجتمعت الفرق عليه ومالت القلوب بالمحبة إليه[1]، وهكذا المربي ينبغي أن يكون في منزلة عالية من المحبة وأن يتربع على سويداء القلوب، فينال بذلك الاحترام والإجلال والتقدير، ويحظى بسلطة علمية والتي هي أقوى من سلطة العصا والسوط، لأن هذه السلطة على البدن، أما سلطة المعلم فهي على القلوب والأرواح، فإذا حظي المعلم بهذه السلطة نجح في رسالته، وأفاد الناس بعلمه وأدبه وخلقه، فما أحوجنا اليوم إلى معلمين ومربين من هذا الطراز.

لقد اشتغل ابن رجب رحمه الله بسماع الحديث والاشتغال به حتى (أتقن ذلك وصار أعرف أهل عصره بالعلل وتتبع الطرق وتخرج به غالب الحنابلة بدمشق)[2].

(وقرأ القرآن بالروايات، وكان لا يشغله شيء عن ذلك)[3].

---

(١) شذرات الذهب، ابن العماد، ص ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق: ٣٣٩.

(٣) الدرر الكامنة، ابن حجر ٢/ ٤٢٩.

د - ورعه وزهده:

لقد كان ابن رجب ورعاً زاهداً مشتغلاً بالعلم منصرفاً لسماع الحديث وتعلم العلم وتعليمه للناس، وكان لا يشغله عنه شيء من أمور الدنيا: (... لا يعرف شيئاً من أمور الناس، ولا يتردد إلى أحد من ذوي الولايات، وكان يسكن في المدرسة السكرية بالقصاعين)[1]، (قال ابن ناصر الدين: ولقد حدثني من حضر لحد ابن رجب أن الشيخ زين الدين ابن رجب جاءه قبل أن يموت بأيام فقال: (احفر لي ها هنا لحداً - وأشار إلى البقعة التي دفن فيها - قال: فحفرت له، فلما فرغ نزل في القبر واضطجع فيه فأعجبه وقال: هذا جيد، ثم خرج، قال: فوالله ما شعرت بعد أيام إلا وقد أوتي به ميتاً محمولاً في نعشه فوضعته في ذلك اللحد)[2].

هـ - مؤلفاته:

(له مصنفات مفيدة ومؤلفات عديدة، منها: شرح جامع أبي عيسى الترمذي، وشرح الأربعين النووية، وشرع في شرح البخاري فوصل إلى الجنائز، سمَّاه فتح الباري في شرح البخاري، ينقل فيه كثيراً من كلام المتقدمين، وكتاب اللطائف في الوعظ، وأهوال القيامة، والقواعد الفقهية، تدل على معرفة تامة بالمذهب، وتراجم أصحاب مذهبه مرتبة على الوفيات، ذيل بها على طبقات ابن أبي يعلى، وله غير ذلك من المصنفات)[3].

---

(١) شذرات الذهب، ابن العماد، ص ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق: ٣٤٠.

(٣) شذرات الذهب، ابن العماد، ص ٣٣٩.

وقد حصر هذه المؤلفات بعض الباحثين[1] المعاصرين وأوصلها إلى خمسة وخمسين كتاباً، وهي:

١ - الأحاديث والآثار المتزايدة في أن الطلاق الثلاث واحدة.

٢ - أحكام الخواتيم وما يتعلق بها (مطبوع).

٣ - إزالة الشنعة عن الصلاة بعد النداء يوم الجمعة.

٤ - الاستخراج لأحكام الخراج (مطبوع).

٥ - الإيضاح والبيان في حكم طلاق الغضبان.

٦ - الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة.

٧ - القواعد الكبرى في الفروع (مطبوع).

٨ - قاعدة غم هلال ذي الحجة (مطبوع).

٩ - القول المعذاب في تزويج أمهات أولاد الغياب.

١٠ - الكشف والبيان عن حقيقة النذور والأيمان.

١١ - منافع الإمام أحمد.

١٢ - نزهة الأسماع في مسألة السماع.

١٣ - إعراب البسملة.

١٤ - إعراب أم الكتاب.

---

(١) محمد بن ناصر العجمي في تحقيقه لثلاث رسائل للحافظ ابن رجب، طبعة الدار السلفية، ط١، سنة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦.

١٥ - الاستغناء بالقرآن؛ وقد ذكره في كتاب الخشوع في الصلاة حيث قال: وقد ذكرنا أخبارهم في كتاب الاستغناء بالقرآن[١].

١٦ - تفسير سورة الفاتحة.

١٧ - الكلام على سورة الإخلاص.

١٨ - الكلام على سورة النصر.

١٩ - اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (مطبوع).

٢٠ - جامع العلوم والحكم. (مطبوع)

٢١ - الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: (بعثت بالسيف بين يدي الساعة) (مطبوع).

٢٢ - شرح حديث: (إن أغبط أوليائي عندي).

٢٣ - شرح حديث شداد بن أوس: (إذا كنز الناس الذهب والفضة).

٢٤ - شرح حديث عمار بن ياسر: (اللهم بعلمك الغيب).

٢٥ - شرح حديث: (ما ذئبان جائعان) ويسمى أيضاً ذم الجاه والمال (مطبوع).

٢٦ - شرح حديث: (لبيك اللهم لبيك).

٢٧ - شرح حديث أبي الدرداء: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً) (مطبوع).

---

(١) الخشوع في الصلاة، ابن رجب، ص ٢٨، ٢٩.

٢٨ - شرح حديث: (يتبع المؤمن ثلاثة).

٢٩ - شرح حديث: (مثل الإسلام).

٣٠ - شرح علل الإمام الترمذي (مطبوع).

٣١ - شرح غاية النفع في شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع (مطبوع).

٣٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

٣٣ - كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة، وهو شرح حديث: (بدأ الإسلام غريباً) (مطبوع).

٣٤ - المحجة في سير الدلجة، وهو شرح حديث: (لن ينجي أحد منكم عمله) (مطبوع).

٣٥ - نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس، وهو شرح حديث (احفظ الله يحفظك).

٣٦ - الذيل على طبقات الحنابلة (مطبوع).

٣٧ - سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز (مطبوع).

٣٨ - مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز (مطبوع).

٣٩ - مشيخة ابن رجب.

٤٠ - وقعة بدر.

٤١ - استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس (مطبوع).

٤٢ - الاستيطان في ما يعتصم به العبد من الشيطان.

٤٣ - الإلمام في فضائل بيت الله الحرام.

٤٤ - أهوال القبور (مطبوع).

٤٥ - البشارة العظمى في أن حظ المؤمن من النار الحمى.

٤٦ - بيان فضل علم السلف على علم الخلف (مطبوع).

٤٧ - التخويف من النار (مطبوع).

٤٨ - تسلية نفوس النساء والرجال عن فقد الأطفال (مطبوع).

٤٩ - الذل والانكسار للعزيز الجبار، طبع بهذا العنوان، و بعنوان: الخشوع في الصلاة.

٥٠ - ذم الخمر.

٥١ - صفة النار وصفة الجنة.

٥٢ - الفرق بين النصيحة والتعيير (مطبوع).

٥٣ - فضائل الشام.

٥٤ - كلمة الإخلاص وتحقيق معناها (مطبوع).

٥٥ - لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (مطبوع)[١].

هذا ما قام به رحمه الله في مجال الكتابة والتأليف، أما في جانب التربية فله جهود تذكر وتشكر. قام بذلك من خلال مجالسه العلمية ومواعظه المفيدة وحلقات درسه التي كان الناس يزدحمون عليها بكافة طبقاتهم وشتى مشاربهم، فرحمه الله وأجزل مثوبته على ما قدم للتربية الإسلامية.

---

(١) ثلاث رسائل للحافظ ابن رجب، تحقيق محمد ناصر العجمي. الدار السلفية ط ١، ص ٢١ ـ ٢٥.

و - من مصادره في التأليف:

إن هذا الفكر التربوي الأصيل لم يأت من فراغ، وما أتى إلا بعد أن نهل هذا المربي من معين التربية الإسلامية ما جعله في مصاف التربويين الماهرين والعلماء الربانيين، ولقد اطلع على كثير من العلوم والمعارف من مصادرها الأساسية ولازم كبار العلماء، وقرأ الكثير من الكتب والمؤلفات من العلوم والمعارف.

ومن المصادر التي استقى منها بعض آثاره وآرائه التربوية كتاب في التفسير لابن أبي حاتم قال عنه: (وفي تفسير ابن أبي حاتم بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: الصمد الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء)[1]. وكتب لبعض العلماء في الحديث النبوي قال رحمه الله: (وقد جمع العلماء رضي الله عنهم جموعاً من كلماته الجامعة، فصنف الحافظ أبو بكر ابن السني كتاباً أسماه الإيجاز، وجوامع الكلم من السنن المأثورة. وجمع القاضي أبو عبد الله القضاعي من جوامع الكلم الوجيزة كتاباً سمَّاه الشهاب والحكم والآداب، وصنف على منواله قوم آخرون.

وأشار الخطابي في أول كتابه: غريب الحديث إلى يسير من الأحاديث الجامعة، وأملى الإمام الحافظ أبو عمر بن الصلاح مجلساً سمَّاه الأحاديث الكلية، جمع فيه الأحاديث في الجوامع التي يقال إن مدار الدين عليها، وما كان في معناها من الكلمات الجامعة الوجيزة. اشتمل مجلسه هذا على ستة وعشرين حديثاً، ثم إن الفقيه الإمام الزاهد القدوة أبا زكريا يحيى النووي أخذ هذه الأحاديث التي أملاها ابن الصلاح وزاد عليها تمام اثنين وأربعين حديثاً وسمى كتابه بالأربعين)[2].

---

(١) ثلاث رسائل، ابن رجب، ص ٩.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ٣.

ومن مصادره أيضاً:

الجامع الكبير، لمحمد بن الحسن[1].

كتاب العيدين، لجعفر الفريابي[2].

كتاب النذور، للوليد بن مسلم[3].

أخلاق العلماء وآدابهم، لأبي بكر الآجوري[4].

كتاب الجوع، لابن أبي الدنيا[5].

كتاب الشكر، للخرائطي[6].

كتاب أسماء الصحابة، للحافظ أبي نعيم[7].

كتاب التوحيد، لابن منده[8].

كتاب مناقب الحسن، لأبي حيان التوحيدي[9].

ومن سعة علمه يرحمه الله أنه يأخذ من علوم شتى، ويأخذ عن علماء الطبيعة وغيرهم، ويستشهد بأقوالهم إذا كان له مسوغ في

---

(١) ثلاث رسائل، ابن رجب، ص٩.

(٢) لطائف المعارف، ص ٢٨٣.

(٣) المرجع السابق: ص ١٧٧.

(٤) ما ذئبان جائعان، ابن رجب، ص ٢٣.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ٣٧١، وكتاب (الجوع) من طبع دار الأندلس الخضراء، وتحقيق الأستاذ مجدي فتحي السيد.

(٦) المحجة، ص ٣٧.

(٧) الخشوع في الصلاة، ص ٥٧.

(٨) لطائف المعارف، ص ٢٩٢.

(٩) المرجع السابق ص ٢٧٣.

الاستشهاد، فقال ـ وهو يذكر أن المادة تتحول من حال إلى حال ـ: (ذكر الطبائعيون أن الماء بانحداره يصير بخاراً، والبخار ينقلب هواء، والهواء ينقلب ناراً. . . .)[1].

ز- منهجه في التأليف:

إن المنهج السلفي هو الذي ارتضاه ابن رجب لنفسه في التأليف وهو المبني على الكتاب والسنة، فيستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في القضية التي هو بصددها، ويبين درجة الحديث من الصحة والضعف، يفعل ذلك أحياناً في مثل قوله: (وقد ورد في خصوص إحياء ليلتي العيدين أحاديث لا تصح)[2].

وفي مكان آخر يقول: (قيل: التطوع بالجهاد أفضل من التطوع بالحج عند جمهور العلماء. وروي فيه أحاديث مرفوعة في أسانيدها مقال)[3].

وفي مكان ثالث يقول: (. . . فإن فروض الأعيان من فروض الكفايات عند جمهور العلماء. وقد روي هذا في الحج والجهاد بخصوصهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وروي مرفوعاً من وجوه متعددة في أسانيدها لين)[4] فمرة: إن الحديث هذا لا يصح، وأخرى يقول: في السند مقال، أو إن فيه ليناً، وهذا يدل على طول باعه في علوم الحديث ومصطلحه، بل أحياناً يتكلم في الجرح والتعديل، ويذكر حال الرواة كما في قوله: (كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر

---

(١) المرجع السابق: ٢١.
(٢) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٢٧٨.
(٣) المرجع السابق: ٢٧٩.
(٤) المرجع السابق: ٢٧٩.

الأواخر من رمضان طوى فراشه، واعتزل النساء، وجعل عشاءه سحوراً. وفي إسناده حفص بن واقد.

قال ابن عدي: هذا الحديث من أنكر ما رأيت له. وروي أيضاً نحوه من حديث جابر خرَّجه أبو بكر الخطيب، وفي إسناده من لا يعرف حاله)[1].

ومن منهجه أنه يورد الحديث ويذكر من رواه وخرَّجه، ويبين درجته وآراء العلماء فيه، ويرجح ما يظهر له، فيقول رحمه الله: (خرَّج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا انتصف شعبان فلا تصوموا حتى رمضان»، وصححه الترمذي وغيره. واختلف في صحة هذا الحديث ثم في العمل به، فأما تصحيحه: فصحَّحه غير واحد منهم: الترمذي وابن حبان والحاكم والطحاوي وابن عبد البر، وتكلم فيه من هو أكبر من هؤلاء وأعلم، وقالوا: هو حديث منكر، منهم: عبد الرحمن بن مهدي والإمام أحمد وأبو زرعة الرازي، والأثرم)[2].

ومن منهجه أن يستشهد بالحديث الضعيف ويرى العمل به في فضائل الأعمال، قال رحمه الله: (. . . ففي سنن ابن ماجه بإسناد ضعيف عن علي عن النبي ﷺ: «إذا كان النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا فيقول: ألا مستغفر فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلى فأعافيه، ألا كذا

---

(١) المرجع السابق: ١٩٩.

(٢) لطائف المعارف، ص ١٤٢.

ألا كذا حتى تطلع الشمس)[1].

كما أنه يستشهد ببعض الآثار ويوضح رأيه فيها كما في قوله: (وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامله على البصرة: «عليك بأربع ليال من السنة فإن الله يفرغ فيهن الرحمة إفراغاً؛ أول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة الفطر، وليلة الأضحى» وفي صحته عنه نظر)[2].

وأحياناً يورد بعض الإسرائيليات كما في قوله: (وفي الإسرائيليات يقول الله: «ما وسعتني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن»)[3].

وابن رجب رحمه الله ومن سبقه ومن لحقه من علماء السلف يلجأون إلى هذا المنهج في الكتابة والتأليف لأنهم يرون أن من يطلع على كتاباتهم هم من طلبة العلم وذوي الاختصاص، الذين يميزون بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة والاسرائيليات وشغلهم الشاغل هو العلم وقضاء الوقت في طلبه وتحصيله وقراءة الكتب.

ومن منهج ابن رجب يرحمه الله أنه يعظ ويرشد ويوجه من حضر مجلس علمه أو من اطلع على مؤلفاته وكتبه، ومن وعظه قوله: (.. إخواني المعوَّل على القبول لا على الاجتهاد، والاعتبار ببر القلوب لا بعمل الأبدان، رب قائم حظه من قيامه السهر، كم من قائم محروم، وكم من نائم مرحوم، هذا نام وقلبه ذاكر، وهذا قام وقلبه فاجر)[4].

---

(١) المرجع السابق: ١٤٣.

(٢) المرجع السابق: ١٤٤.

(٣) كلمة الإخلاص، ص ٣٧.

(٤) لطائف المعارف، ص ٢٠٥.

ومن منهجه أنه يورد قصة يوضح بها المطلوب ويستشهد بها على ما أراد.

قال رحمه الله: (وروى أبو عثمان الصابوني بإسناد له عن رجل كان أسيراً ببلاد الروم فهرب من بعض الحصون، قال: فكنت أسير بالليل وأكمن بالنهار، فبين أنا ذات ليلة أمشي بين جبال وأشجار إذا أنا بجن فراعني ذلك فنظرت، فإذا راكب بعيراً فازددت رعباً، وذلك لأنه لا يكون في بلاد الروم بعير فقلت: سبحان الله. في بلاد الروم راكب بعير، إن هذا لعجب، فلما انتهى إلي قلت: يا عبد الله من أنت؟ قال: لا تسأل. قلت: إني أرى عجباً فأخبرني، فقال: لا تسأل. فأبيت عليه فقال: أنا إبليس وهذا وجهي، من عرفات رافقتهم عشية اليوم، اطلع عليهم فنزلت عليهم المغفرة ووهب بعضهم لبعض، فداخلني الهم والحزن والكآبة، وهذا وجهي إلى قسطنطينية، أتفرح بما أسمع بالشرك بالله وادِّعاء أن له ولداً، فقلت: أعوذ بالله منك، فلما قلت هذه الكلمة لم أرَ أحداً)[1].

ح- شيوخه:

١ - أول مشايخه والده الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، وقد كان عالماً صالحاً.

٢ - القاضي أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الله المشهور بابن قاضي الجبل، المتوفى سنة ٧٧١هـ.

٣ - صدر الدين أبو سعيد خليل ابن كميكدى العلائي، المتوفى سنة ٧٦١هـ.

---

(١) لطائف المعارف، ص ٢٤٩.

٤ – جمال الدين أبو سليمان داود بن إبراهيم العطار، المتوفى سنة ٧٥٢هـ.

٥ – محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، المعروف بابن الخبازي، المتوفى سنة ٧٥٦هـ.

٦ – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١هـ.

٧ – صدر الدين أبو الفتح محمد بن إبراهيم الميدومي، المتوفى سنة ٧٥٤هـ.

٨ – فتح الدين أبو الحرم محمد بن محمد بن القلنسي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٦٥هـ.

هؤلاء هم أهم مشايخه، وغيرهم كثير ممن تلقى عنهم العلم[1].

ط - تلاميذه:

١ – أحمد بن أبي بكر بن أحمد الحموي الأصل الحلبي الحنبلي، ويعرف بابن الرسام، المتوفى سنة ٨٤٤هـ.

٢ – داود بن سليمان بن عبد الله الموصلي ثم الدمشقي الحنبلي، المتوفى سنة ٨٤٤هـ.

٣ – عبد الرحمن بن أحمد بن عياش الزين الدمشقي الأصل المكي، المتوفى سنة ٨٥٣هـ.

٤ – الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الزين، أبو ذر المصري الحنبلي، ويعرف بالزركشي، المتوفى سنة ٨٤٦هـ.

---

(١) ثلاث رسائل، ابن رجب، ص ١٧، ١٨.

٥ - علي بن محمد بن علي الطرسوسي المقري، المتوفى سنة ٨٥٠هـ تقريباً.

٦ - علي بن محمد بن علي البعلي ثم الدمشقي الحنبلي، علاء الدين أبو الحسن، المعروف بابن اللحام، وكان أقرب تلاميذه إليه، توفي سنة ٨٠٣هـ.

٧ - عمر بن محمد بن أبي بكر السراج، أبو حفص الحلبي، ويعرف بابن المزلق، المتوفى سنة ٨٤١هـ[١].

هؤلاء هم أشهر تلاميذه والمبرزين منهم، لكن غيرهم كثير لا يحصون كثرة، ومن يحضرون دروسه ومواعظه فوق ذلك بكثير.

ي - وفاته:

لقد كانت حياة ابن رجب حافلة بالجهود التربوية الموفقة والأعمال المشرفة والنشاط العلمي البارز. وحياته العلمية كانت حافلة بروائع الإنتاج العلمي ثم بعد ذلك وافته المنية في شهر رجب من سنة ٧٩٥هـ، بعد أن خلف للمكتبة الإسلامية تراثاً علمياً أصيلاً وفكراً تربوياً متميزاً، فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وأثابه أعظم مثوبة على ما قدم من خدمات جليلة للتربية الإسلامية.

---

(١) المرجع السابق: ١٨، ١٩.

٢ - العصر الذي عاش فيه ابن رجب

إن دراسة حياة ابن رجب وفكره التربوي تتطلب بجانب دراسة شخصيته دراسة تاريخية للعصر الذي عاش فيه، فالأحداث السياسية والأوضاع الاجتماعية والحركة العلمية والحياة الاقتصادية كلها تؤثر مجتمعة في الأفكار والتوجهات لدى هذه الشخصية أو غيرها من الشخصيات سلباً أو إيجاباً، لذا فإننا سنتناول هذه النواحي بشيء من الإيجاز.

الناحية السياسية:

كانت البلاد داخلياً تعيش حالة من الفوضى والاضطراب، فقد (. . . قاست كثيراً في عهد المماليك الجراسك من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع مما أوجد جواً من القلق وعدم الاستقرار)[١].

(وهذه الاضطرابات أثرت تأثيراً واضحاً في جميع النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية)[٢].

ولقد كانت شخصية الأمراء مسيطرة على شخصية السلاطين وأصبحت أسماؤهم (هي مدار الأحداث المعاصرة، وموضوع اهتمام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين. ذكر ابن كثير رحمه الله حادثة وقعت في العشر الأواخر من رمضان سنة٧٤٨هـ)[٣]. مفادها (جاء البريد من نائب غزة إلى نائب دمشق بقتل السلطان الملك المظفر حاجي بن

---

(١) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٧٢م، ص ٢٠٣.

(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢١٨.

(٣) المرجع السابق: ٢١٨.

الناصر محمد، وقع بينه وبين الأمراء، فتحيزوا عنه إلى قبة النصر، فخرج إليهم في طائفة قليلة، فقتل في الحال وسحب إلى مقبرة هناك، ويقال قُطِّع قطعاً)[1] . ومثل هذه الأحداث أي القتل والتمثيل والغدر تحصل أحياناً بين نائب السلطان وبعض الأمراء، فقد (مسك نائب السلطنة بدمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه، وكان قد انتقل إلى القصر الأبلق بأهله، فما شعر بوسط الليل إلا ونائب طرابلس الأمير سيف الدين ألجي بغا المظفر الناصري ركب إليه في طائفة من الأمراء الألوف وغيرهم، فأحاطوا به ودخل عليه من دخل وهو مع جواريه نائم فخرج إليهم فقبضوا عليه وقيدوه. . . ، وأصبح الناس أكثرهم لا يشعر بشيء مما وقع فتحدث الناس بذلك واجتمعت الأتراك إلى الأمير سيف الدين ألجي بغا. . ونزل بظاهر البلد واحتيط على حواصل أرغون شاه. . .)[2] . وقد زعم أنه ما فعل ذلك إلا بناء على كتاب ورده من السلطان أن يفعل ما فعل، ولكن ظهرت الحقيقة بعد بأن الكتاب الذي جاء على يديه مقفل، وليس عند السلطان علم بما وقع)[3] وهذا يدل على مدى الخلل والاضطراب السياسي والقلق والفوضى التي تعيشها البلاد في هذا العصر.

وأحياناً يتتبع السلطان بعض الأمراء الخارجين عن طاعته ويتمكن منهم كما حصل ليلبغا. يقول ابن كثير: (. . . وفد البريد من الديار المصرية يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة، فأخبر بقتل يلبغا فيما بين

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. دار الفكر. بيروت سنة ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م ١٤/ ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق ١٤/ ٢٣٠.

(٣) المرجع السابق ١٤/ ٢٣٠.

قاقون وغيره وأخذت رؤوسهما[1] إلى السلطان)[2]. وأحياناً يتمرد بعض الأمراء على طاعة السلطان ويعيثون في البلاد فساداً، كما حدث عندما أقبل العسكر التابعين لنائب السلطنة المنشق أرغون على بلاد الشام (. . . وعاثوا فيما جاوروه من القرايا والبساتين والكروم والزروع، فيأخذون ما يأكلون وتأكل دوابهم وأكثر من ذلك، ونهبت قرايا كثيرة، وفجروا بنساء وبنات وعظم الخطب، وأما التجار ومن يذكر بكثرة مال فأكثرهم مختف لا يظهر لما يخشى من المصادرة. . . وفي كل يوم نسمع بأمور كثيرة من النهب للقرايا والحواضر حتى انتقل كثير من أهل الصالحية أو أكثرهم، وكذلك من أهل العقبية وسائر حواضر البلد فنزلوا عند معارفهم وأصحابهم، ومنهم من نزل على قارعة الطريق بنسائهم وأولادهم)[3].

وأحياناً تقع بعض الجرائم فلا يستطيع السلطان أن يكتشف المجرمين مما يشكل خوفاً ورعباً عند المواطنين. من هذه الحوادث حادثة وقعت (في يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٧٥١هـ عندما أصبح بواب المدرسة المستجدة التي يقال لها الطيبانية إلى جانب أم الصالح مقتولاً مذبوحاً، وقد أخذت من عنده أموال من المدرسة المذكورة، ولم يطلع على فاعل ذلك، وكان البواب رجلاً صالحاً مشكوراً، رحمه الله)[4].

وحالات الاضطراب هذه وعدم الاستقرار المشار إليه قد حصلت

---

(١) أي هو وأبوه.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٣.

(٣) المرجع السابق ١٤/ ٢٤٤.

(٤) المرجع السابق ١٤/ ٢٣٤.

حتى في الديار المقدسة، فكان الأمراء يعتدي بعضهم على بعض حتى وهم متلبسون بمناسك الحج، يصف ابن كثير حالة من تلك الحالات وقعت في منى (. . . ذلك أنه اختلف الأمراء المصريون والشاميون مع صاحب اليمن الملك المجاهد، فاقتتلوا قتالاً شديداً قريباً من وادي محسر، ثم انجلت الواقعة عن أسر صاحب اليمن الملك المجاهد، فحمل مقيداً إلى مصر، كذلك جاءت بها كتب الحجاج وهم أخبروا بذلك . . .)[1]. حتى في البلد الحرام لم يأمن الناس على دمائهم.

هذا هو حال البلاد ووضعها الداخلي خوف وقلق واضطراب وقتل وكيد ودس وتنكيل، أثر هذا كله على الوضع الاقتصادي والاجتماعي.

أما الوضع الخارجي، فقد كان أعداء الإسلام من الصليبيين يتربصون بالمسلمين الدوائر، وقد علموا حالة الضعف التي تعيشها بلدان المسلمين في هذه الحقبة الزمنية وانشغال السلاطين والأمراء بأمورهم الداخلية وكيد بعضهم لبعض وتردي الأوضاع الاقتصادية، فأعدوا العدة وأجمع : (بطرس لوزجفان قوته في جزيرة رودس، حيث تم الاتفاق على اختيار الاسكندرية هدفاً للهجوم الصليبي، وذلك للقضاء على دولة المماليك التي تسببت في طرد الصليبيين من الشام من ناحية، والاستفادة من مركز المدينة الحربي وموقعها التجاري من ناحية أخرى)[2].

بعد أن سمعوا (. . . . بأخبار الفوضى التي غرقت فيها مصر في عصر أحفاد الناصر محمد، وكيف كانت الموانىء والمدن المصرية خالية تماماً من وسائل الدفاع)[3].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٧ .

(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٢٥ .

(٣) المرجع السابق: ٢٢٠ .

ففي سنة ٧٦٧هـ نزل الصليبيون على شاطىء الإسكندرية . . . وهاجموها فور وصولهم، ولم تفلح الاستعدادات السريعة التي اتخذت لوقف الخطر الصليبي، فاقتحم الصليبيون الاسكندرية وفر العربان الذين استحضروا من البحيرة للدفاع عن الثغر، وهكذا سقطت الاسكندرية في قبضة الصليبيين)[١].

ولم يريدوا البقاء، بل أرادوا ضربها وضرب المسلمين والعودة من حيث أتوا (. . . فبقوا فيها ستة أيام تعتبر من أحلك الأيام في تاريخ الثغر، إذ انتشر الصليبيون في شوارع المدينة وأزقتها ينتقمون من أهلها المسلمين، فاستلموا الناس بالسيف ونهبوا الحوانيت والدور، وأحرقوا الخانات والقصور، وخربوا المساجد والزوايا، واعتدوا على النساء والبنات)[٢]، ولم يجدوا من السلاطين والأمراء أي مقاومة أو دفاع أو صد للعدوان، هذا هو الوضع السياسي داخلياً وخارجياً، ولقد كان لهذا الوضع كبير الأثر في الناحية الاجتماعية.

الناحيـــــــة الاجتماعيـــــــة:

ماذا نروم من بلاد تكثر فيها القلاقل والاضطراب والفزع والخوف والكيد والمكر والحروب الطاحنة، لا نروم إلا أنها قد أصبحت مرتعاً للأمراض والأوبئة الفتاكة، وها هي بلاد الشام في الفترة التي نتحدث عنها قد حلَّ بها الطاعون (فكثر الموت بالناس . . . وزاد الأموات كل يوم على المائة، وإذا وقع في أهل بيت لا يكاد يخرج منه حتى يموت أكثرهم، وقد توفي . . . خلق كثير وجم غفير، ولا سيما من النساء، فإن الموت

---

(١) المرجع السابق: ٢٢١.

(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٢١.

فيهن أكثر من الرجال بكثير. . .)[1].

وما كان هناك إمكانيات طبية لمقاومة هذا المرض، بل كانوا يلجأون إلى الله بالدعاء والعبادة والتضرع (. . . شرع الخطيب في القنوت في سائر الصلوات والدعاء برفع الوباء. . .)[2].

وقد صدر من السلطنة أمر بالصيام ثلاثة أيام (فنودي في البلد أن يصوم الناس ثلاثة أيام، وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى عند مسجد القدم يتضرعون إلى الله ويسألونه في رفع الوباء عنهم)[3].

كما أن الناس قد ابتلوا بكثرة الكلاب التي قضت مضاجعهم وأخافتهم بالليل والنهار، فصدر في سنة من السنين (مرسوم نائب السلطنة بقتل الكلاب من البلد، وقد كانت كثيرة بأرجاء البلد وربما ضرت الناس وقطعت عليهم الطرقات في أثناء الليل، أما تنجيسها الأماكن فكثير، قد عم الابتلاء به وشق الاحتراز منه)[4].

والناس لا شك قد يوجد فيهم بقايا من الخير والصلاح تخوفوا من قتل هذه الحيوانات بالجملة، فقد أوضح العلماء حكم ذلك، فهذا ابن كثير يقول: (قد جمعت جزءاً في الأحاديث الواردة في قتلهم واختلاف الأئمة في نسخ ذلك. . . .)[5].

كما أن الناس من شدة حرصهم على الخير ورغبتهم فيه يسعون

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ١٤/ ٢٢٦.
(٢) المرجع السابق ١٤/ ٢٢٦.
(٣) المرجع السابق ١٤/ ٢٢٦.
(٤) البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٦.
(٥) المرجع السابق ١٤/ ٢٢٧.

لإقامة صلاة الجمعة في كل مسجد بني حديثاً. (ففي يوم الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الأول أقيمت جمعة جديدة بمحلة الشاغور بمسجد هناك يقال له مسجد المزار، وخطب فيه جمال الدين بن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية، ثم وقع في ذلك كلام فأفضى الحال أن أهل المحلة ذهبوا إلى سوق الخيل يوم موكبه، وحملوا سناجق خليفتين من جامعهم ومصاحف، واشتملوا إلى نائب السلطنة وسألوا منه أن تستمر الخطبة عندهم فأجابهم إلى ذلك في الساعة الراهنة، ثم وقع نزال في جواز ذلك، ثم حكم القاضي الحنبلي لهم بالاستمرار)[١].

ولقد كان في المسجد الأموي عدد من المؤذنين يؤذنون في الصلاة ويقيم كل أصحاب مذهب الصلاة لوحدهم. وفي يوم (... أذن المؤذنون للفجر قبل الوقت بقريب من ساعة، فصلى الناس في الجامع الأموي على عادتهم في ترتيب الأئمة، ثم رأوا الوقت باقياً فأعاد الخطيب الفجر بعد صلاة الأئمة كلهم، وأقيمت الصلاة ثانياً)[٢].

وفي تعدد الجماعة تفريق لجماعة المسلمين، ولقد ورد حديث عنه ﷺ ينهى فيه عن تعدد الجماعة في المسجد الواحد[٣].

وكل هذا من أجل وحدة صف المسلمين وعدم فرقتهم.

ولقد كانت الحشمة وكان الحياء يسودان الأوساط الاجتماعية في

---

(١) المرجع السابق ١٤/ ٢٤٧.
(٢) المرجع السابق ١٤/ ٢٣٢.
(٣) الحديث في مصنف ابن أبي شيبة وعبد الرزاق بسندهما إلى الحسن البصري قال: «كان أصحاب محمد ﷺ إذا دخلوا المسجد وقد صُلي فيه صلوا فرادى» ابن أبي شيبة ٢/ ٢٢٣، مصنف عبد الرزاق ٢/ ٢٩٣ رقمه ٣٤٢٥-٣٤٢٦.

تلك الحقبة الزمنية وكان السلطان يتدخل في ترك بعض العادات إذا كانت المصلحة العامة في ذلك فمرة: (. . . نودي في البلد من جهة نائب السلطان عن كتاب جاءه من الديار المصرية أن لا يلبس النساء الأكمام الطوال العراض، ولا البرد الحرير، ولا شيء من اللباسات والثياب الثمينة، ولا الأقمشة القصار)[1].

وإذا لم يطع النساء في ذلك فإنهن يتعرضن لأشد العقوبة، يقول ابن كثير: (. . . . بلغنا أنهم بالديار المصرية شددوا في ذلك جداً، حتى قيل إنهم أغرقوا بعض النساء بسبب ذلك)[2].

الناحيـــــة الاقتصاديـــــة:

لقد كان للوضع الاقتصادي المضطرب والحالة الاجتماعية المهزوزة وتفشي الأمراض الفتاكة دور بارز في سوء الأوضاع الاقتصادية ويصور ذلك النص الآتي: (. . . زاد من أحوال البلاد سوءاً في ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم الوباء الأسود سنة ٧٤٩هـ، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ أثر حتى كادت تتوقف تماماً)[3].

ولقد (ترتب على الوباء الذي حدث في زمن السلطان حسن بن شعبان في هذه السنة أن هلك كثير من الفلاحين، واضطر الجند إلى الخروج بغلمانهم لجمع المحصول من الغلال، ولم يجد كثير من الناس شيئاً من إقطاعاتهم، كل ذلك جعل الإقطاعات عاطلة دون أن تجد من

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ١٤/ ٢١٣.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ١٤/ ٢١٣.

(٣) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢١٥، ٢١٦.

يستغلها من الأمراء أو يزرعها من الفلاحين)[1].

كما أن الناس في عصر سلاطين المماليك (سئموا الاضطرابات والمنازعات من طوائف المماليك وأمرائهم، فلا يكاد ينتشر الخبر بمرض سلطان أو وفاته أو مقتله حتى تغلق الحوانيت ويختزن الناس الطعام ويستعدون لفترة عصيبة يتزعزع فيها الأمن وتقل المؤن وتضطرب الحياة الاقتصادية)[2].

الناحيـــــــة العلميـــــــة:

بعد كل ما ذكرنا من سوء الحالة السياسية وضعف الناحية الاجتماعية وتردي الأحوال الاقتصادية ماذا نتوقع للحالة العلمية غير ركود في الإنتاج العلمي، وفقدان لروح الابتكار والتجديد، وتحجر في الأفكار، وسيادة للتقليد، وتعصب لأقوال الرجال، مما حدى بالغيورين على هذا الدين والمصلحين الدعاة في هذه الأمة أمثال ابن القيم شيخ ابن رجب أن يشحذوا أقلامهم ويقدحوا أفكارهم لمحاربة التقليد ونبذ التعصب، والعودة إلى نصوص الكتاب والسنة وفتح باب الاجتهاد، وها هو ابن القيم يقول: (والواجب اتباع الدليل أين كان، ومع من كان، وهو الذي أوجب الله اتباعه وحرم مخالفته، وجعله الميزان الراجح بين العلماء، فمن كان في جانبه كان أسعد بالصواب قل موافقوه أو كثروا)[3].

ولقد اقتصر أكثر نشاط العلماء في هذا العصر على قراءة التراث،

---

(١) المماليك، د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٧٩م، ص ١٩١.

(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٣) الفروسية، ابن القيم، ص ٨٢.

والاهتمام بالجمع والشروحات والموسَّعات والمختصرات في التأليف، وبرز في هذه الميادين بعض هؤلاء العلماء. فمنهم من اهتم بالتفسير والحديث، ومنهم من اهتم بالفقه والأصول، ومنهم من اهتم باللغة والأدب، ومنهم من اهتم بالتاريخ، وألفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة، ودرسوا وشغلوا المناصب العلمية في الجوامع والمدارس، وكان لهم في هذا الجانب نشاط واضح ملموس[1].

ولقد كانت الجوامع والمساجد والمدارس وهي من أهم المؤسسات التربوية تشهد حركة علمية مستمرة، تغص بطلاب العلم على كافة مستوياتهم واختلاف مشاربهم.

ولقد كان بعض العلماء يغشون مجالس الحكام، فهذا ابن كثير يذكر أنهم اجتمعوا بالخليفة المعتضد بالله عند زيارته للشام، فقال: (في يوم السبت عاشر شعبان سنة ٧٥٣هـ اجتمعنا بالخليفة المعتضد بالله أبي الفتح ابن أبي بكر وسلمنا عليه وهو نازل بالمدرسة الدماغية داخل باب الفرق، وقرأت عنده جزءاً (أي من الحديث). . . والمقصود أنه شاب حسن الشكل، مليح الكلام، متواضع، جيد الفهم، حلو العبارة، رحم الله سلفه)[2]. ولقد كان للمدارس في هذا العصر دور بارز وهام يدرس بها كبار العلماء على مختلف المذاهب الفقهية، وأحياناً يحصل نوع من النزاع بين الفقهاء على هذه المدارس، يروي لنا ابن كثير شيئاً من ذلك في الحادثة التالية: (. . . في مستهل شهر رمضان اتفق أمر غريب لم يتفق مثله من مدة متطاولة فيما يتعلق بالفقهاء والمدارس، وهو أنه كان قد

---

(١) لمزيد من الاطلاع على تراجم هؤلاء العلماء في مختلف هذه العلوم الرجوع إلى الفكر التربوي عند ابن القيم، للمؤلف، ص ٨٥، ٨٦، ٨٧.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٥.

توفي ابن الناصح الحنبلي بالصالحية وكان بيده نصف تدريس الضاحية التي للحنابلة بالصالحية والنصف الآخر للشيخ شرف الدين ابن القاضي شرف الدين الحنبلي شيخ الحنابلة بدمشق، فاستنجز مرسوماً بالنصف الآخر وكانت بيده ولاية متقدمة من القاضي علاء الدين ابن المنجا الحنبلي، فعارضه في ذلك قاضي القضاة جمال الدين المرداوي الحنبلي وولي فيها نائبه شمس الدين ابن مفلح، ودرس بها قاضي القضاة في صدر هذا اليوم فدخل القضاة الثلاثة الباقون ومعهم الشيخ شرف الدين المذكور إلى نائب السلطنة وأنهوا إليه صورة الحال، فرسم له بالتدريس فركب القضاة المذكورون وبعض الحجاب في خدمته إلى المدرسة المذكورة، واجتمع الفضلاء والأعيان ودرس الشيخ شرف الدين المذكور وبث فضائل كثيرة وفرح الناس)[1].

لقد كان الناس يعظمون العلماء والمشايخ والدعاة وأصحاب الصلاح فيهم، ويعظمون الفقهاء، ويكبر عندهم من يرفض المناصب الحكومية والولايات العامة والقضاء من ورعهم وزهدهم في ذلك. ومما يدل على هذا التقدير والإجلال لهذا الصنف من العلماء أنه قد حصل مرة: (أن استدعي الشيخ جمال الدين المرداوي من الصالحية إلى دار السعادة، وكان تقلد القضاء لمذهبه قد وصل إليه قبل ذلك بأيام، فأحضرت الخلعة بين يدي النائب والقضاة الباقين وأريد على لبسها وقبول الولاية فامتنع، فألحوا عليه فصمم وبالغ في الامتناع، وخرج وهو مغضب فراح إلى الصالحية فبالغ الناس في تعظيمه. . .)[2].

ذلك لأنه رفض الولاية والحكم، هذا وكلما كان العالم بعيداً عن مؤثرات الحكم كلما كان له قوة في الحق وجرأة في النطق به، لكن بعض

---

(١) المرجع السابق ١٤/ ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٢.

الناس يرى أنه من يتوسم فيهم الخير لا ينبغي أن يرفضوا الولاية حتى لا يتسلمها أرذال الناس فيقع الفساد والجور في الرعية، لذا فإن الشيخ جمال الدين المذكور الذي رفض بادىء الأمر وافق أخيراً مراعاة للرأي العام وتحقيقاً للمصلحة، فوافق تحت ضغط المجتمع ولم يحرص عليها. ولقد (بقي القضاة يوم ذلك في دار السعادة ثم بعثوا إليه بعد الظهر، فحضر من الصالحية فلم يزالوا به حتى قبل، ولبس الخلعة، وخرج إلى الجامع، وقرىء تقليده بعد العصر، واجتمع معه القضاة، وهنأه الناس وفرحوا به لديانته وصيانته وفضيلته وأمانته)[1].

إنه يعلم أن من سأل الإمارة وكل إليها ومن أعطيها أعين عليها، فقد أعطي الولاية فرفضها رفضاً شديداً، لكن تحت ضغط العامة وإلحاح الخاصة قبلها ووافق، وهذا يدل على أن العالم ينبغي أن يحظى بمكانته العلمية وسلطته الأدبية التي تجعله في مكان الصدارة، فيكون مكان تقدير واحترام عند السلاطين والحكام والناس بصفة عامة، وهذه النماذج من العلماء جعلت للعلم قدراً وقيمة حتى عند بعض السلاطين، فقد عرف من هؤلاء السلاطين حبهم للأدب (. . . ومجالس العلم، كما عرف بعضهم بالتقوى والورع، الأمر الذي تشهد عليه مؤسساتهم الخيرية من مساجد ومدارس. . .)[2].

فقد (أقام الناصر كثيراً من المنشآت مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها)[3]، فقد انتشر بناء المدارس في دمشق بشكل واسع حتى أنه أصبح عددها أكثر من ثلاثمائة مدرسة حتى أنه قد ألف النعيمي كتاباً

---

(١) المرجع السابق ١٤/ ٢٣٣.
(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٣٠.
(٣) المرجع السابق: ٢١٧.

أسماه الدارس في تاريخ المدارس .

ولقد كان لكل مدرسة مبان ملحقة بها لطلاب العلم فيها ، وبها مكتبة وسكن للناظر عليها ، وعليها أوقاف ينفق منها على المدرسة وطلاب العلم فيها لسد احتياجاتهم ونفقاتهم ، يقوم ببناء هذه المدارس السلاطين والأمراء والأعيان والوجهاء وأهل الصلاح والخير ، وهذا يدل دلالة واضحة على الاهتمام بالعلم ومؤسساته . أما الاهتمام بالمساجد فلا يقل شأناً عن الاهتمام ببناء المدارس . يقول ابن كثير في مستهل سنة ٧٤٨هـ : (استهلت هذه السنة ونائب السلطنة في همة عالية في عمارة الجامع الذي قد شرع في بنائه غربي سوق الخيل بالمكان الذي كان يعرف بالتل . . .)[١] .

وكانوا يهتمون بالمساجد القديمة ، ويجدد بناؤها إذا رأوا الحاجة ماسة لذلك ففي (. . . شهر ربيع الأول من سنة ٧٤٨هـ أخذوا لبناء الجامع المجدد بسوق الخيل أعمدة كثيرة من البلد ، وفي أواخر شهر ربيع الآخر ارتفع بناء الجامع)[٢] .

أما بالنسبة للجوامع الكبيرة مثل الجامع الأموي ، فقد كانوا يهتمون بها اهتماماً بالغاً من حيث تعيين الأئمة والخطباء والمؤذنين الذين يقومون بشؤونها خير قيام . فمسجد دمشق كان به أكثر من ثلاثين مؤذناً وأكثر من إمام وخطيب ، ومما يدل على ذلك هذه الحادثة التي رواها لنا ابن كثير : (. . . اتفق في ليلة الأحد السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٥١هـ أنه لم يحضر أحد من المؤذنين على السدة في جامع دمشق وقت

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٢١ .

(٢) المرجع السابق ١٤/ ٢٢١ .

إقامة الصلاة للمغرب سوى مؤذن واحد، فانتظر من يقيم معه الصلاة، فلم يجيء أحد غيره مقدار درجة أو أزيد منها، فأقام هو الصلاةوحده، فلما أحرم الإمام بالصلاة تلاحق المؤذنون في أثناء الصلاة حتى بلغوا دون العشرة، وهذا أمر غريب من عدة ثلاثين مؤذن أو أكثر، لم يحضر سوى مؤذن واحد، وقد أخبر خلق من المشايخ أنهم لم يروا نظير هذه الكائنة)[1].

وبعد.. فهذا هو العصر الذي عاش فيه ابن رجب من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، ولقد أثر كل هذا في سيرته الذاتية ونشاطه التربوي وجهوده العلمية، فجند نفسه وبذل حياته لطلب العلم دراسة وتحصيلاً وقراءة ومطالعة وكتابة وتأليفاً ودروساً وتربية، فكانت له مساهمات تربوية مع بقية علمائنا في بناء أسس الفكر التربوي الإسلامي، فرحمه الله وأجزل مثوبته على ما قدم للتربية الإسلامية، ونسأل الله أن يوفقنا لإحياء تراثه التربوي، لنضيف بذلك لبنة في صرحنا التربوي، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) المرجع السابق ١٤/ ٢٣٤.

الفصل الثـــالث

مفهوم الإنسان عند ابن رجب

* ※ تمهيد .
* ※ مفهوم الإنسان .
* ※ الإنسان في مرحلة الجنينية .
* ※ مَّ يتكون الإنسان؟ .
* ※ الغاية من خلق الإنسان .
* ※ الإنسان مخلوق مكرم .
* ※ تحذير .
* ※ نهاية وبداية .
* ※ الدوافع الفطرية .
* ※ الإنسان عابد .
* ※ بين داعيين .
* ※ السعادة .
* ※ خير الناس .
* ※ الخلاصة .



تمهيـــــــــد

من المناسب جداً ونحن نستعرض الفكر التربوي عند ابن رجب أن نستطلع رأيه في الإنسان الذي يعتبر محور العملية التربوية: (فأول واجب يترتب على المعلم هو أن يتعرف على ماهية الإنسان)[1]، فالتعرف على الإنسان يحدد أهم معالم التربية التي تصوغه وتعده لغايته التي خلق لها، وتساعده على تحقيق المسؤولية المناطة به، ألا وهي الاستخلاف في الأرض والاستعمار لها. قال تعالى لملائكته: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة...**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**هوالذي جعلكم خلائف في الأرض**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**واستعمركم فيها...**﴾[4]، فـ(الإنسان أو الكائن البشري ركن أساسي في أية عملية تربوية)[5].

والتربية الإسلامية تهتم بهذا الإنسان قبل تكوينه، وبعد أن يتكون في عالم الأجنة، وعندما يكون طفلاً، وحال تنقله في مراحل العمر، إلى أن يستقر به القرار في الجنة أو النار.

فقد حث الإسلام عند تكوين الأسرة على اختيار كل شريك

---

(١) تربية الإنسان الجديد، د. محمد فاضل الجمالي، الشركة التونسية للتوزيع، ص ٢٧.

(٢) سورة البقرة، آية [٣٠].

(٣) سورة فاطر، آية [٣٩].

(٤) سورة هود، آية [٦١].

(٥) فلسفة التربية الإسلامية، د. عمر الشيباني، ص ٧١.

لشريكه؛ فحث الرجل أن يختار المرأة صاحبة الدين فقال رسول ﷺ: «تنكح المرأة لأربع لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1]، كما حث ذوي المرأة ووليها بأن يختاروا الرجل الذي يجمع مع الدين الأمانة أو الخلق فقال ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[2]، وهذا سبق للتربية الإسلامية يسجل لها ويشهد بأنها من لدن حكيم خبير يعلم ما كان وما سيكون سبحانه وتعالى؛ لأن تهيئة المناخ الملائم الذي سينشأ فيه هذا الإنسان يساعد على حسن تربيته وتوجيهه.

مفهوم الإنسان:

يجدر بنا ونحن نستعرض رأي ابن رجب في مفهوم الإنسان ومم يتكون أن نعرف الإنسان عند اللغويين والفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء الأخلاق، لنرى أن ابن رجب رحمه الله يعرف هذا الإنسان بما فهمه من الإسلام عن هذا المخلوق العجيب. فاللغويون يرون أن (الإنسان من الناس اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع، واختلف في اشتقاقه مع اتفاقهم على زيادة النون الأخيرة، فقال البصريون من الأنس فالهمزة أصل ووزنه فعلان، وقال الكوفيون: مشتق من النسيان فالهمزة زائدة ووزنه إفعان على النقص، والأصل إنسيان على إفعلان، ولهذا يرد إلى أصله في التصغير فيقال: «أُنَيْسيان» و«إنسان» العين حدقتها والجمع فيهما «أناسي»)[3]. أما الفلاسفة فيرون:

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٨٠، ٢/ ٤٢٨.

(٢) الحديث رواه الترمذي، في كتاب النكاح، ٣/ ٣٩٤.

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للرافعي، تأليف أحمد بن محمد بن محمد المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١/ ٢٦. مادة...

(إن الإنسان حيوا ن ناطق، أو هو المتميز بالعقل، أو هو الحيوان المفكر، أو القادر على الإدراك المجرد أو القادر على الرمز)[١]. أما علماء الأخلاق فيرون: (أن الإنسان هو الحيوان المتدين، أو ذو النزعة نحو الإيمان بالغيب، أو هو الحيوان الذي يستطيع أن يميز بين الحلال والحرام ويعرف الخبيث من الطيب أو هو الحيوان الأخلاقي، أو ذو الأفعال الإرادية، أو المخلوق المسؤول)[٢]. أما علماء الاجتماع وتاريخ الحضارات وعلماء الاقتصاد فيرون أن: (الإنسان حيوان اجتماعي أو مدني بطبعه، أو هو الحيوان ذو الاستعداد لصنع الثقافة والحضارة، أو هو الحيوان المتميز بطموحه ومغامرته واهتمامه بالمستقبل وحبه للسيطرة والتملك)[٣].

بعد هذا نريد أن نعرف رأي الإسلام في الإنسان، وموقف ابن رجب مما ورد في الإسلام حول تعريف الإنسان. لقد أوضح الحق سبحانه وتعالى أن آدم عليه السلام وهو أبو البشر خلق من طين، وأن أبناءه خلقوا من ماء مهين. قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين**﴾[٤] فابن رجب يرى: (.... أن آدم خلق من طين)[٥] ثم يفسر الطين فيقول: (.... والطين تراب مختلط بماء)[٦] وإذا خلق آدم من طين فإنه لا يصح أن يقال بأنه ولد الطين

(١) مقدمة في الفلسفة الإسلامية، د. عمر الشيباني، ط ٢، سنة ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ص ٩٤.
(٢) المرجع السابق: ٩٤.
(٣) المرجع السابق: ٩٤.
(٤) سورة المؤمنون، آية ١٢، ١٣.
(٥) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٢١.
(٦) المرجع السابق: ٢١.

أو التراب)[1]، يقول ابن رجب رحمه الله: (.. إن آدم لا يقال إنه ولد التراب ولا الطين)، ثم يعلل ذلك ويبين أن المتوالد من الإنسان والحيوان لا يكون إلا من أبوين من جنسه، يوضح ذلك بقوله: (.... والحيوان نوعان: متوالد وهو ما ولده من جنسه وهو الإنسان وما يخلق من أبوين من البهائم والطير وغيرهما، ومتولد: وهو ما يخلق من غير جنسه)[2]، ثم ذكر أمثلة للمتولد من غير جنسه فقال: (... كدود الفاكهة والخل والقمل، وكالقمل المتولد من الوسخ والفار والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من التراب والماء، وإنما يتولد من أصلين أيضاً كما خلق آدم من تراب وماء)[3]، ثم يشير إلى أن ما خلق من غير جنسه خلقه أعجب مما توالد من أبوين من جنسه فقال: (.. لهذا كان خلق آدم أعجب من خلق أولاده)[4]، من هذا نلحظ أن الإنسان مخلوق مميز، فليس هو حيواناً ناطقاً ولا حيواناً اجتماعياً فقط، بل هو مخلوق فيه دلائل القدرة الإلهية واضحة. قال تعالى: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[5]، وأصل هذا الإنسان الأول من طين، وأصله الثاني من ماء مهين. وهو مخلوق مكرم، قال تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم...**﴾[6].

وهو مخلوق لغاية، قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس**

---

(1) المرجع السابق: ٢١.

(2) ثلاث رسائل للحافظ ابن رجب، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، تقديم فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، الدار السلفية، الكويت، ط ١ سنة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، ٩٤.

(3) المرجع السابق: ٩٤.

(4) المرجع السابق: ٩٤.

(5) سورة الذاريات، آية [٢٠، ٢١].

(6) سورة الإسراء، آية [٧٠].

إلا ليعبدون﴾[1]، وأنيطت به مسؤولية الخلافة في الأرض وعمارتها. قال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة..**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿... **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها...**﴾[3]، وهذا الإنسان يمر في حياته بعدة مراحل، ومنها:

المرحلة الجنينية:

حيث بين الحق سبحانه وتعالى أن الجنين يمر بعدة أطوار ومراحل من النمو وهو في بطن أمه فقال تعالى: ﴿... **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث.....**﴾[4].

وابن رجب رحمه الله الذي يستمد فكره التربوي من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ يذكر لنا حال النطفة من حين استقرارها في رحم المرأة إلى أن يتكون هذا المخلوق ويصبح خلقاً سوياً، فيقول رحمه الله: (... وقد ذكر علماء الطب أن المني إذا وقع في الرحم حصل له زبدية ورغوة ستة أيام أو سبعة أيام، وفي هذه الأيام تصور النطفة من غير استمداد من الرحم، ثم بعد ذلك تستمد منه، وابتداء الخطوط والنقط بعد هذا بثلاثة أيام، وقد يتقدم يوماً ويتأخر يوماً، ثم بعد ستة أيام وهو اليوم الخامس عشر من وقت العلوق ينفذ الدم إلى الجميع فيصير علقة، ثم تتميز الأعضاء تميزاً ظاهراً ويتنحى بعضها عن مماسة بعض وتمتد لرطوبة النخاع، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الأصابع تميزاً يتبين في بعض ويخفى في بعض... وأقل مدة يتصور

---

(١) سورة الذاريات، [٥٦].

(٢) سورة البقرة، [٣٠].

(٣) سورة هود، [٦١].

(٤) سورة الزمر، [٦].

فيه الذكر ثلاثون يوماً. . . ولا أنثى قبل أربعين يوماً. . .)[1]، ويؤيد هذا ما ورد في كتاب الله عز وجل حيث قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿**ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾[2].

مم يتكون الإنسان؟:

باستعراض بعض الآيات القرآنية نجد أن الإنسان يتكون من عنصرين أساسيين هما: الروح والبدن، قال تعالى: ﴿. . . **إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾[3]، ولقد امتزجت الروح بالبدن امتزاجاً جعلهما كالشيء الواحد. فهما لا يفترقان إلا بجهد، ولا يكون الافتراق إلا عند الموت أو عند النوم فيفترقان شبه افتراق. قال تعالى: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**﴾[4]، ويحصل ألم شديد لكل من الروح والجسد عندما يفترقان. يقول ابن رجب: (. . . مفارقة الجسد للروح لا تقع إلا بعد ألم عظيم تذوقه الروح والجسد جميعاً. . .)[5]؛ لأن الروح: (. . . قد تعلقت بهذا الجسد وألفته واشتدت ألفتها له وامتزاجها به ودخولها فيه، حتى صارا كالشيء الواحد فلا يتفارقان إلا بجهد شديد وألم عظيم ولم يذق ابن آدم في حياته ألماً مثله)[6]، وتقرير هذا يفيد في معرفة نوع التربية التي

---

(١) المرجع السابق: ١٠١.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ٤٣، ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون، آية [١٣، ١٤].

(٤) سورة ص، آية [٧١، ٧٢].

(٥) سورة الزمر، آية [٤٢].

(٦) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ١٠٠.

تصلح لهذا الإنسان، فالتربية التي ننظر إليه فيها على أنه روح دون بدن لا تحقق له السعادة ولا التوازن في حياته. وكذلك التربية التي تعتبره بدناً دون روح لا تحقق له السعادة أيضاً. ولا يصلح لتربية هذا الإنسان إلا ما ورد في التربية الإسلامية التي مصدرها خالق هذا الإنسان الذي خلقه وصوره وفطر سمعه وبصره، وحدد الغاية من خلقه، وأوضح رسالته ومسؤوليته في هذا الوجود. فهو وحده سبحانه الذي يعلم ما يصلح حاله في دنياه وآخرته، ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[1].

الغاية من خلق الإنسان:

(... إن الله تعالى خلق الخلق كلهم لعبادته كما قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[2][3]، وأخذ عليهم العهد وهم في عالم الذر، قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾[4]. وذلك عندما: (... استخرج من ظهر آدم ذريته وأخذ عليهم الميثاق)[5]، و(... كتب ذلك العهد في رقٍّ)[6]، ثم استودعه الحجر الأسود كما يقول ابن رجب: (... فمستلم الحَجر يبايع الله على اجتناب معاصيه، والقيام بحقوقه)[7].

---

(١) سورة الملك، آية [١٤].

(٢) سورة الذاريات، آية [٥٦].

(٣) الإستخراج لأحكام الخراج، ابن رجب، ص ٥.

(٤) سورة الأعراف، آية [١٧٢].

(٥) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٦١.

(٦) المرجع السابق: ٦١.

(٧) المرجع السابق: ٦١.

فالله سبحانه قد خلق البشر على الفطرة السوية: ﴿**فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله**﴾[1]. وهذه الفطرة سليمة من الزيغ والإنحراف ولا يحرفها عن استقامتها إلا التربية المنحرفة. قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2]، ولقد ذكر ابن رجب حديث رسول الله ﷺ الذي جاء فيه: «... البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس» وفي رواية: «ما انشرح إليه الصدر» وعلق عليه بقوله: (وفُسر الحلال بنحو ذلك كما في حديث أبي ثعلبة وغيره. وهذا يدل على أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله، وركز في نفوسهم محبة ذلك والنفور عن ضده، وقد يدخل هذا في قوله في حديث عياض بن حمار، «إني خلقت عبادي حنفاء مسلمين فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم فحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)[3].

فغاية التربية الإسلامية هي المحافظة على الفطرة ورعايتها من الزيغ والانحراف[4].

الإنسان مخلوق مكرم:

خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه ما لم يكن يعلم، وزوده بوسائل كسب العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿**وعلم**

---

(١) سورة الروم، آية [٣٠].

(٢) الحديث في صحيح الجامع، رقمه (٤٤٣٥).

(٣) جامع العلوم والحكم: ٢٢١، ٢٢٢.

(٤) مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، الأستاذ عبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي، ص ١٢.

آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾[1]، وقال تعالى: **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾**[2].

ولما رأى عدو الله إبليس هذا الفضل لآدم عليه السلام تمكن الحسد منه وأضمر العداوة له وتربص به وبنيه الدوائر. يقول ابن رجب رحمه الله: (.. لما ظهرت فضائل آدم عليه السلام على الخلائق بسجود الملائكة له، وبتعليمه أسماء كل شيء وإخباره الملائكة بها وهم يستمعون له كاستماع المتعلم من معلمه حتى أقروا بالعجز عن علمه وأقروا له بالفضل وأسكن هو وزوجته الجنة ظهر الحسد من إبليس وسعى في الأذى...)[3].

فإبليس هو العدو اللدود لآدم وبنيه فهو: (... ما زال يحتال على آدم حتى تسبب في إخراجه من الجنة، وما فهم الأبله أن آدم إذا أخرج منها كملت فضائله، ثم عاد إلى الجنة على أكمل من حاله الأولى)[4].

وإذا كان العجب مرض من الأمراض المهلكة الفتاكة وهو الذي تسبب في إهلاك إبليس وطرده من رحمة الله عندما قال: **﴿أنا خير منه**

---

(١) سورة البقرة، آية [٣١، ٣٢، ٣٣].

(٢) سورة النحل، آية [٧٨].

(٣) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٥٥، ٥٦.

(٤) المرجع السابق: ٥٦.

خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[1][2]، فآدم قد عرف قدر نفسه وأنزلها مكانتها اللائقة بها وأقر بذنبه واعترف بخطئه ولجأ إلى ربه يطلب منه العفو والمغفرة: ﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾**[3]، لذا فقد: (. . . كملت فضائله)[4]، وفضائل هذا المخلوق المكرم كثيرة ومتعددة ومنها: أن إبليس: (. . . كلما أوقد نار الحسد لآدم فاح بها ريح طيب آدم واحترق إبليس)[5] عليه لعنة الله.

فالتربية الناجحة هي التي تهدف إلى تحصين الإنسان من أعدائه وفي مقدمتهم الشيطان الذي أخرج أبويه من الجنة، ولذلك سمعنا المربي الأعظم رسول الله ﷺ وهو يربي أصحابه ويوجههم ويرشدهم ويبين لهم كيف يكون الحذر من الشيطان وفي توجيههم توجيه لأمة الإسلام عامة، فقال عليه الصلاة والسلام: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[6].

تحـــذيـــــــــر:

لقد علمنا أن الشيطان هو العدو اللدود للإنسان، فالمربي الماهر والمعلم المخلص هو الذي يحذر الناس من عداوة الشيطان، وابن رجب رحمه الله يعلم أهمية التربية والتوجيه والإرشاد، ولقد قام بهذه المسؤولية وأدى هذه الرسالة على أكمل وجه وأتمه، فهو مربٍّ ماهر ومعلم ذكي، أخذ جانب الوعظ والإرشاد وسيلة لتحذير الناس في مجالس علمه التي تضم

---

(١) سورة الأعراف، آية [١٢].

(٢) لطائف المعارف: ٥٦.

(٣) سورة الأعراف، آية [٢٣].

(٤) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٥٦.

(٥) المرجع السابق: ٥٦.

(٦) الحديث رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة، وهو صحيح.

العديد من الناس على كافة مستوياتهم العلمية وجميع مدركاتهم العقلية فنستمع إليه وهو يقول: (.. احذروا هذا العدو الذي أخرج أباكم من الجنة؛ فإنه ساع في منعكم من العود إليها بكل سبيل)[1] وزيادة في البيان والتوضيح يذكّر رحمه الله تاريخ عداوة الشيطان لهذا الإنسان فيقول: (.. والعداوة بينكم وبينه قديمة..)[2]، ثم يذكر أسباب هذه العداوة فيقول: (.. فإنه ما أخرج من الجنة وطرد عن الخدمة إلا بسبب تكبره على أبيكم وامتناعه من السجود له لما أمر به، وقد أبلس من الرحمة وأيس من العود إلى الجنة، وتحقق خلوده في النار..)[3]، ثم ذكر لنا رحمه الله أن الشيطان حريص على أن يخلد معه من بني آدم نصيباً في النار فزين لهم المعاصي وفي مقدمتها الشرك بالله عز وجل. فقال: (.. فهو يجتهد على أن يخلد معه في النار بني آدم بتحسين الشرك، فإن عجز قنع بما دونه من الفسوق والعصيان)[4]، ثم أورد رحمه الله من الآيات القرآنية ما يكفي من التحذير من كيده ومكره وشره فقال: (وقد حذركم مولاكم منه، وقد أعذر من أنذر: ﴿**وخذوا حذركم**﴾[5] ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة**﴾[6])[7]. ، ثم بعد هذا التحذير من كيد الشيطان ومكره أخذ هذا المربي السلفي يعجب من إنسان عرف ربه كيف عصاه، وعرف عدوه كيف اتبعه؟ فقال: (.. العجب ممن عرف ربه ثم عصاه، وعرف الشيطان ثم أطاعه. ﴿**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني**

---

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٥٦.
(٢) المرجع السابق: ٥٦.
(٣) المرجع السابق: ٥٦.
(٤) المرجع السابق: ٥٦.
(٥) سورة النساء، آية [١٠٢].
(٦) سورة الأعراف، آية [٢٧].
(٧) المرجع السابق: ٥٦.

وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾[1] . .)[2]، ثم أخذ يحذر هذا الإنسان ويذكره بأهوال يوم القيامة فقال: (. . إن ابن آدم متعرض لأهوال عظيمة من الموت والقبر وأهوال البرزخ وأهوال الموقف والصراط والميزان وأعظم من ذلك الوقوف بين يدي الله عز وجل ودخول النار ويخشى على نفسه الخلود فيها بأن يسلب إيمانه عند الموت ولم يأمن المؤمن شيئاً من هذه الأمور ﴿**فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾[3]، فتحقق هذه الأمور يمنع ابن آدم القرار . .)[4]، فإن من استفاد من هذا التحذير استقام سيره إلى الله ورسخ إيمانه به واطمأن قلبه إلى جنابه سبحانه وتعالى.

نهاية وبداية:

قد يظن البعض أن الحياة الدنيا هي نهاية المطاف لرحلة هذا الإنسان، فعندما ينتهي أجله ويرحل من الدنيا يكون قد ارتاح من العناء والتعب في نظر هؤلاء، ونستمع إلى من يقول منهم فلان مات واستراح، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها أن الموت ليس هو النهاية لحياة هذا الإنسان، بل هو نهاية وبداية؛ نهاية للحياة الدنيا وبداية للحياة الآخرة، وفي مقدمتها حياة البرزخ؛ وفي عالم البرزخ نعيم أو عذاب، قال ﷺ: «إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»[5]، وقال الحق سبحانه وتعالى مخبراً عن حال فرعون وقومه وما يلاقونه من عذاب في قبورهم: ﴿**النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا**

---

(١) سورة الكهف، آية [٥٠].

(٢) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٥٦.

(٣) سورة الأعراف، آية [٩٩].

(٤) المحجة في سير الدلجة، ابن رجب، ص ٩٩، ١٠٠.

(٥) رواه الترمذي في كتاب القيامة، رقمه (٢٤٦٠).

آل فرعون أشد العذاب﴾[1]، وابن رجب الذي ينظر إلى الإنسان على أنه مركب من الروح والجسد يذكر حال الجسد إذا فارقه الروح فيقول: (... جسده إذا فارقته الروح صار جيفة مستقذرة تأكله الهوام ويبليه التراب حتى يعود تراباً)[2]، وفي هذا التقرير من هذا المربي تهذيب للإنسان وتربية له، لأنه إذا عرف مبدأه ومنتهاه عرف قدر نفسه، فإذا عرف ذلك فلماذا يتكبر ويتغطرس وهو بهذه المثابة؛ أوله نطفة قذرة وآخره جيفة مستقذرة؟!.

ثم بين لنا حال الروح بعد مفارقتها للبدن، وهي إما في عذاب دائم وإما في نعيم لا ينقطع، لكنها حال الدنيا لا تعلم مستقرها ولا تدري مصيرها، فقال رحمه الله: (.... وإن الروح المفارقة له لا تدري أين مستقرها هل هي في الجنة أو في النار)[3].

ولكن المداومة على المعاصي والإصرار عليها يؤكدان ظن العاصي بمصيره المشؤوم لا سيما إذا كان حال الاحتضار ومعاينة سكرات الموت، فالعبد: (... إن كان عاصياً مصراً على المعصية إلى الموت فربما غلب على ظنه أن روحه تصير إلى النار فتتضاعف بذلك حسرته وألمه، وربما كشف له مع ذلك عن مقعده من النار)[4] وذلك حال الاحتضار. فابن رجب بهذا التقرير يحذر من المعاصي التي تكون سبباً في دخول النار، فالعاقل هو الذي يستفيد من هذا التوجيه التربوي فيجتنب المعاصي ويفعل الطاعات راجياً النجاة من النار ودخول الجنة، وقبل ذلك وبعده

---

(١) سورة غافر، آية [٤٦].

(٢) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٥٦.

(٣) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ١٠١.

(٤) المرجع السابق: ١٠١.

طالباً رضى الله عز وجل .

الدوافـــــع الفطريـــــــة:

لقد خلق الله هذا الإنسان وجبله على مجموعة من الغرائز والدوافع وهي كثيرة لكنها تندرج تحت غريزتين اثنتين هما : غريزة الرهبة ، وغريزة الرغبة ؛ فالإنسان ساع إلى كل ما فيه مصلحته ، هارب عن كل ما فيه ضـــرورة ، ومن هاتين الغـــريزتين تفـــرعت الدوافع الأخـــرى ، وهذه الدوافع : (تكاد تكون فطرية لتأصلها في الطبيعة الإنسانية)[١] ، (وهذه الدوافع الفطرية ليست على مدى واحد من القوة والضعف عند جميع الأفراد ومجال الفروق الفردية فيها قوي ؛ بمعنى أن الأفراد يختلفون في مدى قـوة الدوافع الفطرية ، ولا شك أن هذا الاختـلاف يؤثر في أنماط سلوكهم في حياتهم اليومية)[٢] .

وما ذكره علماء النفس عن هذه الدوافع أشار إليه ابن رجب إشارة مباشرة وزاد عليهم أنه قد أرجع هذه الدوافع إلى خالقها وموجدها ومن أودعها النفس البشرية ألا وهو الله سبحانه وتعالى ، فقال رحمه الله : (. . . إن الله تعالى خلق ابن آدم محتاجاً إلى ما يقوم به بدنه من مأكل ومشرب ومنكح وملبس)[٣] . إننا نحتاج هنا إلى وقفة مع المبدأ الذي ينادي بأسلمة العلوم والمعارف ؛ فالأصل أن العلوم والمعارف تسير في طريق الإسلام وتدل عى الإيمان بالله والخشية منه ، قال تعالى : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[٤] ، لكن هذه العلوم والمعارف قد انحرف

---

(١) مقدمة في الفلسفة الإسلامية ، د . عمر الشيباني ، ص ٩٤ .

(٢) مقدمة في الفلسفة الإسلامية ، د . عمر الشيباني ، ص ٩٥ .

(٣) لطائف المعارف ، ابن رجب ، ص ٢٦٨ .

(٤) سورة فاطر ، آية [٢٨] .

بها التوجيه المقصود إلى الإلحاد فحادت عن الطريق السوي والمنهج الإلهي السديد مما حدى بالعلماء الربانيين بالمناداة بأسلمتها، وابن رجب وغيره من علماء السلف يرسخون مفهوم ربط العلوم بمعطيها ومموليها، ألا وهو الله عز وجل، وهذا هو الأصل قبل الانحراف والتوجه بها إلى الإلحاد.

والحاجات أو الدوافع الفطرية أمر الإسلام بتلبيتها، لكن بالطرق المباحة المشروعة، هذا ما أشار إليه ابن رجب بقوله: (. . . وأباح له من ذلك كله ما هو طيب حلال تقوى به النفس ويصح به الجسد ويتعاونان على طاعة الله عز وجل، وحرم من ذلك ما هو ضار خبيث يوجب للنفس طغيانها وعماها وقسوتها وغفلتها وأشرها وبطرها)[1]، وفي هذا بيان لذكر الفوائد المتحصلة من تلبية الحاجات بالطرق المباحة، ومنها أن النفس تقوى بها والبدن يصح بتلبيتها والفائدة العظمى من ذلك أنهما يتعاونان على طاعة الله عز وجل، وهذا توجيه تربوي غاية في السمو والرفعة إذ جعل تلبية الحاجات لغاية سامية، ألا وهي طاعة الله عز وجل، ولا غرابة في أن يصدر مثل هذا التوجيه من مرب مسلم ينظر إلى التربية بالنظرة الإسلامية الصائبة التي بينت غاية خلق الإنسان فجعلت كل مناشط هذا الإنسان وتصوراته ودوافعه تنحو في هذا الاتجاه، ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**﴾[2].

ولقد أشار ابن رجب إلى أن تلبية الحاجات بالطرق المحرمة تعود بالضرر البالغ على النفس فتعيش حالة قساوة وعمى وأشر وبطر وغفلة،

---

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٢٦٨.

(٢) سورة الأنعام، آية [١٦٢].

وهو بذلك يُلمح على أهمية طيب المأكل والمشرب وما يترتب على ذلك من فوائد، قال ﷺ: «. . . أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»[١].

ومما هو معلوم أن استجابة الدعوة مرتبطة بتلبية حاجات الجسد بالطرق المشروعة المباحة، فمن لبى هذه الحاجات بالطرق المحرمة فإنه يحرم استجابة الدعوة.

ولقد ذكر رسول الله ﷺ: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له»[٢].

وإذا كان تلبية هذه الحاجات بالطرق المحرمة يعتبر طغياناً وظلماً للنفس، فإن حرمانها أيضاً من تلبية هذه الحاجات بالطرق المباحة ظلم لها وتعد عليها.

يقول ابن رجب موضحاً لهذا المعنى: (. . . فمن أطاع نفسه في تناول ما تشتهيه مما حرمه الله عليه فقد تعدى وطغى وظلم نفسه، ومن منعها حقها من المباح حتى تضررت بذلك فقد ظلمها ومنعها حقها)[٣]، ثم أخذ يوضح الحكم في حال عدم تلبية الحاجات المباحة حتى يكون المسلم على بصيرة فيما يأخذ ويدع مما هو مباح له ومشروع، فقال رحمه الله: (. . . فإن كان ذلك[٤] سبباً لضعفها وعجزها عن أداء شيء من فرائض الله عليه وحقوق الله عز وجل أو حقوق عباده كان بذلك عاصياً،

---

(١) رواه مسلم.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم، كتاب الزكاة، الترمذي، تفسير سورة آل عمران.
(٣) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٢٦٨.
(٤) أي ترك تلبية الحاجات المباحة للنفس.

وإن كان ذلك سبباً للعجز عن نوافل هي أفضل مما فعله كان بذلك مفرطاً مغبوناً خاسراً)[1]، ومن هذا يتضح أن تلبية حاجات النفس وحاجات البدن ما هي إلا وسائل معينة على طاعة الله عز وجل.

ودين الإسلام عظيم، فما حرم على العباد شيئاً إلا وقد أوجد البديل الأمثل عنه؛ فحرم الزنا وأباح النكاح، وحرم الربا وأباح البيع، وحرم تعاطي الخبائث وأباح تناول الطيبات، فكل ما حرمه فهو مضر ولا شك، فضرره إما على الفرد أو على الأسرة أو على المجتمع، فالله عز وجل قد خلق هذا الإنسان وجبله على حب أشياء أباحها له بالطرق المشروعة، قال تعالى: ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**﴾[2].

الإنسان عابد:

لقد فطر الله هذا الإنسان على أن يكون عابداً، (وهذا الشعور الديني أمر فطري في الإنسان يولد وهو مزود بالاستعداد له، وهو في الوقت نفسه يعبر عن حاجة أساسية من حاجات الإنسان التي لا تتم سعادته بدون تحقيقها، فهو في حاجة إلى الإيمان بقوة عليا خارجة عن ذاته وعن الكون المادي الذي يعيش فيه)[3].

والإنسان إن لم يعبد الله عبد غيره من النفس والهوى والشيطان، (... فالتدين ... ملازم لطبيعة الإنسان، ولا يستطيع فرد أن يتخلى

---

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ٢٦٨.

(٢) سورة آل عمران، آية [١٤].

(٣) فلسفة التربية الإسلامية، د. عمر الشيباني، ص ٨٥، ٨٦.

عن دين ما، فإذا تخلى عن الاعتقاد بالخالق الأعظم فإنه يعبد الطبيعة أو الآلهة الخيالية أو الزعيم أو الإنسان، أي أنه قد ينحط إلى عبادة المخلوقات بدل عبادة الخالق الأعظم)[1].

ومما هو معلوم أن الله سبحانه ما خلق الخلق إلا للعبادة كما قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[2].

وتحقيق العبودية لا يكون إلا بصرف جميع أنواع العبادة لله عز وجل وترك اتباع الهوى والشيطان والنفس الأمارة بالسوء؛ لأن (. . . من علم أن معبوده الله فرد فليفرده بالعبودية، ﴿**ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾[3]. وحري بالمسلم وهو يعرف معبوده حق المعرفة أن يعبده حق العبادة ويتبع شرعه[4]، ولا يتبع هواه، فمن اتبع هواه فإنه سيهوي به في نار جهنم، وإذا كان الوعظ من الوسائل الناجعة في التربية والتوجيه فإن ابن رجب له باع طويل في هذا، نستمع إليه وهو يحقق المعنى الذي ذكرنا، فيقول: (. . . يا هذا كن عبداً لله لا عبد الهوى؛ فإن الهوى يهوي بصاحبه في النار)[5].

والهوى المتبع يكون إلهاً يعبد من دون الله؛ لأنه: (. . قد ورد إطلاق الإله على المتبع، قال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾)[6][7]،

---

(١) تربية الإنسان الجديد، د. محمد فاضل الجمالي، ص ٣٩.

(٢) سورة الذاريات، آية [٥٦].

(٣) سورة الكهف، آية [١١٠].

(٤) كلمة الإخلاص، ابن رجب، ص ٢٨.

(٥) المرجع السابق: ٢٨.

(٦) سورة الجاثية، آية [٢٣].

(٧) كلمة الإخلاص، ابن رجب، ص ٢٨.

ولقد أوضح لنا ابن رجب من هو الذي يتبع هواه ويتخذه إلهاً من دون الله، فقال: (... هو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركبه.... قال قتاده: هو الذي كل ما هوى شيئاً ركبه، وكل ما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجز عن ذلك ورعٌ ولا تقوى.

وروي من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف: «ما تحت ظل سماءٍ إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع»)[1][2].

ويستمر رحمه الله في ذكر الشواهد والأدلة من القرآن والسنة على أن من أحب شيئاً وهواه فقد اتخذه إلهاً من دون الله، فيقول: (... ويشهد لذلك الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميلة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[3]، فدل هذا على أن كل من أحب شيئاً وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده، وكان ذلك الشيء معبوده وإلهه، ويدل عليه أيضاً أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان في معصيته عبادة للشيطان كما قال تعالى: ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان**﴾[4]...)[5].

ثم خلص ابن رجب إلى النتيجة التالية: (... فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن)[6]، وفي إخلاص العبادة

(١) كلمة الإخلاص، ابن رجب، ص ٢٦.
(٢) الحديث ضعيف.
(٣) الحديث في صحيح البخاري وابن ماجه، عن أبي هريرة.
(٤) سورة يس، آية [٦٠].
(٥) كلمة الإخلاص، ابن رجب، ص ٢٨.
(٦) المرجع السابق: ٢٩.

لله تحقيق لمعنى العبودية ومن حقق عبوديته لله نجا في ذاك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وهذا ما أكده ابن رجب رحمه الله وأقسم عليه فقال: (. . . والله لا ينجو غداً من عذاب الله إلا من حقق عبودية الله وحده)[1].

بين داعيين:

الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء فيها أنواع من المحن والبلايا، فالله سبحانه وتعالى يبتلي فيها عباده، فمنهم من يبتليهم بالخير ومنهم من يبتليهم بالشر، قال تعالى: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾[2]، فالله سبحانه: (. . . جعل كل ما يصيب الإنسان من شر أو خير فتنة يعني أنه محنة يمتحن بها، فإن أصيب بخير امتحن به شكره، وإن أصيب بشر امتحن به صبره، وفتنة السراء أشد من فتنة الضراء. . .)[3]، قال ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، فإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[4].

وابن رجب المربي والمعلم يحث على العمل لأن باب العمل الصالح كله خير والشر كل الشر في الجدال والمراء والكلام الفارغ السفسطة، فقال رحمه الله: (. . . قال بعض السلف: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عنه باب

---

(١) المرجع السابق: ٣٠.
(٢) سورة الأنبياء، آية [٣٥].
(٣) اختيار الأولى: ١٢٣.
(٤) الحديث صحيح، مسند أحمد ومسلم عن صهيب، الصحيحة ١٤٧، مختصر مسلم ٢٠٩٢.

العمل وفتح له باب الجدل)[1].

والإنسان في هذه الحياة يتجاذبه داعيان: داعي الشهوة وداعي العقل، (فإنه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة، ونصبهما داعيين لمقتضياتهما)[2]، حتى يكون الإنسان في امتحان وابتلاء بين هذين الداعيين؛ فإما أن يتبع داعي الشهوة والفتنة فتزل قدمه وينحرف نحو المعاصي والذنوب، وإما أن يستجيب لداعي العقل والعلم، فيثبت على طاعة الله.

وابن رجب المربي الحاذق والطبيب النفساني يبين لنا مضار المعاصي والذنوب فهي شؤم على الإنسان وسبب لشقائه في الدنيا والآخرة، ويوضح فوائد الطاعة ويبين أنها سبب في سعادة الدنيا والآخرة، فيقول: (... فلا شؤم إلا المعاصي والذنوب فإنها تسخط الله عز وجل، فإذا سخط على عبده شقي في الدنيا والآخرة، كما أنه إذا رضي عن عبده سعد في الدنيا والآخرة)[3]، فرضى الله سبحانه في طاعته، كما أن سخطه في معصيته، فلا يكون الإنسان سعيداً إلا بالطاعة ولا يشقى إلا بالمعصية، فالله عز وجل: (... لما أهبط آدم وزوجته وأسكنهما في الأرض أخذ عليهما أن من أطاعه من ذريتهما واتبع رسله كان من السعداء، ومن أعرض عن ذلك كان من الأشقياء كما قال تعالى: ﴿... **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدىً، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا**

---

(١) فضل علم السلف، ابن رجب، ص ٤٩.
(٢) الفكر التربوي عند ابن القيم، للمؤلف، ص ١٢٣.
(٣) لطائف المعارف: ٧٧.

بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾)[1][2].

والإنسان في الحياة الدنيا لا ينفك عن نعمة يتوجب عليه أن يحدث لها شكراً أو ذنب يتوجب عليه أن يحدث له استغفاراً، فمن شكر حال النعمة واستغفر عند الذنب فهو الإنسان الأمثل والفقيه الواعي، ولقد أورد ابن رجب قصة رجل كان معتكفاً زمن الحسن البصري فسأله الحسن عن حاله فقال: (. . إني أصبح بين نعمة وذنب فأحدث للنعمة حمداً وللذنب استغفاراً، فأنا مشغول بذلك. فقال الحسن: الزم ما أنت فيه فأنت عندي أفقه من الحسن. . .)[3]، والهدف من إيراد هذه القصة هي الحث على أن يكون الإنسان شاكراً مستغفراً.

والإنسان كذلك يعيش بين شدة ورخاء، فالمسلم يذكر الله عند الرخاء وجزاءه أن الله يذكره عند الشدة ومعرفة العبد لربه وذكره له وشكره إياه سبب في تذكر الله عند الكرب والشدة، فالعبد: (. . . لا يزال يقع في الشدائد والكرب في الدنيا وفي البرزخ وفي الموقف، فإذا كان بينه وبين ربه معرفة خاصة كفاه الله ذلك كله، وهذا هو المشار إليه في وصية ابن عباس بقوله ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»)[4][5].

السعادة:

كل إنسان يحرص على أن يكون سعيداً، ويسعى جاهداً إلى تحصيل السعادة، فالبعض يظنها في جمع المال والحصول على قدر كبير منه،

---

(١) سورة البقرة، آية [٣٨، ٣٩].

(٢) الإستخراج لأحكام الخراج، ابن رجب، ص ٥.

(٣) تفسير سورة النصر، ابن رجب، تحقيق الدكتور حسن عتر، ص ٩٠.

(٤) مسند أحمد ١/ ٢٠٧.

(٥) فضل علم السلف: ٦٦.

والبعـض يظنها في الصحة البدنية فيهتم بجسمه ويغذيه ويدربه ويعالجه ويحـميه من كل مـا يؤذيـه، والبعض يظنهـا في بناء القـصـور أو نيل المكانة الاجتماعية، وهـؤلاء وغيرهم يطلبها بهذه الطرق وغيرها لكنه لا يشعر بالسعادة في يوم من الأيام. فأين هي السـعادة إذن؟ وكيف يمكن الوصول إليها؟.

إن السعادة الحقة في طاعة الله عز وجل وفي الإيمان به والقرب إليه، قال تعالى: ﴿**إن الذيـن قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا...**﴾[1].

أما من أعرض عن طاعة الله وعن الإيمان به وابتعد عن القرب منه فإنه لا يشعر بالسعادة بل حياته كلها قلق واضطراب وضنك وخوف، قال تعالى: ﴿... **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾[2]، يقول ابن رجب: (... من أسْعدَ بالطاعة من مطيع إلاَّ وكلّ الخير في الطاعة، ألا وإن المطيع لله ملك في الدنيا والآخرة)[3]، ولقد أوضح ابن رجب العمل الذي يكون به الإنسان سعيداً، فقال: (فالسعيد من اغتنم موسم الشهور والأيام والساعات وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحةٌ من تلك النفحات فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات)[4]، فهذا حث من ابن رجب بصفته عالماً مصلحاً ومربياً مخلصاً وموجهاً أريباً على اغتنام أيام العمر والأوقات في القرب

---

(١) سورة فصلت، آية [٣٠].

(٢) سورة طه، آية [١٢٤].

(٣) ما ذئبان جائعان: ٦٣.

(٤) لطائف المعارف: ٦.

والطاعات، وهذا يتمشى مع التوجيه النبوي في الاهتمام بالوقت وصرفه في طاعة الله عز وجل، ومن صرفه في غير ذلك غبن على فواته وندم على تفريطه. قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[1].

والوقت لعظم قيمته من أهم الأمور التي يُسأل عنها العبد يوم القيامة، قال ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: . . . .». ومنها «عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه»[2].

ولقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه ذات مرة عن المفلس، فقالوا ـ حسب ما يعرفون عن ذلك ـ: المفلس فينا من ليس له درهم ولا متاع، فقال: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة، ويأتي وقد ضرب هذا وأخذ مال هذا وسفك دم هذا، فيؤخذ لهذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته ولم يقض ما عليه أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[3].

لكن الله عز وجل من رحمته بعبده وفضله عليه وكرمه أن ينمي ما بقي من حسناته بعد المقاصة حتى تكون سبباً في دخوله الجنة فيسعد بهذا الفضل سعادة لا شقاء بعدها لأن: (. . . من أرد الله سعادته أضعف له حسناته حتى يستوفي الغرماء، ويبقى له مثقال ذرة فتضاعف له ويدخل بها الجنة، وذلك من فضل الله ورحمته، ومن أراد الله شقاوته وله غرماء

---

(١) الحديث في صحيح البخاري، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عباس.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي عن أبي برزة (الصحيحة رقم ٩٤٦).

(٣) حديث رواه مسلم والترمذي، وهو في صحيح الجامع برقم ٨٤٧.

لم تضاعف حسناته كما تضاعف لمن أراد سعادته . . . فتقسم على الغرماء فيستوفونها كلها ، وتبقى لهم مظالم فيطرح عليه من سيئاتهم فيدخل بها النار)[1] .

وإذا كان ابن آدم كما عرفنا فيما مضى مخلوقاً مكرماً ، فإن هذا التكريم يفتقده بارتكاب المعاصي وترك الطاعات ، وابن رجب المربي الواعظ يوعظ هذا الإنسان فيقول : (. . . ابن آدم لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصي ، أنت المختار من المخلوقات ولك أعدت الجنة إن اتقيت ، فهي إقطاع المتقين ، والدنيا إقطاع إبليس فهو فيها من المنظَرين)[2] .

لكن الدنيا لا تذم مطلقاً ولا تمدح مطلقاً ، بل هي خير مطية لمن استعملها في طاعة الله ونعم المزرعة لمن استعملها في الآخرة ، ففيها يعمل الإنسان الصالحات ويتقرب لله بالطاعات ، وهي دار الابتلاء . فمن صبر وصابر ورابط كان من المفلحين الفائزين ، أما من عاش حياة الحيوان ساعياً وراء الشهوات والملذات والمحرمات وغره بالله الغرور كانت وبالاً عليه وقادته إلى النار وبئس القرار .

ولله سبحانه وتعالى نفحات يفيض فيها على عباده بالبركات والرحمات وله أيام فاضلات تتضاعف فيها الحسنات . من هذه الأيام والليالي ليلة القدر العمل فيها خير من ألف شهر ، فـ(. . . إذا كان ليلة القدر أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالنزول إلى الأرض ، لأن العباد زينوا نفوسهم بالطاعات وبالصوم والصلاة في ليالي رمضان ، ومساجدهم بالقناديل والمصابيح فيقول الرب تعالى : أنتم طعنتم في بني

(١) المحجة في سير الدلجة : ٣٤ .
(٢) لطائف المعارف : ١٩٤ .

آدم وقلتم : ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها . . . .**﴾ الآية . فقلت لكم : ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾[١] اذهبوا إليهم في هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين لتعلموا أني اخترتهم على علم على العالمين)[٢] .

فالذي ينال حظه من هذه الليلة فإنه يسعد سعادة لا شقاء بعدها ، ومن حرم خيرها فقد حرم .

خيـــــر النــــــــاس:

إن خير الناس عند ابن رجب هو : (. . . من آمن وعمل صالحاً)[٣] ، وقد أخذ هذا من قوله تعالى : ﴿**والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[٤] ، ثم أورد رحمه الله عدة أحاديث تذكر خير الناس : فقال : (. . . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «خير الناس من فقه في دين الله ، ووصل رحمه ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر» ، وفي رواية : «خير الناس أتقاهم للرب ، وأوصلهم للرحم ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر» ، وقال : «الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» ، وقال : «خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره وساء عمله» ، وقال : «خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره» ، وقال : «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا : بلى . قال : «الذين إذا رؤوا ذكر الله ، ألا أخبركم

---

(١) سورة البقرة : آية ٣٠ .

(٢) لطائف المعارف : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ٩١ .

(٤) سورة العصر .

بشراركم؟» قالوا: بلى. قال: «المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب»)(١).

الخلاصة:

في تحديد النظرة إلى الإنسان تحديد لفلسفة التربية التي يؤمن بها ابن رجب رحمه الله، فالإنسان هو ذاك المخلوق الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخ فيه من روحه وجعل نسله من سلالة من ماء مهين، فالإنسان يتكون من مادة وروح وعقل، وفي تقرير هذا المفهوم تحديد لنوعية التربية التي تعده لغايته، ولقد اهتم الإسلام بهذا الإنسان من قبل أن يوجد بتهيئة المناخ الملائم له، وبعد أن وجد في عالم الأجنة وبعد خروجه إلى الدنيا وتنقله في مراحل العمر.

والإسلام يعتبر هذا الإنسان مخلوقاً مكرماً كرمه الله عز وجل على جميع المخلوقات بما وهبه من عقل وما ركب فيه من وسائل كسب العلم والمعرفة، ولا يتحقق تكريم الإنسان إلا بأن يكون عابداً لله، مطيعاً له، محارباً لهواه، حذراً من نفسه الأمارة بالسوء، وحذراً من الشيطان عدوه اللدود، والحياة الدنيا بالنسبة للإنسان وبالذات المسلم، فهي مرحلة في مشواره الطويل وليست هي نهاية المطاف لرحلته في عالم الوجود. والدنيا مزرعة الآخرة وفيها يحصل الابتلاء بالخير والشر.

ولقد زود الله هذا الإنسان بجملة من الغرائز والدوافع وجه الإسلام إلى تلبيتها بالطرق المباحة والمشروعة، وحرَّم كل طريق غير مشروع لتلبيتها.

والإنسان بفطرته لا بد أن يكون عابداً إما أن يعبد الله حق عبادته

---

(١) لطائف المعارف: ٩١

أو يعبد هواه والشيطان .

والإنسان يتجاذبه داعيان : داع إلى الخير وداع إلى الشر ، يعيش بين شدة ورخاء ، بين نعمة ونقمة ، بين شكر وصبر ، بين ذنب واستغفار . ولا تتحقق السعادة لهذا الإنسان إلا بالعلم النافع والعمل الصالح والإيمان والتقوى وخير الناس أنفعهم للناس ، الذي يوصل خيره لغيره ويكف شره عن غيره ، خيرهم الرجل التقي الذي يعمل الصالحات ويتقي السيئات ، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، هذا الإنسان هو الذي تحرص التربية الإسلامية على تربيته وتكوينه وإبرازه نموذجاً يحتذى وقدوة صالحة .

الفصل الرابع

مفهوم المجتمع عند ابن رجب

* المجتمع الصالح .
* أمراض اجتماعية .
* أهم الأساليب لمعالجة هذه الأمراض .
* الفرد في المجتمع .
* من هو خير الناس ومن هو شرهم؟
* الحقوق والواجبات الاجتماعية .
* مسؤولية المسلم الاجتماعية .
* المجتمع والمسؤولية الفردية .
* الطفل في المجتمع .
* تأثر الأفراد بالعادات الاجتماعية .
* من صفات المجتمع المؤمن .



تمهيد

إن التربية التي ينادي بها ابن رجب كما تحرص على تكوين الإنسان الصالح فهي أيضاً تسعى إلى تكوين المجتمع الصالح، فتشخِّص أمراض هذا المجتمع، وتوضح أهم الأساليب في معالجتها، وتبين دور الفرد في المجتمع، وكيف يكون من خير الناس، وما هي الحقوق والواجبات والمسؤوليات الاجتاعية التي يضطلع بها، وما هي مسؤولية المجتمع تجاه هذا الفرد، وما هي المنزلة التي يحتلها الطفل في المجتمع، وما مدى تأثر الأفراد بالعادات الاجتماعية، كل هذا توضحه التربية في نظر ابن رجب، كما توضح أهم الصفات للمجتمع المؤمن صاحب رسالة الدعوة إلى الله.

وهذا يدل على سعة التربية وشمولها في المنظور الإسلامي.

المجتمع الصالح:

من أهم أهداف التربية في الإسلام تكوين المجتمع الصالح الذي يحمل هذا الدين واقعاً يعيش به وسلوكاً يلتزمه. ثم يحمل هذا الخير للناس، يدعوهم إلى دين الله عز وجل ويرشدهم إليه، وابن رجب الذي يستمد فكره التربوي من الإسلام يرى أن صلاح المجتمع في طاعة الله واتباع أوامره وأداء ما فرضه عليه من شعائر، وإذا قام هذا المجتمع بذلك فيكون خير البشرية على الإطلاق. قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، آية [١١٠].

وتصبح لهذا المجتمع مكانة عند الله يباهي به الملائكة، فـ(. . . إذا كان ليلة القدر أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالنزول إلى الأرض، لأن العباد زينوا أنفسهم بالطاعات بالصوم والصلاة في ليالي رمضان ومساجدهم بالقناديل والمصابيح، فيقول الرب تعالى: أنتم طعنتم في بني آدم وقلتم ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها**﴾ الآية. فقلت لكم: ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾(1)، اذهبوا إليهم في هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين لتعلموا أني اخترتهم على علم على العالمين)(2).

كما أن الله عز وجل يباهي بهؤلاء الملائكة في يوم عرفة فيقول سبحانه: «انظروا إلى عبادي أتوني ضاحين ملبين أشهدكم أني قد غفرت لهم»(3).

وفي حال فساد المجتمعات البشرية في الأزمان المتلاحقة يخرج الله أناساً من هذه المجتمعات يكونون غريبين في صلاحهم واستقامتهم، قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس»(4).

ولقد أورد ابن رجب جملة من الأحاديث توضح ظهور هؤلاء الغرباء في آخر الزمان فقال: (في آخر الزمان الغرباء المذكورون في هذه الأحاديث الذين يصلحون إذا فسد الناس، وهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة، وهم الذين يفرون بدينهم من الفتن)(5).

(. . . وهؤلاء الغرباء قسمان: أحدهما: من يصلح نفسه عند فساد

---

(1) سورة البقرة، آية [30].

(2) لطائف المعارف: 204، 205.

(3) الحديث صحيح رقم 1868 مسند الإمام أحمد عن ابن عمرو.

(4) الحديث صحيح 1580 مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة، والترمذي عن ابن مسعود.

(5) كشف الكربة: 12.

الناس، والثاني: من يصلح ما أفسد الناس من السنة، وهو أعلى القسمين وهو أفضلهما)[1].

ولا يفسد المجتمع شيء أخطر من فتنة الشهوات وفتنة الشبهات، فمن الملاحظ اليوم على المجتمعات البشرية التي فسدت وانحرفت: (... أن فتنة الشهوات عمت غالب الخلق ففُتنوا بالدنيا وزهرتها وصارت غاية قصدهم، لها يطلبون وبها يرضون ولها يغضبون ولها يوالون وعليها يعادون)[2]، وعندما وقعوا في هذا تفشت فيهم أخطر الأمراض الاجتماعية: (... فقطعوا لذلك أرحامهم وسفكوا دماءهم وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك)[3]. هذا فيما يتعلق بانتشار فتن الشهوات في المجتمع، (أما فتنة الشبهات والأهواء المضلة فبسببها تفرق أهل القبلة وصاروا شيعاً، وكفّر بعضهم بعضاً، وأصبحوا أعداء وفرقاً وأحزاباً، بعد أن كانوا إخواناً قلوبهم على قلب رجل واحد...)[4].

(... فلما دخل أكثر الناس في هاتين الفتنتين أو إحداهما أصبحوا متقاطعين متباغضين، بعد أن كانوا إخواناً متحابين متواصلين)[5].

وهذا الذي حل بهم من أخطر أمراض المجتمع ومن أعسرها معالجةً وأمراض المجتمع كثيرة ومتعددة.

أمراض اجتماعية:

إن ما ذكره ابن رجب من الأضرار الناجمة من انتشار فتن الشهوات والشبهات هي أمراض اجتماعية خطيرة وهي مزمنة ويستفحل أمرها

---

(١) المرجع السابق: ١٢.
(٢) المرجع السابق: ١١.
(٣) المرجع السابق: ١١.
(٤) المرجع السابق: ١٢.
(٥) المرجع السابق: ١١.

بمرور الزمن، ولقد حذر الرسول ﷺ من مخاطر بعض هذه الأمراض فقال: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»[1]، والحقد والشحناء التي تقع بين أفراد المجتمع، هي بسبب هوى النفس فـ(. . . حقد المسلم على أخيه بغضاً له لهوى نفسه)[2]، وهي (. . . من الذنوب المانعة من المغفرة. . . في أكثر أوقات المغفرة والرحمة كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا. .»[3][4].

إن التخلص من الشحناء والبغضاء والحقد والحسد وهي كما قلنا أمراض اجتماعية يكون سبباً في دخول العبد الجنة، ففي: (. . . المسند عن أنس أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «ثلاثة أيام يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فيطلع رجل واحد». . .[5]. ومن شدة حرص الصحابة لمعرفة الأسباب التي أنزلت هذا الرجل هذه المنزلة العالية الرفيعة، فقد: (. . . استضافه عبد الله بن عمرو، فقام عنده ثلاثاً لينظر عمله، فلم ير له في بيته كثير عمل، فأخبره بالحال، فقال له: هو ما ترى إلا أني أبيت وليس في قلبي حقد على أحد من المسلمين. . .)[6]. ليس في قلبي من الحسد والحقد والبغضاء والشحناء شيء أحمله على أحد من أفراد هذا

---

(١) الحديث صحيح، مسند الإمام أحمد والترمذي، ورواه الألباني في الإرواء رقم ٧٧٧.

(٢) لطائف المعارف: ص ١٤٦.

(٣) الحديث رواه مسلم ومالك، الترغيب ٣/ ٤٠٨.

(٤) لطائف المعارف: ١٤٦.

(٥) الحديث رواه أحمد بإسناد حسن، والنسائي من حديث أنس بن مالك.

(٦) لطائف المعارف: ١٤٦.

المجتمع المؤمن، ولقد أعجب عبد الله بن عمرو بهذا الرجل فقال: (. . . بهذا بلغ ما بلغ)[1] وهذا يدل على أن كل فرد في هذا المجتمع المؤمن يعرف الأخطار الاجتماعية التي تفكك أوصال هذا المجتمع، وأن من يتخلص منها ويقي نفسه من شرها ينال منزلة عظيمة عند الله والناس، فالله يحبه ويثيبه ويجازيه على سلامة قلبه بالجنة ونعيمها، ويحبه الناس لأنه قد كف شره وأذاه عنهم.

والمكر بالمؤمن من هذه الأمراض الاجتماعية الخطيرة، وضرر هذا المرض يعود على الماكر قبل غيره فقد: (. . . أخبر الله تعالى أن المكر يعود وباله على صاحبه. قال تعالى: ﴿**ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله**﴾[2] . . . فالواقع يشهد بذلك، فإن من سبر أخبار الناس وتواريخ العالم وقف على أخبار من مكر بأخيه فعاد مكره عليه . . . .)[3].

ولعل ما ذكره ابن رجب من النتائج الوخيمة التي تعود على الماكر من جراء مكره يكون سبباً في تهذيب وسلامة نفوس من يستمعون لهذا التوجيه التربوي سواء ممن عاصر ابن رجب أو قرأه في فكره في الأزمان المتلاحقة، ولقد انتشر هذا المرض، وللأسف الشديد في مجتمعاتنا المعاصرة، ومن أهم أسباب انتشار هذا المرض - والله أعلم -: استحكام الهوى على النفوس، وتفشي الأنانية بينهم والأثرة، والحرص على حظوظ النفس، أو بسبب استحكام الشهوات التي تستعبد النفوس وتسيطر على القلوب، فعلى: (. . . من بلي بشيء من هذا المكر فليتق الله، ويستعن به ويصبر فإن العاقبة للتقوى . . .)[4]، وليعلم أن عاقبة من

---

(١) لطائف المعارف: ١٤٧.

(٢) سورة فاطر، الآية [٤٣].

(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٤٦.

(٤) المرجع السابق: ٤٥.

مكر به خطيرة ووخيمة فلا يقابل مكره بمكر مثله، وليتذكر قول الله عز وجل: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة**﴾[1].

هذا هو العلاج لهذا المرض؛ لأن الماكر إذا قوبل بالإحسان والصفح ممن مكر به، فإنه قد يستحي من سوء فعله فقد يقلع عنه ويكف عن المكر، كما أن أفراد المجتمع يأخذون الدرس من مقابلة المكر بالصبر والصفح ويكفون بل ويحذرون من تفشي هذا المرض الاجتماعي الخطير، كما وأن من مُكر به قد ثبت على مبدأ إسلامي عظيم، ولم يتأثر بما يواجهه من مكر وخداع وكان صابراً محتسباً.

ومن هذه الأمراض الاجتماعية الطعن في الناس وإبداء مثالبهم بقصد التنفير عنهم: (... مثال ذلك أن يريد الإنسان ذم رجل وتنقصه وإظهار عيبه لينفر الناس منه)[2]، يفعل ذلك: (... إما محبة لإيذائه لعداوته، أو مخافةً من مزاحمته على مال أو رئاسة، أو غير ذلك من الأسباب المذمومة، فلا يتوصل بذلك إلا بإظهار الطعن فيه...)[3].

وهذا المرض منتشر اليوم في أوساطنا الاجتماعية، فما أكثر ما يحصل الطعن في الإنسان والتنقص من قدره وذكر معايبه، وما يفعل هذا إلا من استحكمت الشهوات في نفسه، وهذا المرض معالجته تكون في الخوف من الله والحذر من عقابه واتباع رسول الله ﷺ وامتثال هديه حسبما ورد عنه ﷺ: «حب لأخيك ما تحب لنفسك»[4].

---

(١) سورة فصلت، آية [٣٤].

(٢) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٤٤.

(٣) المرجع السابق: ٤٤.

(٤) حديث صحيح بلفظ «أحب للناس ما تحب لنفسك» رواه البخاري في التاريخ، مسند أبي يعلى. السلسلة الصحيحة برقم (٧٢).

وورد أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه...»[1]. وجعل الرسول ﷺ: «الحب في الله والبغض في الله من الإيمان»[2].

ومن الأمراض الاجتماعية شيوع النفاق في التعامل بين أفراد المجتمع وإظهار خلاف الحقيقة وأخطر ذلك: (... إظهار السوء وإشاعته في قالب النصح...)[3].

فقد يزعم من يفعل ذلك: (... أنه إنما يحمله على ذكر العيوب إما عاماً أو خاصاً، وكان في الباطن إنما غرضه التعيير والأذى...)[4].

وعلاج هذا المرض استشعار الفاعل له أن الله سبحانه وتعالى لا يُخادَع، وهو المطلع على السر والعلانية لا تخفى عليه خافية، وأنه سيحاسبه على نفاقه الذي انطوت عليه نفسه، وليعلم أن (... عقوبة من أشاع السوء عن أخيه المسلم وتتبع عيوبه وكشف عورته أن يتبع الله عورته ويفضحه ولو في جوف بيته)[5]؛ لأن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان، وليعلم من يفعل ذلك بحجة النصيحة والمشورة أن هناك فرق بين النصيحة والتعيير: (... فشتان بين من قصده النصيحة ومن قصده الفضيحة ولا تلتبس إحداهما بالأخرى إلا على من ليس من ذوي العقول الصحيحة)[6].

---

(١) الحديث صحيح، رواه أبو داود، وابن ماجه، من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان.

(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٤٢.

(٤) المرجع السابق: ٤٢.

(٥) المرجع السابق: ٣٩.

(٦) المرجع السابق: ٣٩.

ومن هذه الأمراض ظن السوء بالآخرين؛ (. . . فإن ظن السوء ممن لا يظهر منه أمارات السوء مما حرمه الله ورسوله. . . وقد قال عمر رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً)[١].

أهم الأساليب لمعالجة هذه الأمراض:

من أهم أساليب معالجة هذه الأمراض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

قال ﷺ: «الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٢]،

ومن النصح للمسلمين أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر دون تشهير بهم أو تعييرهم بين الناس أو النيل من أعراضهم، فقد كان النبي ﷺ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون ذكر للأشخاص والأفراد، بل كان يلمح ويوري ويحذر من انتشار المفاسد الاجتماعية والمعاصي والذنوب والمخالفات الشرعية، فيقول: «ما بال أقوام. . . .»[٣].

ولقد تعلم سلفنا رحمهم الله آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المعلم الأول عليه الصلاة والسلام (قال بعض العلماء لمن يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العصاة؛ فإن ظهور عوراتهم وهن في

---

(١) المرجع السابق: ٣٧.

(٢) الحديث صحيح، التاريخ للبخاري والبزار من رواية ابن عمر.

(٣) الحديث صحيح، الجامع رقم (٤٦٩٢)، السلسلة الصحيحة (٢٠٦٤).

الإسلام. أحق شيء بالستر العورة..)[1].

نعم ظهور المفاسد والعورات على شكل ظواهر اجتماعية وهن في الإسلام وضعف في المسلمين، ولقد أوضح ابن رجب حال الفاجر الذي يريد أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، وبيَّن حال المصلح الذي يريد محاربة الفساد في المجتمع دون التعرض للأشخاص، فقال: (.. فلهذا كان إشاعة الفاحشة مقترنة بالتعيير وهما من خصال الفجار؛ لأن الفاجر لا غرض له في زوال المفاسد، ولا في اجتناب المؤمن للنقائص والمعايب، إنما غرضه في مجرد إشاعة العيب في أخيه المؤمن وهتك عرضه، فهو يعيد ذلك ويبديه، ومقصوده تنقص أخيه المؤمن في إظهار عيوبه ومساويه للناس ليدخل عليه الضرر في الدنيا، وأما الناصح فغرضه بذلك إزالة عيب أخيه المؤمن واجتنابه له، وبذلك وصف الله تعالى رسوله ﷺ فقال: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم...**﴾[2].

ووصف بذلك أصحابه: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...**﴾[3]. ووصف المؤمنين بالصبر والتواصي بالمرحمة»)[4].

(... قيل لبعض السلف: أتحب أن يخبرك أحد بعيوبك؟ فقال: إن كان يريد أن يوبخني فلا)[3]. وإذا كانت الذنوب والمعاصي معايب وأمراض اجتماعية فإن التعيير بها والتوبيخ لمرتكبها من الذنوب المذمومة، يقول ابن رجب الموجه البارع والمربي الماهر: (... فالتوبيخ

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٣٧.

(٢) سورة التوبة، آية [١٢٨].

(٣) سورة الفتح، آية [٢٩].

(٤) الفرق بين النصيحة والتعيير، ابن رجب: ٣٧.

(٥) المرجع السابق: ٣٧.

والتعيير بالذنب مذموم وقد نهى النبي ﷺ أن تثرب الأمة الزانية مع أمره بجلدها، فتجلد حداً ولا تعير بالذنب ولا توبخ به.

وفي الترمذي وغيره مرفوعاً: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»[1][2].

ولقد كان السلف الصالح يعتبرون بالحوادث والوقائع ويستفيدون من ذلك في سلوكهم وأعمالهم.

روي أنه (... لما ركب ابن سيرين الدَّين وحبس به قال: إني أعرف الذنب الذي أصابني بهذا، عيَّرت رجلاً منذ أربعين سنة فقلت له: يا مفلس...)[3].

وحري بالمؤمن اليوم أن يبتعد عند نصحه وإرشاده لغيره عن التعيير والتوبيخ، لأن النفوس البشرية جبلت على تقبل النصح ورفض التشهير والتقبيح.

الفرد في المجتمع:

ربَّى الإسلام الفرد على حسن التعامل في المجتمع والشفقة والرحمة لكل أحد: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد...»[4].

ومراعاة حالهم حتى في ممارسة عبادته، يروي لنا ابن رجب حال (بعض أصحابه وكان يصلي بهم في رمضان: هؤلاء قوم ضعفاء، اقرأ

---

(١) الحديث موضوع، رواه الترمذي من حديث معاذ، السلسلة الضعيفة (١٧٨).

(٢) المرجع السابق: ٣٥.

(٣) المرجع السابق: ٤٢.

(٤) الحديث صحيح، صحيح الجامع (٥٨٤٩)، مسلم (١٧٧٤)، السلسلة الصحيحة (١٠٨٢).

خمساً ستاً سبعاً. قال: فقرأت فختمت ليلة سبع وعشرين)[1] ثم علق على هذا بقوله: (. . . وكلام الإمام أحمد يدل على أنه يراعي في القراءة حال المأمومين فلا يشق عليهم، وقال أيضاً غيره من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم)[2].

فالمؤمن يراعي ظروف إخوانه حتى حال العبادة فلا يكلفهم العنت ولا الحرج حتى لا يشق عليهم وحتى لا ينفرهم من العبادة هذا بالنسبة للفرد المؤمن الصالح العابد التقي. . . أما إذا كان هذا الفرد عاصياً فمن حقه على المجتمع أن ينصح ويؤخذ على يده لأن رسول الله ﷺ قال: «. . . لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه. . . الحديث»[3]، فإذا لم ينته ويرعو فإنه سيصبح شؤماً على نفسه وغيره، فالعاصي شؤم على نفسه وعلى غيره فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس)[4].

قال تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. . .**﴾ الآية[5].

وقال ﷺ عندما سئل عن هلاك الصالح والطالح: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: إذا كثر الخبث»[6]، وقال ﷺ: «مثل القائم في حدود

---

(١) لطائف المعارف: ١٨٠.

(٢) المرجع السابق: ١٨٠.

(٣) الحديث في الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٤) لطائف المعارف: ٧٧.

(٥) سورة الأنفال، آية [٢٥].

(٦) الحديث صحيح الجامع رقم (٧١٧٦)، مسلم (١٩٨٧).

الله والواقع فيها . . . . الحديث»[1] .

وهذا العاصي ينبغي البعد عنه إذا لم يستجب للنصح وهجرانه .

يقول ابن رجب : (فالبعد عنه متعين)[2] .

فإذا لم ينصح ولم ينكر عليه أوشك العذاب أن يعم الجميع لأنه (إذا كثر الخبث هلك الناس عموماً)[3] .

ومن حرص الإسلام على سلامة المجتمع من الهلاك أن رسول الله ﷺ أوصى بالبعد عن غشيان أماكن هلاك القوم العاصين ، فإذا مر أحد بديارهم فليهرول وليمر باكياً خوفاً من الله وخشية منه سبحانه واتعاظاً بما حل بهم .

يقول ابن رجب : (وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهروب منها خشية نزول العذاب كما قال النبي ﷺ لأصحابه لما مروا على ديار ثمود بالحجر : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[4])[5] .

وكما أن الفرد يؤثر في المجتمع إذا كان صالحاً أو عاصياً ، فإن المجتمع يؤثر على الفرد سلباً أو إيجاباً . فالتيار الاجتماعي يؤثر تأثيراً بالغاً على الأفراد . أشار إلى ذلك ابن رجب في معرض حديثه عن الرجل الذي قتل مائة نفس فقال : (لما تاب الذي قتل مائة نفس من بني إسرائيل وسأل

---

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد والبخاري والترمذي من حديث النعمان بن بشير .

(٢) لطائف المعارف : ٧٨ .

(٣) لطائف المعارف : ٧٨ .

(٤) ورد بمعناه في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، الجزء الخامس ، ص ٤٤٦ ، للإمام محمد يوسف الشامي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

(٥) المرجع السابق : ٧٨ .

العالم هل له من توبة، قال له: نعم. فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة)[1]، وفي هذا دليل على الآثار التربوية التي يخلفها المجتمع على أفراده بواسطة مؤسساته التربوية عامة: الأسرة، الرفاق، البيئة المحلية، المؤسسات المختلفة، ثم استطرد ابن رجب في قصة الرجل ورحيله من قرية السوء قال: (فأدركه الموت بينهما، فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله أن قيسوا بينهما، فإلى أيهما كان أقرب فألحقوه بها، فوجدوه إلى القرية الصالحة أقرب برمية حجر فغفر له)[2].

وابن رجب بهذا يحذر من المعاصي أشد التحذير ويرى أنها مهلكة للإنسان، لذا يتوجب عليه الابتعاد عنها وعن أهلها لأنها عدوى مهلكة تهلك كل من زاولها أو خالط أهلها، يقول رحمه الله: (. . . العدوى التي تهلك من قاربها هي المعاصي فمن قاربها وخالطها وأصر عليها هلك، وكذلك مخالطة أهل المعاصي ومن يحسن المعصية ويزينها ويدعو إليها من شياطين الإنس)[3].

ثم حذر رحمه الله بأسلوب التنفير من قرناء السوء وشياطين الإنس، وبين أنهم أخطر على الإنسان من شياطين الجن، فقال: (. . . وهم أضر من شياطين الجن، قال بعض السلف: شيطان الجن تستعيذ بالله منه فينصرف، وشيطان الإنس لا يبرح حتى يوقعك في المعصية)[4].

ثم أوضح رحمه الله مدى تأثر الخليل بخليله، وأوصى بصحبة

(١) المرجع السابق: ٧٨.
(٢) المرجع السابق: ٧٨.
(٣) لطائف المعارف: ٧٧.
(٤) المرجع السابق: ٧٧.

الصالحين والتحذير من صداقة السيئين فقال: (وفي الحديث: «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[1] وأحاديث أخر: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»)[2][3].

إن الله سبحانه يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، وهذا إذا تحققت للتوبة شروطها من الإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العود والندم على ما فات، ومما يعين على الإقلاع عن الذنوب هجرها وهجر أصحابها.

يقول ابن رجب: (قال إبراهيم بن أدهم: من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة من كان يخالطهم، وإلا لم ينل ما يريد)[4].

وفي هذا بيان للأثر الذي يجنيه الفرد من قرناء السوء وأصحاب الشر والفتنة. فإذا كان الفرد يحصل له هذا التأثير من جراء مخالطة المجتمعات السيئة، فإن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم الأطباء والمعالجون لهذه المجتمعات، هم الذين يشخصون أمراضها ويصفون علاجها دون أن يحصل لهم هذا التأثر السلبي من هذه المجتمعات، لأن الله قد صنعهم على عينه وحصنهم من الزلل، فهذا الرسول ﷺ قد نشأ في مجتمع جاهلي سادت فيه المعاصي والمنكرات وانحرفت الأخلاق وفسدت العقيدة، نشأ فيه ﷺ ولم يتأثر بهذا المجتمع حتى نزل عليه الحق. فهو معصوم بعصمة الله له: (قال حنبل قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد - من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل أن

---

(١) مشكاة المصابيح/ ٥٠١٨.

(٢) الحديث حسن، رقمه في صحيح الجامع (٧٣٤١).

(٣) لطائف المعارف: ٧٧.

(٤) المرجع السابق: ٧٨.

يبعث؟ قال: هذا قول سوء، ينبغي لصاحب هذه المقالة أن يُحذر كلامه ولا يجالس)[1].

فجليس السوء يؤثر بالمخالطة والمعاشرة، لكن إذا كان الشخص الصالح قوياً ذا شخصية مؤثرة وحصانة شديدة ومناعة قوية، فإنه يؤثر ولا يتأثر، فمخالطة هذا الصنف للسيئين بقصد إصلاح حالهم، أمر حث عليه النبي ﷺ بقوله: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير ممن لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[2].

من هو خير الناس؟:

من هذا يتضح أن خير الناس هو الذي ينفع الناس ويصبر على أذاهم، يقول ابن رجب: (فخير الناس أنفعهم للناس وأصبرهم على أذى الناس كما وصف الله المتقين بذلك في قوله: ﴿**الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾[3])[4].

والمربون والدعاة بحاجة إلى مخالطة الناس حتى يعرفوا أمراضهم الاجتماعية ويشخصوها بدقة ويصفوا علاجها بدقة، فحري بهم أن يتحلوا بالصبر وأن يتصفوا بالحلم والرأفة والشفقة حرصاً منهم على نفع الناس، وكفهم عن أماكن الهلاك والضلال.

ولقد وعى سلفنا هذا التوجيه التربوي من رسول الله ﷺ وجسدوه

---

(١) لطائف المعارف: ٨٢، ٨٣.

(٢) شرح مشكل الآثار، من حديث ابن عمر رقمه (٥٥٤٥)، (٥٥٤٣)، وهو صحيح، وأخرجه البخاري رحمه الله في الأدب المفرد.

(٣) سورة آل عمران، آية [١٣٤].

(٤) لطائف المعارف: ٢٤٦.

واقعاً وحقيقة وكان كثير: (. . . منهم يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم اغتناماً لأجر ذلك)[1]، (. . . وكان ابن المبارك يطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم، وكان إذا أراد الحج من بلده مرَّ وجمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليها، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف، ثم يرجع بهم إلى بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعاماً، ثم جمعهم عليه ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فردَّ إلى كل واحد نفقته. .)[2] ما أعظم هذا الحملدار الذي يضع أرصدته في بنك الآخرة، وما أعظم ربحه وما أربح تجارته.

من هو شر الناس؟:

إنه الذي يتحاشاه الناس لشرِّه ذو الوجهين، يقول ابن رجب في وصفه: (شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه. . . . قال ﷺ: «إن من شر الناس يوم القيامة منزلة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. . .»[3][4].

وهذا توجيه تربوي من ابن رجب ينفر فيه عن الفحش والبذاءة ويحث على الصراحة والصدق، إنه تبصير للأفراد أن يكونوا مفاتيح خير في مجتمعهم.

---

(١) لطائف المعارف: ٢٤٧.

(٢) المرجع السابق: ٢٤٨.

(٣) الحديث في صحيح الجامع رقمه (٥٩١٧)، البخاري جـ ٤، ص ٣٩٥، مسلم جـ٨، ص ٢٧.

(٤) لطائف المعارف: ٩١.

الحقـــوق والواجبـــات الاجتماعيـــة:

لقد جعـــل الله ســبحانه وتعالى للعيال والأهل حقاً على الإنسان وهو حق لا يصح التـهـاون به ولا الانشـغـال عنه حـتى ولو بنوافـل الطاعات كالصيام وغيره (. . . فأفضل الصيام ألا يضعف البدن حتى يعجز عما هو أفضل منه من القيام بحقوق الله تعالى أو حقوق عباده اللازمة، فإن أضعف عن شيء من ذلك مما هو أفضل منه كان تركه أفضل. . . مثل أن يضعف الصيام عن الكسب للعيال، أو القيام بحقوق الزوجات فيكون تركه أفضل وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «. . . إن لأهلك عليك حقاً»)[1][2].

مســؤولية المســلم الاجتماعيـــة:

إن وجود الرجل الصالح في المجتمع خير ورحمة للجميع حتى وإن كانوا عصاة مارقين (. . . إن المنفرد بالطاعة من أهل المعاصي والغفلة قد يدفع البلاء عن الناس كلهم وكأنه يحميهم ويدافع عنهم. . . .)[3]، ثم ضرب لنا مثلاً فقال: (ذاكر الله في الغافلين كمثل الذي يحمي الفئة المنهزمة)[4].

ثم أكد على أن وجود هذا الصنف سبب في سلامة الناس من الهلاك فقال: (. . . ولولا من يذكر الله في غفلة الناس لهلك الناس)[5]، ثم

---

(١) الحديث في صحيح الجامع (٧٩٤٦)، صحيح أبي داود (١٢٣٩)، الإرواء (٢٠١٥).

(٢) لطائف المعارف: ١٣٠.

(٣) المرجع السابق: ١٣٩.

(٤) المرجع السابق: ١٣٩.

(٥) المرجع السابق: ١٣٩.

استشهد على هذا ببعض الآثار فقال: (... وجاء في الأثر «إن الله يدفع بالرجل الصالح عن أهله وولده وذريته ومن حوله..»)[1] الشر والسوء والهلاك.

وقال أيضاً: (.. قال مكحول: ما دام في الناس خمسة عشر يستغفر كل منهم الله كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يهلكوا بعذاب بعامة)[2]، وهذا من رحمة الله بعباده، ومن عدله أنه قد يهلك الصالح مع الطالح إذا كثر الخبث كما ذكرنا ذلك آنفاً.

المجتمع والمسؤولية الفردية:

وكما أن للفرد الصالح في المجتمع دور في الشفقة والرحمة بالأفراد، فكذلك للمجتمع دور هام في استقامة سلوك الفرد أو الانحراف به عن الصراط المستقيم (النفوس تتأسى بما تشاهده من أحوال أبناء الجنس، فإذا كثرت يقظة الناس وطاعاتهم كثر أهل الطاعة لكثرة المقتدين بهم فسهلت الطاعات، وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسى بهم عموم الناس فيشق على نفوس المستيقظين طاعاتهم لقلة من يقتدون بهم فيها، ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: «للعامل منهم أجر خمسين منكم، إنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون»[3])[4].

وإذا فسد الناس واتبعوا الشهوات ولم يعرجوا على دين فإنهم يشبهون حال الجاهلية الأولى؛ لأن (الناس في زمن الفتن يتبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين فيكون حالهم شبيهاً بحال الجاهلية)[5].

---

(١) المرجع السابق: ١٣٩.

(٢) المرجع السابق: ١٣٩.

(٣) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

(٤) لطائف المعارف: ١٣٨.

(٥) المرجع السابق: ١٣٩.

والمجتمع بهذه المثابة لو انفرد شخص منه متمسك بدينه وعبد ربه وابتغى مرضاته فإنه يكون بمثابة المهاجر من دار الجاهلية إلى دار الإسلام، يقول ابن رجب بعد ذكر حال المجتمع زمن الفتنة واتباع الأهواء: (. . . فإذا انفرد من بينهم من يمسك بدينه ويعبد ربه ويتبع مراضيه ويجتنب مساخطه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله ﷺ مؤمناً به متبعاً لأوامره مجتنباً لنواهيه)[١].

الطفل في المجتمع:

الطفل شديد الملاحظة سريع التأثر بمن يشاهد من أفراد الأسرة والمجتمع، فإن رأى حالة حسنة ووضعاً مستقيماً تأثر به إيجاباً، وإن رأى حالة سيئة ووضعاً منحرفاً تأثر به سلباً.

يروي ابن رجب حال أحد أطفال السلف: (. . . قال أبو التياح: أدركت أبي ومشيخة الحي إذا صام أحدهم ادهن ولبس صالح ثيابه)[٢].

تأثر الأفراد بالعادات الاجتماعية:

للعادات الاجتماعية تأثير على الفرد حتى في عبادته فقد يسير في عبادته على ما اعتاد المجتمع، فكثير من الناس من يمشي على العوائد دون ما يوجبه الإيمان ويقتضيه)[٣]، فقد حذر رسول الله المسلم من الجري وراء العادة بقوله: «لا تكن إمعة إن أحسن الناس أحسنت» الحديث[٤]، وفي هذا رد على الانحراف التربوي الذي يجعل من غاية التربية التكيُّف[٥]،

(١) المرجع السابق: ١٣٩.
(٢) لطائف المعارف: ١٣٨.
(٣) المرجع السابق: ١٦٢.
(٤) الحديث صحيح رقمه (٦٢٧١)-(١٤٤١٨) في صحيح الجامع.
(٥) أي أن الفرد يتكيف في المحيط الاجتماعي على أية حال كان.

أي مسايرة المجتمع على ما هو فيه.

من صفات المجتمع المؤمن:

إشاعة روح المواساة بين أفراده، غلبة خلق الإيثار الذي هو من صفات الجيل الفريد في تاريخ الأمة. قال تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾(١). (كان كثير من السلف إذا كان صائماً وجاءهم محتاج يؤثرونهم بإفطارهم ويباتون دون عشاء)(٢).

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحبون المساكين ويقربونهم وبعضهم لا يأكل إلا معهم، وإن منع من ذلك لم يذق للطعام ذواقاً فقد: (كان ابن عمر رضي الله عنهما يصوم ولا يفطر إلا مع المساكين فإذا منعه أهله عنهم لم يتعش تلك الليلة)(٣)، وما كان هذا ليحصل منهم لولا التربية التي نالوها بمدرسة النبوة حيث كان الرسول ﷺ يحث على مجالسة المساكين وعلى حبهم، بل يدعو فيقول: «اللهم احشرني في زمرة المساكين»(٤)، وكان يقول عليه الصلاة والسلام: «يدخل المساكين الجنة قبل الأغنياء....»(٥).

لقد تأثر الصحابة رضوان الله عليهم بهذه التربية من رسول الله ﷺ واستفادوا من مخالطته صفات حميدة مثل الشفقة والرحمة والإيثار

---

(١) سورة الحشر، آية [٩].

(٢) لطائف المعارف: ١٧٨.

(٣) لطائف المعارف: ١٧٨.

(٤) الحديث صحيح، السلسلة الصحيحة رقم (٣٠٨)، الإرواء (٨٦١).

(٥) الحديث صحيح، المشكاة رقم (٥٢٤٣) بلفظ «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام».

والصدق، فمما: (. . . لا شك فيه أن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقاً من المخالط. . .)[1]، يروى أن: (بعض الشعراء قد امتدح ملكاً جواداً فأعطاه جائزة سنية فخرج من عنده ففرقها كلها على الناس فأنشد:

لست بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي[2]

فكانوا يتحلون بالإيثار والجود؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن (. . . من جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل)[3].

ولقد عرف علماء السلف فضل هذا الخلق فكانوا يحثون الناس عليه ويرغبونهم فيه ويحملونهم على تطبيقه: (قال الشافعي رضي الله عنه: أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداء برسول الله ﷺ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولانشغال كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم، وكذا قال القاضي أبو يعلى وغيره)[4].

ومن صفات المجتمع المؤمن: التحلي بخلق المناصحة والمصارحة، ومن ذلك: (. . . أن يقال للرجل في وجهه ما يكرهه، فإن كان هذا على وجه النصح فهو حسن، وقد قال بعض السلف لبعض إخوانه: لا تنصحني حتى تقول في وجهي ما أكره)[5].

---

(١) لطائف المعارف: ١٧٥.
(٢) المرجع السابق: ١٧٥.
(٣) المرجع السابق: ١٧٧.
(٤) المرجع السابق: ١٧٩.
(٥) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٣٥.

ولقد تربى أفراد هذا المجتمع على تقبل النصح والاعتذار من العيوب إن كان في ذلك عذر: (فإذا أخبر الرجل أخاه بعيب ليجتنبه كان ذلك حسناً لمن أخبر بعيب من عيوبه أن يعتذر منها إن كان له منها عذر)[1].

والأفراد في هذا المجتمع لا يشهرون بالذنب، ولا يفضحون صاحبه على رؤوس الملأ، ولا ينصحون علانية، ويبتعدون عن السخرية والاستهزاء، لأنهم يعلمون أن النصح إذا (كان على وجه التوبيخ بالذنب فهو قبيح مذموم)[2].

فالناس (يحتاجون إلى مداراة ورفق في الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجلاً معلناً بالفسق فإنه لا حرمة له)[3].

فالمعلن بالفسق حاله كحال الشيطان الذي يزين المعصية للإنسان، لأن: (الحامل للفاجر على إشاعة السوء القسوة والغلظة ومحبة إيذاء أخيه المؤمن وإدخال الضرر عليه، وهذه صفة الشيطان الذي يزين لبني آدم الكفر والفسوق والعصيان ليصيروا بذلك من أهل النيران)[4].

فمثل هذا لو نصح علانية وفضح أمره في الوسط الاجتماعي بقصد التحذير منه ومن شره فلا بأس من ذلك، أما غيره من أفراد المجتمع فيؤخذون بالقول الحسن والرفق بالنصح، لأنه (ربما كان معاملة الناس بالقول الحسن أحب إليهم من الإحسان بعطاء المال)[5]، لهذا فقد

---

(١) المرجع السابق: ٣٥.
(٢) المرجع السابق: ٣٥.
(٣) اختيار الأولى: ٨٥.
(٤) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٣٨.
(٥) اختيار الأولى: ٨٣.

(. . . كان كثير من السلف لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا سراً فيما بينه وبين من يأمره وينهاه)[1]، لأنهم قد عرفوا الآثار الطيبة من الأمر والوعظ سراً. (قالت أم الدرداء: من وعظ أخاه سراً فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه)[2].

انظر حتى نساء الصحابة يعرفن أدب النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا غرابة في ذلك . . إنهن رواد مدرسة النبوة، فقد أثر فيهن بتربيته النبوية.

---

(١) المرجع السابق: ٨٥.
(٢) اختيار الأولى: ٨٥.



الفصل الخامس

الغاية والأهداف والأغراض عند ابن رجب

* ❊ تعريف الغاية والهدف والغرض.
* ❊ غاية التربية.
* ❊ أهداف التربية.

أ - النمو الروحي.

ب - النمو الأخلاقي.

جـ - النمو الإرادي.

د - النمو العاطفي.

هـ - نمو البدن.

و - التربية الجنسية.



تعريف الغاية والهدف والغرض:

الغاية: هي المدى... وغييتها: نصبتها[1].

والهدف: كل شيء مرتفع من بناء أو كثيب رمل أو جبل، ومنه سمي الغرض هدفاً[2].

والغرض (محركة): هدف يرمى فيه،جمعه أغراض[3].

فللتربية غاية وأهداف وأغراض (وعلى الرغم من الأهمية التي تحتلها الأهداف في العمل الإنساني والعمل التربوي بصفة خاصة، فإننا نجد أنها في حاجة إلى تعريف يساعد على تبيين حدودها ومداها وأثرها وأنواعها، ففي المجال التربوي ما زالت الأهداف تستخدم كما تستخدم في المجالات الأخرى بمفردات كثيرة. فهناك الغايات والأهداف والأغراض والمقاصد والمرامي. ويبدو للبعض أنها جميعاً تؤدي وظيفة واحدة وتحمل معنى واحداً)[4].

ولكن في الحقيقة إن (معنى الهدف هو موجود في عمل مرتب منظم للنهاية الممكنة في ظل ظروف وإمكانيات موضوعية مصاحبة. فحين يفكر الإنسان الذي يقوم بعمل ما في نتيجة عمله، ويفكر بذكاء في

---

(١) مختار القاموس، الزادي، مادة: غ ي ي.

(٢) مختار الصحاح، الرازي، مادة: هـ د ف.

(٣) مختار القاموس، مادة: غرض.

(٤) في أصول التربية. الأصول الفلسفية للتربية، د. محمد الهادي عفيفي، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٨م، ص ٣٣.

خطوات هذا العمل، ويربط بينها في ضوء توقعاته للنتيجة وضوء خبراته السابقة، وما يقوم به من تعديل لخطوات العمل وفق إدراكه لعلاقتها وتسلسلها على نحو يستبصر فيه سلامتها فإن دافعه لهذا العمل يصبح هدفاً)[1].

إنه باستطاعتنا أن نقول: بأن الغاية هي الهدف السامي، وهي واحدة لا تتعدد. فغاية التربية الإسلامية هي تحقيق العبودية لله وحده دون سواه على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع. قال تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**﴾[4]، وحتى تتحقق هذه الغاية لا بد من الإتيان بجملة أهداف في بناء الفرد والأسرة والمجتمع. وحتى يتحقق كل هدف من هذه الأهداف لا بد من القيام بجملة أغراض وهي الأهداف القريبة (... إن التربية قد تحقق أهدافاً قريبة ولكنها قد تقصد من وراء تحقيق الأهداف القريبة أن تكون وسيلة لأهداف أبعد منها نسميها الغايات أو الأهداف البعيدة، ومما تقدم يتبين أيضاً أن تحقيق الهدف البعيد يتضمن تحقيق الهدف القريب)[5]؛ لأن (... بعض الأهداف التربوية أهداف مباشرة؛ أي أنها تهتم بما يجب أن يفعل في الحال وفي الموقف الموجود فعلاً، فعندما يواجه المدرس الفصل

---

(١) في اجتماعات التربية، د. منير المرسي سرحان، ط ٣، سنة ١٩٨١م، دار النهضة العربية، بيروت، ص [٦١].

(٢) سورة النساء، آية [٣٦].

(٣) سورة الذاريات، آية [٥٦].

(٤) سورة يس، آية [٦١].

(٥) التربية وطرق التدريس، النحلاوي وآخرون، طبعة سنة ١٣٨٩هـ، ٢/ ٢٣٢.

وهو في حالة فوضى وضوضاء فإن هدفه التربوي المباشر أن يعيد نوعاً من النظام لكي يستمر العمل الذي يقصد القيام به ولكن المحافظة على النظام ليست هي الهدف الوحيد من التعليم، إذ توجد أهداف أبعد من ذلك يخدمها هذا الهدف القريب المباشر، وإذا ما نظرنا إلى كل هدف على هذا الأساس على أنه يسهم في إيجاد هدف أبعد ينشأ السؤال عما إذا كان يوجد هدف لا تابع له في التسلسل، هدف نهائي، تسهم في الوصول إليه الأهداف الأخرى السابقة جميعها، ومثل هذا الهدف إذا ما وجد يمكن أن يسمى هدفاً نهائياً، والأهداف التي تقع بين الأهداف المباشرة والأهداف النهائية هي أهداف وسيطة)[١].

وهذا التفريق بين الغاية والأهداف والأغراض واضح في فلسفة التربية الإسلامية، إذ أن الغاية التي تسعى إلى تحقيقها هذه التربية هي عبودية الإنسان لخالقه كما أسلفنا، وحتى تتحقق هذه الغاية لا بد من تحقيق أهداف متعددة في تربية هذا الإنسان، مثل تربية روحه وتربية عقله وتربية عاطفته وغير ذلك. وحتى تربى روحه على الوجه المطلوب لا بد من الحصول على أهداف أخرى في هذه التربية ممكن تسميتها أغراضاً منها الإتيان بوسائل بناء الإيمان وحمايته من النقص وغير ذلك، ومثل ذلك يقال في تربية العقل والعاطفة وغير ذلك. فإذاً عندنا غاية وأهداف وأغراض للتربية.

وقد يخلط البعض بين الدافع والهدف والنتيجة مع أن هناك فرقاً واضحاً بينها فقد: (. . . يندفع الإنسان أحياناً لسلوك معين دون تبصير ولا قصد واضح مثال: من ينتر يده بسرعة إذا أحس بشيء قد وخز يده أو أحرقها. وقد يفكر في نتائج سلوكه ويقصد نتيجة بعينها وينظر فيما يعينه

---

(١) فلسفة التربية، فنكس، ترجمة محمد لبيب نجيحي، دار النهضة العربية، سنة ١٩٨٢م، ص ٨٢٩، ص ٨٣٠.

عليها، وفيما يعوقه دونها ويتبصر في الظروف المحيطة بها، ويتخذ خطة لتحقيق مقصوده، فهو هنا يستهدف هدفاً ويقصد غاية ثم يسلك قاصداً هدفه فيكون لسلوكه محصول أو نتيجة ما موافقة أو مباينة قليلاً أو كثيراً لهدفه، فالنتيجة ما يتحصل من السلوك وقد تطابق الهدف أو لا تطابقه)[1].

وهناك فرق بين وظائف التربية وأهدافها لكن (لعله من الصعب التفريق بين هذه الوظائف وتلك الأهداف، ونحن نلاحظ مع ذلك أن الوظيفة هي المهمة التي تحققها التربية في حياة الفرد أو في حياة الجماعة حال ما نقوم بتربيته، أما الهدف فهو الغرض البعيد أو الذي لم يتحقق تماماً إبان القيام بعملة التربية لكننا نعد الناشيء من أجل تحقيقه في المستقبل القريب أو البعيد أو لعلنا نبدأ بتحقيق بعضه على أمل استكمال البعض الآخر، وللهدف ميزة أخرى هي أنه يبقى هدفاً مدى الحياة ولا يمكن بلوغ مداه وإلا خسر قوة الدفع والنهوض التي يتمتع بها وهي كل ما تحقق جانب منه أغرانا بتحقيق جانب أسمى وهكذا دواليك)[2].

فأهداف: (. . . التربية لا تنتهي، وكيف تنتهي أو تتوقف وهي تسعى إلى تحقيق النمو السليم للفرد في إطار اجتماعي واضح المعالم والأهداف)[3].

---

(١) مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، عبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي، ص ٥٩.

(٢) التربية وطرق التدريس، مرجع سابق ٢/ ٢٩.

(٣) في أصول التربية وتاريخها، د. أحمد عبد الرحمن عيسى، دار اللواء للنشر والتوزيع، ص ٣٧.

غايــــــــة التربيــــــــــة:

ذكرنا أن غاية التربية هي تحقيق معنى العبودية لله عز وجل على المستوى الفردي والمستوى الجماعي، أما مسؤولية هذه التربية فتقع على الأنبياء وأتباعهم فالله سبحانه وتعالى: (أمر عباده المؤمنين بدعوة الكافرين . . .)[1] فإن أجابوا وامتثلوا هذه الدعوة كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وإن لم يجيبوا فقد أباح الله قتالهم وجهادهم (. . . بالسيف والسنان وإقامة الحجة والبراهين)[2].

وتكفل الله لمن جاهدهم بالنصر والتمكين وللكافرين بالهلاك والبوار لأنهم لم يحققوا العبودية له سبحانه وتعالى، فجعلهم عبيداً للبشر للرق الذي استحقوه بكفرهم عقوبة لهم على امتناعهم عن عبادة رب العباد، وهي الغاية التي أرسل من أجلها الرسل وأنزل الكتب لأنه سبحانه: (. . . أرسل الرسل كلهم للدعوة إلى توحيده وطاعته كما قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**[3])[4].

وهذا يؤكد أن مسؤولية التربية تقع على عاتق الأنبياء والمرسلين وعلى أتباعهم من بعدهم، وهذا شرف للتربية الإسلامية وبيان لعظم قدرها ومنزلتها، فهي ربانية المصدر من لدن حكيم عليم، وقد وكلها الله إلى أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، (فعندما افترق بنو آدم وصاروا فرقاً شتى بين مؤمن وكافر وبر وفاجر أرسل الله الرسل وأنزل معهم

---

(١) الاستخراج لأحكام الخراج: ٦.
(٢) المرجع السابق ٦.
(٣) سورة الأنبياء، آية [٢٥].
(٤) الاستخراج لأحكام الخراج: ٥.

الكتب وأقام بهم الحجج لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[1]
ولقد قام الأنبياء والرسل بالمسؤولية خير قيام وكان آخرهم المربي الأعظم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، لقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وأزال الله به الغمة وفتح الله بدعوته أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً، فحققت دعوته غايتها وأينعت ثمارها وعاد الناس إلى خالقهم فأكمل لهم الدين وأتم عليهم النعمة: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[2].

فما التحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن ربى أمة حملت رسالة الدعوة من بعده، وكانت لها الخيرية على الأمم السابقة بسبب هذه الرسالة العظيمة: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[3].

فقد بدأ الإسلام غريباً فاستأنس بين أهله بعد غربى، وتقوى أهله بعد ضعف، واجتمعوا بعد شتات، وإنه عاد أو سيعود غريباً لما أخبر رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»[4].

وإن بعد هذه الغربة الثانية سيكون بعثاً ورجوعاً إلى الله وتمكيناً لهذا الدين في الأرض وهؤلاء الغرباء سيقع على عاتقهم إصلاح وضع الناس فيؤدون مسؤولية التربية فيصلحون أنفسهم ويصلحون ما أفسد الناس، فالغرباء قسمان: (. . أحدهما من يصلح نفسه عند فساد الناس،

---

(١) المرجع السابق: ٦.

(٢) سورة المائدة، آية [٣].

(٣) سورة آل عمران، آية [١١٠].

(٤) حديث صحيح، صحيح الجامع رقم (١٥٨٠).

والثاني: من يصلح ما أفسده الناس من السنة وهم أعلى القسمين وأفضلهما)[1].

وهذا يذكرنا بأن العلم الذي يقترن بالعمل هو الذي يسعد صاحبه ويسعد الناس به، والتربية عند ابن رجب تتطلب هذا النوع من العلم الذي ثمرته العمل الصالح وهو الذي تسعى إليه التربية والعلم يحصل للإنسان بجملة أمور ذكرها ابن رجب: (بحفظه ودراسته، ومطالعته، ومذاكرته، والتفهم له، والتفكير فيه، والسعي إلى مجالس العلم لطلبه... ونحو ذلك من الطرق التي يتوصل بها إلى العلم)[2].

هذا إذا قصد به طالبه وجه الله. فإنه (سييسر له العمل بمقتضاه ويجعله سبباً لهدايته والانتفاع به، وسيكون طريقه ودليله إلى الجنة وسبباً في حصوله على علوم أخرى)[3].

إن التربية في الإسلام أخذ وعطاء فمن يتعلم اليوم يعلم غيره غداً ومن رُبِّي الآن فإنه سيربِّي غيره بعد حين.

يقول ابن رجب: (هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء فقال زياد بن لبيد: يا رسول الله كيف يختلس منا العلم وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرأنه نساءنا وأبناءنا فقال: ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟)[4].

---

(١) كشف الكربة: ١٦.
(٢) ورثة الأنبياء: ٣٤، ٣٥.
(٣) ورثة الأنبياء: ٣٥، ٣٦.
(٤) المرجع السابق: ٤١.

ومما يؤكد ما ذهب إليه ابن رجب من حاجة التربية إلى العلم وتوقف نجاحها عليه ما قاله عن العلم النافع: (. . . بأنه ما باشر القلب وأوقر فيه معرفة الله وعظمته وخشيته وإجلاله وتعظيمه ومحبته، ومتى ما سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارح تبعاً له)[1].

وهذا كله في جوانب التربية المتعددة تربية الروح، تربية العاطفة، تربية الإيمان إلى غير ذلك. هذا ما يحدثه العلم النافع في خدمة التربية، أما العلم المجرد عن العمل فهو وبال على حامله، لذا فالعلماء الربانيون هم العلماء بالله وبأمره.

(فالعلم نوعان: علم الباطن: وهو خشية الله، وعلم الظاهر: وهو العلم بأمر الله ونهيه سبحانه)[2].

فعلم الباطن وهو الخشية يفيدهم في تربية ذواتهم على الإيمان بالله. وعلم الظاهر يحملهم مسؤولية تربية الناس وتعليمهم فالعلماء الربانيون هم المهتدون الموفقون المسددون، جمعوا العلمين معاً فاهتدوا وهدوا الخلق معهم إلى طريق الله، فهم أفضل من العباد الذين حصلوا على العلم الباطن وهو معرفة الله وخشيته وعبادته فأفادوا أنفسهم فقط وربوا ذواتهم فحسب)[3].

---

(١) المرجع السابق: ٤٥.

(٢) ورثة الأنبياء: ١١٢.

(٣) المرجع السابق: ١٢٢.

أهـــداف التربيـــة

أ - النمو الروحي

- تمهيد .
- تعريف الإيمان .
- الإيمان والفتن .
- من ثمار الإيمان .
- أنواع القلوب
* قلب سليم .
* قلب لين .
* قلب مريض .
- أدوية القلوب .
* صون الجوارح عن المحرمات .
* خشوع القلب والجوارح .
* التوكل والأخذ بالأسباب .
* ما يمحو الذنوب ويطهر القلوب .
- وقفات للتزود .
- الخلاصـــة



التمهيـــــــــــــد

إن المتتبع للسيرة النبوية والمتأمل فيها وبالذات الجزء الخاص بتربية الرسول ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم يجد أن اهتمام الرسول ﷺ البالغ قد انصب على التربية الإيمانية، ففي الفترة المكية كان الوحي ينزل عليه يؤكد على قضية واحدة، قضية الإيمان بالله عز وجل وبناء العقيدة بكل الوسائل والطرق المتاحة، إما بالتذكير بدلائل قدرة الله عز وجل والنظر في آياته الكونية المبثوثة على صفحة الوجود أو بالتذكير بعظمة الله عز وجل وقدرته على خلق هذا الإنسان: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[1]. ﴿**قل انظروا ماذا في السموات والأرض**﴾[2]. وإما بالتذكير بمشاهد القيامة وأهوالها: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾[3].

أو التذكير بحال الأمم السابقة وكيف أهلكهم الله عندما حادوا عن منهجه واتبعوا أهواءهم: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾[4]. إلى غير ذلك من الطرق والوسائل وهي كثيرة

---

(١) سورة الذاريات، آية [٢٠].

(٢) سورة يونس، آية [١٠١].

(٣) سورة الحج، آية [١، ٢].

(٤) سورة ق، آية [٣٧].

ومتعددة: كل هذا لبناء الإيمان، فالإيمان متى ما رسخ في النفس واستقر في القلب انبثق عنه عمل صالح، وانتشر الخير ورفرفت السعادة وعاش الفرد والمجتمع في أمن وطمأنينة، وإننا في هذا المبحث سنتناول بإذن الله تعريف الإيمان وثماره وأنواع القلوب وأدواءها، ثم نقف وقفات لنرى كيف يكون التزود بزاد الإيمان. قال تعالى: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾[١].

تعريف الإيمان:

الإيمان في اللغة: التصديق[٢] وآمن به صدقه[٣] وآمن به: وثق وصدقه[٤]، والإيمان الثقة وقبول الشريعة[٥]. والإيمان في الاصطلاح: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.

فقول اللسان هو النطق بالشهادتين وكل عبادة قولية كالذكر وخير الذكر لا إله إلا الله، أما الاعتقاد بالجنان فهو اعتقاد القلب، وهذا الاعتقاد لا بد من تصديقه بعمل الجوارح. فإنه لا يكفي في الإيمان اعتقاد القلب فقط ولا عمل الجوارح فقط ولا نطق اللسان فقط، فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال. (... فالإيمان بالله ورسوله وظيفة القلب واللسان ثم يتبعها عمل الجوارح)[٦].

وأعمال البر كثيرة ومتفاوتة في منازلها وفضلها، فأفضلها:

---

(١) سورة البقرة، آية [١٩٧].

(٢) مختار الصحاح، الرازي، مادة «أمن».

(٣) مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، مادة «أمن».

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جـ ١، مادة «أمن».

(٥) مختار القاموس، الزاوي، مادة «أمن».

(٦) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ١٤١.

(. . . الجهاد في سبيل الله وهو نوعان: أفضلهما جهاد المؤمن لعدوه الكافر وقتاله في سبيل الله فإن فيه دعوة له إلى الإيمان بالله ورسوله ليدخل في الإيمان، قال الله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[1]، والنوع الثاني من الجهاد جهاد النفس في طاعة الله كما قال النبي ﷺ: المجاهد من جاهد نفسه في الله»)[2][3].

(ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله)[4]، (. . . والإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أُوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه تحصل له سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة واللسان بالكلام الطيب كما قال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»)[5][6].

(. . . فالإيمان المجرد يدخل فيه الجوارح عند السلف وأهل الحديث، والإيمان المقرون بالعمل يراد به التصديق مع القول وخصوصاً أن قرن الإيمان بالله بالإيمان برسوله. . .)[7] وحتى يحصل الإيمان لا بد من تطهير القلب وتفريغه من كل ما يكرهه الله عز وجل، (أما إذا بقيت فيه من

---

(١) سورة آل عمران، آية [١١٠].
(٢) الحديث في صحيح الجامع (٦٦٧٩).
(٣) لطائف المعارف: ٢٤١.
(٤) المرجع السابق: ٢٤٠.
(٥) الحديث في صحيح الجامع (٣١٩٣).
(٦) لطائف المعارف: ٢٤٠.
(٧) المرجع السابق: ٢٤٠.

المنكرات شيء فالله أغنى الأغنياء عن الشرك وهو لا يرضى بمزاحمة الأصنام)[1].

يقول ابن رجب رحمه الله مخاطباً المؤمن ومحذراً له من إشغال قلبه بما يكرهه الله عز وجل: (... يا أيها المؤمن إن لله بين جنبيك بيتاً لو طهرته لأشرق ذلك البيت بنور ربه وانشرح وانفسح)[2].

الإيمان والفتن:

إن هذه الدنيا ما هي إلا سجن للمؤمن جنة للكافر كما جاء عن رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن جنة الكافر»[3]. فـ(المؤمن لا بد أن يفتن بشيء من الفتن المؤلمة الشاقة عليه ليمتحن إيمانه كما قال تعالى: ﴿**الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون**﴾[4] ولكن الله يلطف بعباده المؤمنين في هذه الفتن ويصبرهم عليها ويثبتهم فيها ولا يلقيهم في فتنة مهلكة مضلة تذهب بدينهم بل تمر عليهم الفتن وهم منها في عافية)[5]، وهذا بفضل الله ثم بما معهم من إيمان، قال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً....**﴾[6]، وقال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً**﴾[7]، وقال تعالى: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم**

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٦.
(٢) المرجع السابق: ٢٦٦.
(٣) الحديث في صحيح الجامع (٣٤١٣).
(٤) سورة العنكبوت، آية [١، ٢].
(٥) اختيار الأولى ١٢٣.
(٦) سورة الطلاق، آية [٢].
(٧) سورة الطلاق، آية [٤].

محسنون﴾[1]، وهذه المعية هي الخاصة بالمؤمنين، فمن كان الله معه فأنَّى له أن يخاف أو يحزن أو يذل أو يُظلم، ومن الأمور التي يدفع بها البلاء الدعاء. جاء في: (. . . . الحديث أن البلاء والدعاء يلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان إلى يوم القيامة خرجه البزار والحاكم[2] . .)[3]. إنَّ ما قدره الله عز وجل فإنه واقع لا محالة لكن الدعاء يخففه عن المؤمن، (. . . قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر)[4].

ومما هو معلوم أن الذنوب من الفتن وسبب في البلاء. والصلاة والصدقة والاستغفار تكفر الذنوب وتحد من وقع الفتن وتدفع نزول البلاء، فـ(. . الفتن الصغار التي يبتلى بها المرء في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الطاعات من الصلاة والصدقة، كذا جاء في حديث حذيفة، وروي عنه أنه سأل النبي ﷺ قال: إن في لساني ذرباً وإن عامة ذلك على أهلي، فقال له: «أين أنت من الاستغفار»؟)[5].

من ثمار الإيمان:

الإيمان الصادق يفيء طمأنينة على القلب وانشراحاً للصدر وسروراً للنفس. قال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم**

---

(١) سورة النحل، آية [١٢٨].

(٢) حديث حسن، رقمه في الجامع (٧٧٣٩).

(٣) لطائف المعارف: ٧٦.

(٤) المرجع السابق: ٧٦.

(٥) الحديث في صحيح الجامع (٣٤٢٥).

(٦) اختيار الأولى: ١٢٤.

الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلاً من غفور رحيم﴾[1].

والإيمان الصادق هو الذي لا يتناقض فيه القول مع العمل ولا يخالفان الاعتقاد، فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال؛ فمن ترك (... ما تدعوه نفسه إليه لله عز وجل حيث لا يطلع عليه غير من أمره أو نهاه دل على صحة إيمانه)[2] فإذا كان الإنسان يدع لله ويأخذ لله ويطيع الله ويحب لله ويكره فيه فقد تحقق بمعنى قوله تعالى: **﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾**[3].

والدعاوى الباطلة ينكشف أمرها ويصبح صاحبها من الكاذبين (... قال بعض العارفين: من ادعى العبودية وله مراد باق فهو كاذب في دعواه. إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته وقام بمراد سيده)[4]، وهذا الإيمان له مذاق وطعم وحلاوة لا يعدلها شيء. قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبياً ورسولاً»[5].

(... فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه وحلاوته ظهر ثمرة

---

(١) سورة فصلت، الآية [٣٠-٣٢].

(٢) لطائف المعارف: ١٦٢.

(٣) سورة الأنعام، آية [١٦٢].

(٤) الخشوع في الصلاة: ٥٧.

(٥) الحديث في مسند أحمد وعند مسلم والترمذي من حديث العباس بن عبد المطلب، انظر مختصر مسلم رقم (٢٥).

ذلك على لسانه وجوارحه، فاستحلى اللسان ذكر الله وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله فحينئذٍ يدخل الإيمان في القلب)[1].

(... ومن عمل بمقتضى الإيمان صارت لذته في مصابرة نفسه عما تميل نفسه إليه إذا كان فيه سَخط الله، وربما يرتقي إلى أن يكره جميع ما يكرهه الله منه وينفر منه وإن كان ملائماً للنفوس)[2].

وإذا كانت الطاعة محبوبة إلى الله ومنها تطييب الكلام وإطعام الطعام والمداومة على الصيام والقيام وداوم العبد عليها حباً لله وامتثالاً لأمره فإنه سينال في الجنة الجزاء الأوفى (... في حديث عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «.. إن في الجنة غرفاً يُرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها». قالوا: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن طيب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام»)[3][4].

والمؤمن أداة خير ومشعل هداية في المجتمع لا يقول زوراً ولا يغشى فجوراً، قد هذب الإسلام أقواله وأفعاله وأوجد بين جوانبه نفساً لوامة، وأيقظ ضميره فأصبح حياً شفافاً يسعى إلى الخير ويبتعد عن الشر، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يكره (... ما يلائمه من شهواته إذا علم أن الله يكرهها فتصير لذته فيما يرضي مولاه وإن كان مخالفاً لهواه، ويكون ألمه فيما يكرهه مولاه وإن كان موافقاً لهواه)[5]. فهو يكره كل محرم وينفر من كل معصية (... كالزنا وشرب الخمر وأخذ الأموال

---

(١) لطائف المعارف: ٢٤٠.

(٢) لطائف المعارف: ١٦٢.

(٣) الحديث حسن، صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٤) لطائف المعارف: ١٧٧.

(٥) المرجع السابق: ١٦١.

أو الأعراض بغير حق وسفك الدماء المحرمة، فإن هذا يسخط الله على كل حال وفي كل زمان ومكان، فإذا كمل إيمان المؤمن كره ذلك كله أعظم من كراهته القتل، ولهذا جعل النبي ﷺ من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار، وقال يوسف عليه السلام: ﴿**رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه**﴾[1])[2]، فالمؤمن المطيع لله عز وجل يشعر بسعادة لا يعدلها شيء على الإطلاق؛ لأنه قد قدم طاعة الله ورضاه على هواه ومراده، أما من ضيع حق الله ولم يسع في طاعته ومرضاته واتبع هوى نفسه وشهواته فإنه لا يجد السعادة أصلاً.

يقول ابن رجب: (. . . ما قدم أحد حق الله على هوى نفسه وراحتها إلا ورأى سعادة الدنيا والآخرة؛ ولا عكس أحد ذلك وقدم حظ نفسه على حق ربه إلا ورأى الشقاوة في الدنيا والآخرة)[3].

والمؤمن متأكد أن عمله الصالح غراس الجنة يجده في ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾[4].

فـ(. . . أرض الجنة اليوم قيعان والأعمال الصالحة لها عمران، بها تبنى القصور وتغرس أرض الجنان، فإذا تكامل الغراس والبنيان انتقل إليه السكان)[4].

(. . . رأى بعضهم كأنه أدخل الجنة وعرض عليه منزله وأزواجه،

---

(١) سورة يوسف، آية [٣٣].

(٢) المرجع السابق: ١٦١، ١٦٢.

(٣) المرجع السابق: ٢٥٠.

(٤) سورة الشعراء، آية [٨٨، ٨٩].

فلما أراد أن يخرج تعلق به أزواجه وقالوا: بالله حسِّن عملك، فكلما حسَّنت عملك ازددنا نحن حسناً)[1].

والمؤمنون يرون ربهم في الجنة كما يرون البدر ليلة تمامه فيفرحون فرحاً لا فرح بعده ويسرون سروراً لا حزن بعده.

يقول ابن رجب: (... وأما أعياد المؤمنين في الجنة في أيام زيارتهم لربهم عز وجل فيزورونه ويكرمهم غاية الكرامة، ويتجلى لهم وينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً هو أحب إليهم من ذلك، وهو الزيادة التي قال الله تعالى فيها: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾[2])[3].

والله عز وجل يجازي الشهداء بأن يجعل أرواحهم (... في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنة وترد أنهار الجنة إلى أن يردها الله إلى أجسادها. وروي أيضاً أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى أجسادها يوم القيامة)[4].

والله عز وجل قد أسكن آدم الجنة وأخرجه منها ووعده والمؤمنين من بنيه أن يرجعهم إليها. يقول ابن رجب: (... لما أُهبط آدم إلى الأرض وعد العود إلى الجنة، هو ومن آمن من ذريته واتبع الرسل ﴿**يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾، فليبشر المؤمنون بالجنة هي إقطاعهم وقد وصل منشور الإقطاع مع جبريل إلى محمد ﷺ: ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا**

---

(١) لطائف المعارف: ٥٧.

(٢) سورة يونس، الآية [٢٦].

(٣) لطائف المعارف: ٢٨٩.

(٤) المرجع السابق: ٧٤.

(٥) سورة الأعراف، الآية [٣٥].

الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[1] . . . المؤمنون في دار الدنيا في سفر جهاد يجاهدون فيه النفوس والهوى، فإذا انقضى سفر الجهاد عادوا إلى وطنهم الأول الذي كانوا فيه)[2].

ويقول في مكان آخر: (. . . أما عبيد الله حقاً فيقال لهم: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي﴾**[3].

جهنم تنطفىء بنور إيمان الموحدين. وفي الحديث: «تقول النار للمؤمن: جُز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»[4].

وفي المسند عن جابر عن النبي ﷺ: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم. هذا ميراث ورثة المحبين من حال إبراهيم عليه السلام. نار المحبة في قلوب المحبين تخاف منها نار جهنم»[5].

أنـــــواع القلـــــوب:

إن قلوب البشر أنواع منها قلب سليم ومنها قلب لين رقيق ومنها قلب قاسٍ مريض.

---

(١) سورة البقرة، آية [٢٥].
(٢) لطائف المعارف: ٥٦، ٥٧.
(٣) سورة الفجر، الآية [٢٧ ـ ٣٠].
(٤) حديث ضعيف، ضعيف الجامع، رقم (٢٤٧٤).
(٥) حديث ضعيف، ضعيف الجامع، رقمه (٦١٥٦).

القلب السليم:

(. . . هو الطاهر من أدناس المخالفات، فأما المتلطخ بشيء من المكروهات فلا يصلح لمجاورة حضرة القدوس إلا بعد أن يطهر في كير العذاب، فإذا زال عنه الخبث صلح حينئذ للمجاورة)[1].

إن للمعصية ظلمة وكآبة تظهر على القلب فيمرض بها، وإذا تلبَّس القلب وتلطخ بهذه المخالفات أصبح أصم أعمى، لا يسمع صوت الحق فيجيبه ولا يرى طريق الهدى فيتبعه. قال تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾[2].

فإذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإما أن تزداد بتعاقب الذنوب وتتابعها، وإما أن تمحى ويصقل القلب بالتوبة والاستغفار والاستقامة، فيكون عندئذ قلباً أبيض نقياً سليماً من كل نقص وعيب.

والمواعظ تنبه القلب من سكرته وتوقظ النائم من رقدته: (. . . لأن . . . المواعظ سياط تضرب بها القلوب فتؤثر في القلوب كتأثير السياط في البدن)[3]. فعندئذ يستيقظ القلب وينتبه من غفلته، والقلب حال الموعظة يكون يقظاً منتبهاً، ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[4].

فالموعظة يبقى أثرها حتى بعد وقوعها، فإن كانت شديدة بقي أثرها قوياً؛ لأنه (. . . كلما قوي الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر)[5].

فكثرة المواعظ مطلوبة في تنبيه القلب من غفلته وجعله صحيحاً

---

(١) كلمة الإخلاص: ٣٨.

(٢) سورة المطففين، آية [١٤].

(٣) لطائف المعارف: ١٣.

(٤) سورة الرعد، آية [٢٨].

(٥) لطائف المعارف: ١٣.

معافى سليماً.

ومن الأمور الهامة لسلامة القلب وصحته، الحرص على التقوى وخصال الإحسان، (فالواجب على العبد البحث عن خصال التقوى وخصال الإحسان التي شرعها الله في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، والتقرب بذلك إلى الله عز وجل؛ فإنه لا طريق للعبد يوصله إلى رضى مولاه وقربه ورحمته وعفوه ومغفرته سوى ذلك)[1].

وكذلك إذا استحيى العبد من الله حق الحياء، نال معية الله عز وجل وحظي بسلامة القلب واستشعر أن الله معه على كل حال، ولقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: («استحيي من الله كما تستحي من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك»[2])[3].

وفي حديث آخر قال: («أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث ما كنت»[4])[5].

والمواظبة على الأدعية وإدامة الاستغفار تحيي القلب وتوعظه وتجعله سليماً معافىً؛ لأن ذنوبه تحط وتمحى بالدعاء والاستغفار: (... عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت مثل رمل عالج، وإن كانت مثل عدد ورق الشجر»[6])[7].

---

(١) المحجة في سير الدلجة: ٤٥.

(٢) الحديث ضعيف رقمه ٨٠٤.

(٣) كشف الكربة في حال أهل الغربة: ٣٦.

(٤) الحديث ضعيف رقمه (١٠٠٢).

(٥) كشف الكربة: ٣٦.

(٦) الحديث ضعيف رقمه (٥٧٣٨).

(٧) تفسير سورة النصر، ابن رجب ١٠٤.

ومن غُفرت ذنوبه ومحيت خطاياه امتلأ قلبه أمناً وطمأنينة وإيماناً وتقى، وأصبح سليماً من كل ذنب ومعصية.

كما أن أداء الفرائض والمحافظة عليها يكفر الذنوب ويمحو الخطايا، ومتى ما كفرت الذنوب ومحيت الخطايا أصبح القلب سليماً معافى: (... في صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ولم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله»[1])[2].

كما أن: (... خلو البطن من الطعام والشراب ينور القلب ويوجب رقته ويزيل قسوته ويخليه للذكر والفكر)[3].

وهذا مع أداء الفرائض واجتناب النواهي، فإذا تضافرت جميع أركان الإيمان من قول اللسان واعتقاد القلب وعمل الجوارح أصبح القلب بهذا سليماً من الأمراض والانحرافات والقلق والاضطراب وامتلأ إيماناً وتقى.

قلب لين:

متى يكون القلب ليناً؟ يكون القلب ليناً إذا زالت قساوته، وزوال القساوة يكون بالخشوع والخضوع لله والرقة عند سماع كلام الله عز وجل بتدبر وتأمل، ولقد قبّح الله: (... من لا يخشع قلبه لسماع كتاب الله وتدبره. قال تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما**

---

(١) الحديث في صحيح مسلم، رقمه ٥٦٨٦.

(٢) الخشوع في الصلاة: ٣٥.

(٣) لطائف المعارف: ١٦٣.

نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب . . . ﴾[1])[2] .

ومتى استكان القلب لله وانكسر له وخشع وتواضع جبر الله عز وجل عبده ورفع قدره ومكانته؛ لأن من صفات المؤمن استكانة القلب لربه وخشوعه له وتواضعه وإظهار المسكنة والفاقة في حال الشدة، وفي حال الرخاء، (. . . أما في حال الرخاء فإظهار الشكر، وأما في حال الشدة فإظهار الذل والعبودية والفاقة والحاجة إلى كشف الضر)[3]، لأن المؤمن لا ينفك إما أن يكون في نعمة أو تنزل به بلية فهو بحاجة إلى مواجهة النعمة بالشكر ومواجهة البلاء بالصبر، والشكر والصبر هما جناحا الإيمان، فلا إيمان بدونهما، وبحصولهما يطمئن القلب وتسكن النفس ويحيا الإنسان سعيداً، ويصبح العبد محباً للإيمان كارهاً للكفر والفسوق والعصيان ويكون في زمرة الراشدين، وهذا من إرادة الله لعبده الخير، أما إن أراد به الشر فإنه يخليه لنفسه فيتبع الشيطان فيهلك مع الهالكين (فيحبب إليه الكفر والفسوق والعصيان فيكون من النادمين)[4] .

ومما يعين على لين القلب وخشوعه واستكانته حب المساكين فـ(. . . أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه، وفي المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «إن أحببت أن يلين قلبك فأطعم المساكين وامسح رأس اليتيم»[5])[6] .

كما أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة: (. . . منها: أنها توجب

---

(١) سورة الحديد، آية [١٦].

(٢) الخشوع في الصلاة، ابن رجب ص ٢٨ .

(٣) اختيار الأولى: ١١٤، ١١٥ .

(٤) لطائف المعارف: ١٥٤ .

(٥) الحديث حسن في الجامع الصحيح رقمه ١٤١٠ .

(٦) اختيار الأولى: ١٠٤ .

إخلاص العمل لله عز وجل، لأن الإحسان إليهم لا يكون إلا لله عز وجل، لأن نفعهم لا يرجى في الغالب. . . ومنها: أنها تزيل الكبر فإن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين. . .)[1].

وما ذكره ابن رجب هنا له علاقة بالتربية الاجتماعية والتربية العاطفية وإيراد هذين النصين هنا وفي الجانب الإيماني للتربية يدل على التكامل والشمول في التربية التي ينادي بها ابن رجب والتي قد نهل منها وتروى من معينها، ألا وهي التربية الإسلامية المستمدة من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

ومعلوم أن الكبر مرض خطير من أمراض القلوب، وقد قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. . .»[2].

والإنسان المتكبر يحرم (. . . بسبب الكبر خيراً كثيراً جداً، فإن مجالس الذكر والعلم يقع فيها كثيراً مجالسة المساكين، فإنهم أكثر هذه المجالس فيمتنع المتكبر من هذه المجالس بتكبره)[3].

وما يحصل في مجالس الذكر والعلم يكون سبباً في لين القلب ورقته، والمتكبر قد حرم نفسه من ذلك.

كما أن (. . . مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل، وتعظم عنده نعمة الله عز وجل عليه بنظره في الدنيا إلى من دونه، ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق. . .)[4].

---

(١) المرجع السابق: ١١٢.
(٢) الحديث صحيح الجامع، رقمه (٧٦٧٤).
(٣) اختيار الأولى: ١٠٣.
(٤) المرجع السابق: ١٠٥.

ومتى ما تمكن الرضى من القلب وزال التسخط عنه رق ولان وخشع واطمأن.

وفي مجالسة المساكين فوائد جمة وحكماً عظيمة سنتناول شيئاً منها بإذن الله تعالى في النمو الاجتماعي الذي يعتبر جانباً هاماً من جوانب التربية الإسلامية، وبجميع هذه الجوانب تتكامل شخصية الإنسان الصالح ظاهراً وباطناً ويصبح حينئذ مهيئاً (... لمناجاة الملك في الخلوات، لأنه لا يصلح لمناجاة الملك، إلا من زين ظاهره وباطنه وطهرهما خصوصاً لملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى، وهو لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فمن وقف بين يديه فليتزين له ظاهره باللباس، وباطنه بلباس التقوى)[1].

(... قال ابن عمر رضي الله عنهما: الله أحق أن يتزين له، وروي مرفوعاً: ولا يكمل التزين الظاهر إلا بتزيين الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى وتطهيره من أدناس الذنوب وأوضارها، فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغن شيئاً)[2].

فالتوبة والإنابة والتطهير من الذنوب من أهم ما هو مطلوب في لين القلب وسلامته وتزكيته.

يقول ابن رجب رحمه الله في قول الله تعالى: ﴿... **ويزكيهم**﴾ يعني أنه يزكي قلوبهم ويطهرها من أدناس الشرك والفجور والضلال؛ فإن النفوس تزكو إذا طهرت من ذلك كله، ومن زكت نفسه فقد أفلح كما قال تعالى: ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾[3]. وقال:

---

(١) لطائف المعارف: ٢٠٢.

(٢) المرجع السابق: ٢٠٢.

(٣) سورة الشمس، آية [٩].

﴿قد أفلح من تزكى﴾[1])[2].

قلـــــب مريـــــض:

بعد أن عرفنا القلب السليم نريد معرفة القلب المريض وأسباب مرضه حتى يتسنى لمن أراد لقلبه السلامة تجنب هذه الأسباب التي تمرض القلب وقد تهلكه وتميته.

ومن أسباب أمراض القلوب: الذنوب والمعاصي (... فإنها مشؤومة، عواقبها ذميمة، وعقوبتها أليمة، والقلوب المحبة لها سقيمة، السلامة منها غنيمة، والعافية منها ليست لها قيمة، والبلية بها لا سيما بعد نزول الشيب داهية عظيمة)[2].

ولقد حذر سلفنا من هذه الذنوب والمعاصي، فهذا ابن رجب العالم الرباني يقول: (... الحذر الحذر من المعاصي فكم سلبت من نعم، وكم جلبت من نقم، وكم خربت من ديار، وكم أخلت دياراً من أهلها فما بقي منها ديّار. كم أخذت من العصاة بالثار كم محت لهم من آثار)[3].

فخطرها ليس على القلوب فقط بل هي شؤم على الأفراد والمجتمع، فما وقع بلاء إلا بذنب، قال بعض الصالحين: (... وقد شكى بلاء وقع في الناس فقال: ما أرى ما أنتم فيه إلا بشؤم الذنوب)[4].

وإذا كانت الذنوب والمعاصي هي شؤم وسبب لأمراض القلوب فإن

---

(١) سورة الأعلى، آية [١٤].
(٢) لطائف المعارف: ٨٥.
(٣) المرجع السابق: ٧٨.
(٤) المرجع السابق: ١٥٤.

طاعة الله وتقواه هي يمن وصحة للقلوب والأبدان: (... فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله واليمن هو طاعة الله وتقواه)[1].

والمعاصي تكسو صاحبها الذل والحقار والصغار حتى لو كانت له في الدنيا منزلة رفيعة ومكانة عظيمة: (... قال الحسن رحمه الله فيهم[2]، إنهم وإن طقطقت بهم البراذين فإن ذل المعصية في رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه)[3].

والإيمان يزيد بالطاعة كما أنه ينقص بالمعصية، فإذا منع العبد الواجبات وتعاطى المحرمات، فإنه تعرض لمرض القلب ونقص الدين والإيمان، يقول ابن رجب: (... فإن منع الواجبات وتناول المحرمات ينقص بهما الدين والإيمان بلا ريب حتى لا يبقى منه إلا القليل)[4].

وقد يقترف الإنسان ذنباً يحتقره ويستهين به فيكون هذا الذنب سبب هلاكه كما قال تعالى: ﴿**وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم**﴾[5])[6].

فالذنوب تبعد العبد عن ربه (... فإنه لا يصلح للوقوف بين يدي الله عز وجل والخلوة بمناجاته إلا طاهراً، أما الملوث بالأوساخ الظاهرة والباطنة فلا يصلح للقرب)[7]، فالقلوب أساساً طاهرة ما اتسخت إلا بالذنوب وما مرضت إلا بها: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم**

---

(١) المرجع السابق: ٧٧.

(٢) الذين يزاحمون الله في ربوبيته وإلاهيته مع حقارتهم.

(٣) ما ذئبان جائعان: ٢٩.

(٤) المرجع السابق: ٢٠.

(٥) سورة النور، آية [١٥].

(٦) المحجة في سير الدلجة: ٩٠.

(٧) اختيار الأولى: ٦٤.

ما كانوا يكسبون﴾[1] .

(. . . يا قوم قلوبكم على أصل الطهارة، وإنما أصابها رشاش من نجاسة الذنوب)[2] .

وهذه القلوب المتسخة لا تطهرها إلا التوبة ودموع الندم (. . . فرشوا عليها قليلاً من دموع العيون)[3] .

والأمراض تذهب الخطايا وتمحو الذنوب إذا لازمها الصبر والاحتساب (. . . في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ : «الحمى تُذهب الخطايا كما يذهب الكير الخبث»[4])[5] .

أدوية القلوب:

إذا كانت الأبدان تمرض وتحتاج إلى الدواء لتعود لها الصحة والسلامة، فإن القلوب تمرض، وقد يزداد مرضها فتموت هذه القلوب . ومرض القلوب أخطر من مرض الأبدان، وأخطر الأمراض التي تنتابها ما يأتيها عن طريق المعاصي والذنوب التي تغطي القلب وتغلفه، قال تعالى : **﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**[6] .

والدواء الناجع لأمراض القلوب هو كلام الله عز وجل، قال تعالى : **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . . . ﴾**[7] .

---

(١) سورة المطففين، آية ١٤ .

(٢) كلمة الإخلاص : ٤٨ .

(٣) المرجع السابق : ٤٨ .

(٤) الحديث رواه مسلم، صحيح الجامع رقمه ٧٣٢١ .

(٥) كلمة الإخلاص : ٤٧ .

(٦) سورة المطففين، آية [١٤] .

(٧) سورة الإسراء، آية [٨٢] .

وكذلك من الأدوية عدم الشبع الذي يدعو إلى الأشر والبطر، فخلو المعدة يجعل القلب ليناً، ويشعر برقة ولين، وكذلك قيام الليل دواء وأي دواء للقلوب، فالتضرع في السحر واللجوء لله في الخلوة ودعوته بإخلاص وتوجه يعالج داء القلوب وأمراضها، ومما يعين على معالجة القلوب مجالسة الصالحين لأنهم يذكرون الآخرين بالله ويبينون لهم حاجتهم إلى مولاهم ويحثونهم على ذكر الله وشكره: (. . . قال إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى: دواء القلوب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء الباطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين. . .)[1].

والذكر قوت القلوب وطعامها يغنيها عن الطعام والشراب ويقويها على أداء رسالتها من طاعة الله وشكره والتوجه إليه، وهذه الحالة لا يشعر بها إلا من كان في أعلى درجات المعرفة بالله عز وجل، ولقد كان رسول الله ﷺ يواصل الصيام ويقول لأصحابه رضي الله عنهم عندما استرخصوه في الوصال: «إني لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[2].

وكما ذكرنا، فمجالس الذكر أماكن لمعالجة القلوب من أمراضها، ولقد كان السلف يحرصون على حضور هذه المجالس ويحثون على ارتيادها.

فهذا ابن رجب رحمه الله يقول: (. . . يا من ضاع قلبه أنشده في مجالس الذكر عسى أن تجده، يا من مرض قلبه احمله إلى مجالس الذكر

---

(١) الخشوع في الصلاة: ٥٨، ٥٩.

(٢) حديث صحيح، صحيح الجامع رقمه (٧٤٧٧).

لعله أن يعافى)[1].

ويرون أن مجالس الذكر مصحات للقلوب والأرواح. يقول ابن رجب: (... مجالس الذكر مارستان الذنوب، تداوى فيها أمراض القلوب كما تداوى أمراض الأبدان في مارستان)[2].

ويعلل رحمه الله كيفية علاج هذه القلوب في هذه المصحات فيقول: (... الذكر نزهة لقلوب المؤمنين ينزه فيها بسماع كلام الحكمة كما تنزه أبصار أهل الدنيا في رياضها وبساتينها)[3].

فالقلب متى غفل عن ذكر الله يمرض ثم يموت، وإذا مرض أو مات عاش صاحبه حياة البهائم والحيوانات، **﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾**[4]. **﴿يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾**[5].

يقول ابن رجب: (... إنما تحيا القلوب بذكر الله عز وجل)[6]. (... والأذكار المشروعة تدفع البلاء، وفي حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من قال حين يصبح ويمسي بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم لم يصبه بلاء»[7])[8].

---

(١) لطائف المعارف: ٧٨.
(٢) المرجع السابق: ٧٨.
(٣) المرجع السابق: ٧٨.
(٤) سورة الفرقان، آية [٢٥].
(٥) سورة محمد، آية [١٢].
(٦) لطائف المعارف: ٨.
(٧) حديث صحيح، رقمه (٦٤٢٦).
(٨) لطائف المعارف: ٧٦.

ومن أجل هذا كانت فائدةالذكر طرفي النهار متحققة بإذن الله عز وجل، ولقد ورد الحث على: (... الذكر في طرفي النهار في مواضع كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾**[1])[2].

والناس في منظور الإسلام أصناف شتى، فمنهم أهل الذكر ومنهم أهل الطاعة ومنهم من هو واقع في المعاصي، فالله سبحانه وتعالى صاحب الفضل والطول والرحمة الواسعة، يعطي كل صنف من هؤلاء ما هو محتاج إليه من فضله ومنه ورحمته، جاء: (... في بعض الآثار يقول الله تعالى: «أهل ذكري أهل مجالستي وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب»)[3].

صون الجوارح عن المحرمات:

الله عز وجل أعطى الإنسان هذه الحواس لا ليستعملها في الذنوب والمعاصي، بل لتكون له عوناً على الطاعة، لذلك فإن (... من ملك سمعه وبصره ولسانه غفر له)[4].

وهذا من تمام فضل الله وكرمه ورحمته بهذا الإنسان، والنظر سهم مسموم من سهام إبليس، فغضه عن المحرم يورث حلاوة دائمة وقرة عين لا تنقطع، ومما يعين على غض البصر علم العبد أن الله مطلع عليه لا يخفى عليه شيء من أمره (... سئل الجنيد: بم يستعان على غض

---

(١) سورة الأحزاب، الآية [٤١، ٤٢].

(٢) المحجة في سير الدلجة: ٦٠.

(٣) كلمة الإخلاص: ٤٦.

(٤) لطائف المعارف: ٢٩٧.

البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إليه)[1].

فالقلب إذا علم بقرب الله منه فإنه يخافه ويخشاه (. . . قال المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب)[2] لذا فـ (. . . كلما قويت المعرفة بالله قوي الحياء من قربه ونظره)[3].

ومن الواجب على المؤمن أن يستحي من الله حق الحياء فقد أوصى (. . . النبي ﷺ رجلاً أن يستحي من الله كما يستحي من رجل صالح من عشيرته لا يفارقه[4])[5] بل أشد وأقوى ولله المثل الأعلى، فهو القريب من عباده، يرى فعالهم وقادر على إهلاكهم: (. . قال بعضهم: استح من الله على قدر قربه منك، وخف الله على قدر قدرته عليك)[6].

فمن راقب الله في مدخله ومخرجه وسره وعلانيته وتأكد من نظره إليه وعلمه به أورثه هذا دخول الجنة والنظر إلى وجهه الكريم وكان واثقاً من عفو ربه له وإحسانه إليه وبره وجزائه إليه: (. . . قيل لبعضهم أين نطلبك في الآخرة؟ قال: في زمرة الناظرين إلى الله. قيل له: كيف علمت ذلك؟ قال: بغض طرفي له عن كل محرم واجتنابي فيه كل منكر ومأثم وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه)[7] فالمؤمن الحريص على السعادة الساعي إليها يغض بصره لله ويرفع سمعه عن كل محرم، ولا

---

(١) كلمة الإخلاص: ٥٠.
(٢) المرجع السابق: ٥٠.
(٣) المرجع السابق: ٥٠.
(٤) الحديث في صحيح الجامع، رقمه (٩٧١).
(٥) كلمة الإخلاص: ٥٠.
(٦) المرجع السابق: ٥٠.
(٧) لطائف المعارف: ١٦٩.

يتكلم إلا بما يحبه الله عز وجل.

ولقد أخذ الله عز وجل العهد والميثاق على بني آدم وهم في عالم الذر بأنه ربهم ومعبودهم وهم عبيده المطيعون. قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى...**﴾[1].

وهذا هو ميثاق الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، فصون الجوارح عن المحرمات والتوجه بها إلى الطاعات يحقق هذا وجعل العبد موف بالعهد، فيا عبد الله (... إذا دعتك نفسك إلى نقض عهد مولاك فقل لها معاذ الله: ﴿**إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون**﴾[2])[3].

فبالطاعات يكتمل صرح الإيمان ويشتد بناؤه، أما المعاصي فهي معاول هدم وأدوات تخريب لهذا البناء، فينبغي حفظ الجوارح من ارتكابها وصونها عن غشيانها، وإنه لقبيح (... بمن كمل القيام بمباني الإسلام الخمس أن يشرع في نقض ما يبنى بالمعاصي)[4].

وإذا كان الوقت من أعظم نعم الله على الإنسان فحري بالمؤمن أن يشغله بطاعة الله حتى لا يغبن في هذه النعمة. قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[5]، (فالزمن كله خلق الله عز وجل وفيه تقع أفعال بني آدم فكل زمان شغله المؤمن بطاعة الله فهو زمان مبارك

---

(١) سورة الأعراف، آية [١٧٢].

(٢) سورة يوسف، آية [٢٣].

(٣) لطائف المعارف: ٦٢.

(٤) المرجع السابق: ٦٢.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الرقاق.

عليه، وكل زمان شغله العبد بمعصية الله فهو شؤم عليه)[1]، فالمؤمن تركه وأخذه، وغضبه ورضاه، وحبه وبغضه كل ذلك لله وفي الله. فهو يعلم علم اليقين أن الله مطلع على فعله لا يخفى عليه شيء من أمره، فمن ترك شهوته لله حباً له وطلباً في مرضاته (... في موضع لا يطلع عليه إلا الله كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان...)[2].

وإذا كان طلب العلم والسعي في تحصيله من أفضل القرب والطاعات فينبغي للمؤمن أن يوجه حواسه من السمع والبصر والفؤاد لكسب العلم والسعي في تحصيله، ولقد كان لعلمائنا النصيب الأوفى من كسب العلم ونشره بالتأليف والكتابة أو التعليم بالمشافهة.

فهذا ابن رجب ألف كتابه القيم لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، وأوضح غايته من تأليف هذا الكتاب بقوله: (... ليكون عوناً لنفسي ولإخواني على التزود للمعاد والتأهب للموت قبل قدومه والاستعداد، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد)[3].

فهو بهذا قد استعمل حواسه وجوارحه في طاعة الله بالعلم والتعليم وصانها عما حرم الله عليه؛ لأنه هو وسلف الأمة رحمهم الله يعلمون علم اليقين أنهم في هذه الحياة الدنيا مسافرون وعلى طريق الآخرة سائرون، فهم يأخذون من جميع المواقف التي يمرون بها أو يشاهدونها أو يسمعون بها الدروس والعبر والعظات، فنستمع إليه وهو يقول: (... قدوم الحاج يذكر بالقدوم على الله تعالى)[4].

---

(١) لطائف المعارف: ٧٦.

(٢) المرجع السابق: ١٦١.

(٣) المرجع السابق: مقدمة الكتاب.

(٤) المرجع السابق: ٦٦.

ثم ذكر رحمه الله قصة حاج قدم من الحج وأثار مقدمه تذكر امرأة صالحة فقال ابن رجب: (. . . قدم مسافر فيما مضى على أهله فسروا به، وهناك امرأة من الصالحات تبكي وقالت: ذكرني هذا بقدومه القدوم على الله عز وجل فمن مسرور ومثبور، قال بعض الملوك لأبي حازم كيف القدوم على الله تعالى؟ فقال أبو حازم: أما قدوم الطائع لله تعالى فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما قدوم العاصي فكقدوم العبد الآبق على سيده الغضبان)[1].

خشوع القلب والجوارح:

ما هو الخشوع؟ الخشوع لغة الخضوع. . وخشع ببصره أي غضه[2].

(. . . وأصل الخشوع هو لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء، لأنها تابعة له)[3].

فهناك ارتباط وثيق بين صلاح القلب وخشوعه ورقته وبين ما يصدر من الجوارح من أعمال وما يجري على اللسان من الكلام: (. . . كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[4])[5].

وصلاح القلب وخشوعه من أسباب قناعة النفس ورضاها: (. . . فمتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من

---

(١) لطائف المعارف: ٦٦.

(٢) مختار الصحاح، الرازي، مادة: «خشع».

(٣) الخشوع في الصلاة: ١٧.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في باب الإيمان (٣٩)، ومسلم في المساقاة (١٠٧).

(٥) الخشوع في الصلاة: ١٧.

الدنيا وشبعت به، فأوجبت لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا)[1].

والزهد في الدنيا يعالج كثيراً من أمراض النفس وأمراض المجتمع، فما حصل في هذه الدنيا من تقاطع وتباغض وتهاجر بين الناس إلا من أجل الدنيا وحطامها، فمن زهد فيها فقد أراح نفسه ومجتمعه. وبخشوع القلب (... تسكن الخواطر والإرادات التي تنشأ من اتباع الهوى وينكسر وينخضع لله فيزول بذلك ما كان فيه من التعاظم والترفع والتكبر، ومتى ما سكن ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها حتى الصوت)[2].

وهذا له علاقة بالتربية العاطفية والتربية الاجتماعية والتربية الأخلاقية. وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن فكر ابن رجب التربوي يأخذ بجانب الترابط الشمولي في تكوين الشخصية المسلمة. فإن من خشع قلبه فقد استطاع أن يغض بصره ويخفض صوته ويلين جانبه لإخوانه المسلمين.

ومن الأمور التي تورث خشوع القلب أداء الصلاة على وجهها فإن (... تمام الخضوع في الركوع)[3] بشرط (... أن يخضع القلب لله ويذل له)[4]، وبذلك يتم (... خضوع العبد بباطنه وظاهره لله عز وجل)[5]، وهذا هو حال المؤمن طاهر الظاهر والباطن واضح السر والعلانية بعكس المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن. وبالركوع ينال العبد

---

(١) فضل علم السلف: ٦٥.

(٢) الخشوع في الصلاة: ١٩.

(٣) المرجع السابق: ٤١.

(٤) المرجع السابق: ٤١.

(٥) المرجع السابق: ٤١.

خشوع القلب وخشوع الجوارح، من دعاء النبي ﷺ في ركوعه «خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظمي وما استقل به قدمي»[1] إشارة أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه)[2]، ومصدر الخشوع هو القلب وإذا خشع القلب خشعت الجوارح، أما إذا خشعت الجوارح دون خشوع القلب وهذا كما يقول ابن رجب رحمه الله: (ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه كان ذلك خشوع نفاق. وهو الذي كان السلف يستعيذون منه)[3].

وبين الخشوع ومعرفة العبد ربه تلازم وتآزر، فـ(أصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو معرفة الله ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع)[4].

(ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع)[5]، فالله سبحانه هو العزيز القوي الجبار المتكبر المنتقم القهار، (فمتى عرفت القلوب هذا ذلت وانكسرت ورقت ولانت، وهذا لا يكون إلا بمداومة ملاحظة هذه القلوب فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها الذكر وتلاوة القرآن، فالذكر وتلاوة القرآن تعين على معرفة الله وحبه وشكره وذكره والخوف منه والرغبة فيما عنده).

---

(١) الحديث في صحيح مسلم.

(٢) الخشوع في الصلاة: ٤١.

(٣) المرجع السابق: ١٩.

(٤) المرجع السابق: ٢٠.

(٥) المرجع السابق: ٢٠.

(٦) المرجع السابق: ٢١.

التوكل والأخذ بالأسباب:

إن من تمام الإيمان بالله التوكل على الله والاعتماد عليه، والتوكل في اللغة: إظهار العجز والاعتماد على غيرك[1]، و (... التوكل علم وعمل، والعلم معرفة القلب بتوحيد الله بالنفع والضر وعامة المؤمنين تعلم ذلك، والعمل هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه، وهذا عزيز وهو يختص به خواص المؤمنين)[2].

وهذا هو مفهوم التوكل عند السلف رحمهم الله، وعندهم (... أن التوكل أعظم الأسباب التي تستجلب بها المنافع وتدفع بها المضار كما قال الفضيل: لو علم الله إخراج المخلوقين من قلبك لأعطاك كل ما تريد. وبذلك فسر الإمام أحمد التوكل فقال: هو قطع الاستشراق باليأس من المخلوقين، قيل له: فما الحجة فيه؟ قال: قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ألقي في النار فعرض له جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا...)[3].

والمؤمن يدعو الله على الدوام فيقول: (... اللهم لا تكلني إلى نفسي ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ولا أدنى من ذلك)[4]، فهو دوماً يعتمد على الله ويتوكل عليه ويأخذ بالأسباب، لأن الأخذ بها لا يتنافى مع التوكل على الله، فالرسول عليه والصلاة والسلام الذي عصمه الله من الناس وأمره بالصدع بالدعوة كما قال تعالى: ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**والله**

---

(١) مختار الصحاح، الرازي، مادة: «وكل».

(٢) لطائف المعارف: ٧٠.

(٣) لطائف المعارف: ٦٩.

(٤) الحديث رواه البخاري بلفظ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا تنزع مني صالح ما أعطيتني».

(٥) سورة الحجر، الآية [٩٤، ٩٥].

يعصمك من الناس﴾[1].

كان يأخذ بالأسباب مع توكله واعتماده على الله ففي هجرته عليه الصلاة والسلام جعل علياً على فراشه واختار الرفيق وجهَّز الراحلة والزاد والدليل في الطريق ومن يتتبع له الأخبار، وكل ذلك من الوسائل والأسباب وهو من قبل ومن بعد متوكل على الله عز وجل، لكن مع الأخذ بالأسباب لا ينبغي الركون إليها والاكتفاء بها عن معية الله ونصره.

(. . . والأسباب نوعان: أحدهما أسباب الخير، فالمشروع أنه يفرح بها ويستبشر ولا يسكن إليها، بل إلى خالقها ومسببها، وذلك تحقيق التوكل على الله والإيمان به كما قال تعالى في الإمداد بالملائكة: **﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله﴾**[2]. .

وأكثر الناس يركن بقلبه إلى الأسباب وينسى المسبب لها وكل من فعل ذلك وكل إليه وخذل، فإن جميع النعم من الله وفضله كما قال تعالى: **﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾**[3] **﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾**[4]. ولا تضاف النعم إلى الأسباب بل إلى مسببها ومقدرها . . .

والنوع الثاني: أسباب شر فلا تضاف إلا إلى الذنوب؛ لأن جميع المصائب إنما هي بسبب الذنوب كما قال تعالى: **﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾**[5]، وقال تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾**[6]، فلا تضاف إلى شيء من الأسباب

---

(١) سورة المائدة، الآية [٦٧].
(٢) سورة الأنفال، الآية [١٠].
(٣) سورة النساء، الآية [٧٩].
(٤) سورة النحل، الآية [٥٣].
(٥) سورة النساء، الآية [٧٩].
(٦) سورة الشورى، الآية [٤٢].

سوى الذنوب كالعدوى أو غيرها)[1].

والعبد المؤمن راض بقضاء الله وقدره في العسر واليسر والخير والشر والمنشط والمكره، فالله سبحانه (خلق كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها، فأخبر أن ذلك كله بقضائه وقدره كما دل عليه قوله تعالى: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾**[2])[3].

ولكن المؤمن (. . . مأمور باتقاء أسباب البلاء إذا كان في عافية منها، كما أنه يؤمر ألا يلقي نفسه في الماء أو النار أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت العادة أنه يهلك أو يؤذي، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم أو القدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره.

وقد روي في حديث مرسل خرجه أبو داود في مراسيله أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بحائط مائل فأسرع وقال: أخاف موت الفوات، وهذه الأسباب التي جعلها الله أسباباً يخلق المسببات بها كما دل عليه قوله تعالى: **﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾**[4])[5].

---

(١) لطائف المعارف: ٧٠، ٧١.

(٢) سورة الحديد، الآية [٢٢].

(٣) لطائف المعارف: ٦٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية [٥٧].

(٥) لطائف المعارف: ٦٨، ٦٩.

والمؤمنون يعتقدون بأن الله وحده (. . . هو الفاعل لما يشاء ولكنه يعقد أسباباً للعذاب وأسباباً للرحمة، فأسباب العذاب يخوف الله بها عباده ليتوبوا إليه ويتضرعوا إليه مثل كسوف الشمس والقمر فإنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده لينظر من يحدث له توبة، فدل على أن كسوفهما سبب يخشى منه وقوع عذاب، وقد أمرت عائشة رضي الله عنها أن تستعيذ من شر القمر، وقال هو الغاسق إذا وقب.

وقد أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر غاسق إذا وقب وهو الليل إذا أظلم، فإنه ينتشر فيه شياطين الجن والإنس)[1].

وهكذا حال المؤمن بين الخوف والرجاء، الخوف من غضب الله وعقابه ورجاء رحمته ومغفرته، فعندما يخاف العبد من الله فإنه يتوب إليه ويستغفره حتى ولو لم يقترف ذنباً ظاهراً، فهذا النبي ﷺ يوجهنا بقوله وفعله، فيقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»[2]. وهو من هو؟ هو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. بأبي هو وأمي ﷺ.

ما يمحو الذنوب ويطهر القلوب:

إن أداء الفرائض أمر يحبه الله ويرضاه ويقرب فاعله ويعظم له المثوبة، (. . . فما تقرب العباد بأحب إليه من أداء ما افترض عليهم)[3].

---

(١) لطائف المعارف: ٧٢، ٧٣.
(٢) الحديث، صحيح الجامع، رقمه (٧٠٩١).
(٣) لطائف المعارف: ٢٦٥.

ولزوم الإيمان والمداومة عليه وذكر الله من أفضل الأعمال التي تمحو الذنوب وتقرب إلى الله عز وجل: (.. قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه: رجل أعتق مائة نسمة، قال: إن مائة نسمة من مال رجل كثير، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بالليل والنهار وأن لا يزال لسان أحدكم رطباً من ذكر الله عز وجل)[1].

والمراد بالإيمان الملزوم بالليل والنهار هو المداومة على الطاعة والبعد عن المعصية؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ونعم الله على العبد كثيرة ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[2]، وأعظم نعمة هي نعمة الهداية والإيمان والتوفيق و (... لا تتم نعمة الله على عبد إلا بتكفير سيئاته)[3] وعفوه عن عبده ومغفرته له و(المغفرة هي وقاية شر الذنوب لا مجرد الستر، والفرق بين العفو والمغفرة أن العفو محو أثر الذنب وقد يكون بعد عقوبة عليه بخلاف المغفرة لا تكون مع العقوبة)[4].

وابن رجب يزيد هذا المعنى وضوحاً بقوله: (... المغفرة والرحمة يجمعان خير الآخرة كله؛ لأن المغفرة ستر الذنب مع وقاية شره، وقد قيل: إنه لا تجتمع المغفرة مع عقوبة الذنب؛ حيث كانت المغفرة وقاية لشر الذنب، وهذا لا يكون مع عقوبة عليه، ولذلك سمى المغفر مِغْفَراً لأنه يستر الرأس ويقيه الأذى، وهذا بخلاف العفو؛ فإنه يكون تارة قبل

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٤.

(٢) سورة النحل، الآية [١٨].

(٣) اختيار الأولى: ٤٦.

(٤) تفسير سورة النصر: ٧٣.

العقوبة وتارة بعدها)[1].

والكيس من دان نفسه أي حاسبها وكان حذراً من المعاصي: (. . . فإنها تحرم المغفرة)[2]، حتى لو كانت (. . . في مواسم الرحمة)[3] فـ (. . . المعاصي سبب البعد والطرد، كما أن الطاعات أسباب القرب والود)[4]. فالذنوب (. . . حالقة الدين ليست حالقة الشعر)[5].

والمذنب لا ييأس من رحمة الله، فعليه أن يتوب فسرعان ما يجد باب التوبة مفتوحاً فيلج منه إلى عفوه ورحمته.

يقول ابن رجب (من كان قد بعد عن حرم الله فلا يبعد نفسه بالذنوب عن رحمة الله، فإن رحمة الله قريب ممن تاب إليه واستغفره)[6].

و(. . . اعتراف المذنب بذنبه مع الندم عليه توبة مقبولة، قال الله عز وجل: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم**﴾ قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»[8])[9].

---

(١) اختيار الأولى: ١١٧.

(٢) لطائف المعارف: ٢٨٣.

(٣) المرجع السابق: ٢٨٣.

(٤) المرجع السابق: ٢٨٣.

(٥) المرجع السابق: ٢٦٦.

(٦) المرجع السابق: ٢٦٧.

(٧) سورة التوبة، الآية [١٠٢].

(٨) الحديث صحيح، رواه البخاري ومسلم.

(٩) لطائف المعارف: ٥٤.

وإذا كان الجهاد أفضل الأعمال الصالحة التي يمحو الله بها الخطايا، فإن الذكر الكثير الذي يداوم عليه العبد في منزلة الجهاد.

يقول ابن رجب (... إنما جعل الذي يعدل الجهاد الذكر الكثير المستدام في بقية عمر المؤمن من غير قطع له حتى يأتي صاحب أجله، فإذا استمر على هذا الذكر في أوقاته إلى أن مات عليه عدل ذكره هذا الجهاد)[1]، و(... أفضل الأعمال بعد الجهاد في سبيل الله جنس عمارة المساجد بذكر الله وطاعته فيدخل في ذلك الصلاة والذكر والتلاوة والاعتكاف وتعليم العلم النافع واستماعه)[2]. (... وأفضل من ذلك عمارة أفضل المساجد وأشرفها وهو المسجد الحرام بالزيارة والطواف)[3].

وإذا كانت مجالس الذكر تحيي القلوب وتشرح الصدور وتنور العقول، فإن من يحضرها ثلاثة أقسام: (... قسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيستقلون بها فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه في مجالس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وهذا هو الذي شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ خشوه لكمال معرفتهم وشدة خوفهم أن يكون نفاقاً، فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق... وقسم آخر يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازماً لهم وهؤلاء على قسمين:

أحدهما: يشغله ذلك عن مصالح دنياه المباحة فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ولا القيام بوفاء حقوقهم، وكان كثير من السلف

---

(١) لطائف المعارف: ٢٦٤.
(٢) المرجع السابق: ٢٤٣.
(٣) المرجع السابق: ٢٤٣.

على هذه الحال، فمنهم من كان لا يضحك أبداً، ومنهم من كان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

الثاني: يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه مع اكتساب الحلال والقيام على العيال ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة في نفسه كتعلم العلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء أشرف القسمين، وهم خلفاء الرسل، وهم الذين قال فيهم علي رضي الله عنه: صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، وقد كان حال النبي ﷺ عند الذكر تتغير ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم، فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله بقلوبهم وعاشروا الخلق بأبدانهم)[1].

إن الانقطاع للعبادة والذكر أمر لا يقره الإسلام لأنه لا رهبانية فيه، (ولقد أنكر النبي ﷺ على من عزم التبتل والاختصاء وقيام الليل وصيام النهار وقراءة القرآن كل ليلة)[2]، فالإسلام قد وضع للبدن حقاً وللأهل والولد حقاً وللزائرين من الناس حقاً، فالمسلم المعتدل هو الذي يعطي حق الله من الطاعة والعبادة ويوفي الناس حقوقهم.

كما أن المداومة على الطاعة والعمل الصالح وإن كان قليلاً مع الإصابة والموافقة فيه أمر يحبه الله ويرضاه ويجازي عليه بالثواب الجزيل وحسن المآب (... فأحب الأعمال إلى الله عز وجل شيئان: أحدهما ما داوم عليه صاحبه وإن كان قليلاً، والثاني: ... ما كان على وجه السداد

---

(١) لطائف المعارف: ١١، ١٢، ١٣.

(٢) المحجة في سير الدلجة: ٥٠.

والاقتصاد والتيسير دون ما كان على وجه التكليف والاجتهاد والتعسير)[1].

والقضية لا تتعلق بكثرة الأعمال بقدر ما تتعلق بالإخلاص وتوجه القلب إلى الله والتعرف عليه حق المعرفة فـ(... ليست الفضائل بكثرة الأعمال البدنية، لكن بكونها خالصة لله عز وجل، صواباً على متابعة السنة، وبكثرة معارف القلوب وأعمالها، فمن كان بالله أعلم وبدينه وأحكامه وشرائعه، وله أخوف وأحب وأرجى، فهو أفضل ممن ليس كذلك وإن كان أكثر منه عملاً بالجوارح)[2].

وهذا يوضح أهمية الإخلاص الذي يقتضي البعد عن الرياء والسمعة والعجب بالعمل فقد (... يحبط العمل بآفة من رياء خفي أو عجب به ونحو ذلك ولا يشعر به صاحبه)[3].

والعجب بالعمل أمره خطير فهو يحبط العمل ويضيع الجهد، فعلى المؤمن (... أن يقطع نظره عن عمله بالكلية وأن لا ينظر إلا إلى فضل الله ومنته عليه)[4].

فمن كمال الإيمان قطع النظر إلى العمل ومعرفة أنه لا ينجي الإنسان من سخط الله وغضبه وأليم عقابه ولا يدخله واسع رحمته، بل الذي ينجيه ويسعده هو فضل الله ومنته (.. سئل بعض السلف عن أي الأعمال أفضل؟ قال: رؤية فضل الله)[5].

---

(١) المرجع السابق: ٤٥.
(٢) المرجع السابق: ٥٢.
(٣) المرجع السابق: ٩٦.
(٤) المرجع السابق: ٤٣.
(٥) المرجع السابق: ٤٤.

(. . . قال ابن عيينة كانوا يرون النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة بفضله، واقتسام المنازل بالأعمال)[1].

فالمؤمن يطلب عفو الله ورحمته ويسارع إلى الخيرات ويفعل الصالحات ولا يركن إليها بل يستشعر قول النبي ﷺ: «لن يدخل أحداً عمله الجنة . . .»[2]، وهو يعلم علم اليقين أن الحسنات إنما تضاعف بفضل الله عز وجل وإحسانه حيث جازى بالحسنة عشرة ثم ضاعفها إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، فهذا كله فضل منه، فلو جازى بالحسنة مثلها كالسيئات لم تقو الحسنات على إحباط السيئات، فكان يهلك صاحب العمل لا محالة)[3].

والمؤمن متأكد تماماً من (. . . أن العمل وإن عظم فإنه لا يستقل بنجاة العبد ولا يستحق به على الله دخول الجنة ولا النجاة من النار، وحينئذ فيفلس العبد من عمله وييأس من الاتكال عليه ومن النظر إليه وإن كثر العمل وحسن)[4].

هذا بالنسبة للمؤمن الذي يكثر عمل الصالحات، أما من لم يكن (. . . له كثير عمل وليس له عمل حسن، فإن هذا ينبغي أن يشغله الفكر في التقصير في عمله ويشتغل بالتوبة من تقصيره والاستغفار منه)[5].

هذا هو حال المؤمن من كثرة العمل. لقد اشتغل في طلب القبول ولم

---

(١) المرجع السابق: ٢٧.
(٢) الحديث صحيح الجامع، رقمه (٥٢٢٢).
(٣) المحجة: ٣٣.
(٤) المرجع السابق: ٤٠.
(٥) المرجع السابق: ٤٠.

يكن للعجب إلى قلبه طريق، ورأى أن كثرة العمل لا تنجي من عذاب الله، ومن قل عمله اشتغلت نفسه بالتوبة والاستغفار.

(إن العبرة ليست بأعمال البر بالجوارح، وإنما الاعتبار بلين القلوب وتقواها وتطهيرها من الآثام)[1].

ولقد عرف سلفنا الصالح هذا جيداً. قال بعضهم: (... الآخرة إما عفو الله أو النار. والدنيا إما عصمة الله أو الهلكة)[2].

والعبد مطلوب منه أن يعمل ويتقي الله ما استطاع فلا يكلف نفسه فوق طاقتها، لأنه كما قررنا خير العمل ما داوم عليه صاحبه وإن كان قليلاً؛ لأن (... من تكلف الاجتهاد في العبادة فقد تحمله قوة الشباب ما دامت باقية، فإذا ذهب الشباب وجاء المشيب عجز عن حمل ذلك، فإن صابره وجاهد واستمر فربما هلك بدنه وإن قطع فقد فاته أحب شيء إلى الله تعالى وهي المداومة على العمل)[3].

ولقد (... كان النبي ﷺ يتوسط في إعطاء نفسه حقها ويعدل فيها غاية العدل، فيصوم ويفطر، ويقوم وينام، وينكح ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ولحم الدجاج، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر، وقال: عرض علي ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب لكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك، فاختار لنفسه أفضل الأحوال ليجمع بين معاني الشكر والصبر والرضا)[4].

---

(١) لطائف المعارف: ٢٦٦.

(٢) المحجة، في سير الدلجة: ٢٦.

(٣) لطائف المعارف: ١٣١.

(٤) لطائف المعارف: ١٣١.

وقفات للتزود:

ما أكثر ما يقع الإنسان في الخطأ فهو بحاجة إلى أوقات خلوة ومناجاة يتوجه فيها إلى الله بالإنابة والتوبة والاستغفار، وخير الأوقات (آخر الليل للمذنبين يستغفرون من ذنوبهم)[1]، فـ(. . . أوقات السير إلى الله بالطاعات هي آخر الليل وأول النهار وآخره)[2] (. . . فهذه الأوقات الثلاثة منها وقتان هما أول النهار وآخره يجتمع في كل من هذين الوقتين عمل واجب وعمل تطوع. فأما العمل الواجب فهو صلاة الصبح وصلاة العصر، وهما أفضل الصلوات الخمس، وهما البردان اللذان من حافظ عليهما دخل الجنة. . . وأما عمل التطوع فهو ذكر الله بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس وبعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس. . . وأما الوقت الثالث فهو الدلجة. والإدلاج سير آخر الليل والمراد به ها هنا العمل في آخر الليل وهو وقت الاستغفار)[3].

والمؤمن وهو يستغل هذه الأوقات في طاعة الله يتذكر قول المصطفى ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[4]، ويعلم أن الوقت لأهميته من الأمور التي سيسأل عنها العبد يوم القيامة. قال ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع. . .»[5] ومنها «عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه».

---

(١) المحجة في سير الدلجة: ٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٩.

(٣) المرجع السابق: ٦١ ـ ٦٤.

(٤) الحديث في صحيح الجامع، رقمه (٦٧٧٨).

(٥) الحديث في صحيح الجامع، رقمه (٧٣٠٠).

(. . . فالأيام خزائن للناس ممتلئة بما خزنوه فيها من خير وشر، وفي يوم القيامة تفتح الخزائن لأهلها، فالمتقون يجدون في خزائنهم العز والكرامة والمذنبون يجدون في خزائنهم الحسرة والندامة)[1].

فـ(. . . العبد مأمور بالسعي باكتساب الخيرات والاجتهاد في الأعمال الصالحات وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة)[2].

واليوم الذي يطيع العبد فيه ربه فذاك اليوم هو يوم عيد، فإنه لا فرح للمؤمن إلا برضى مولاه (قال الحسن: كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد، كل يوم يقطعه المؤمن في طاعة مولاه وذكره وشكره فهو له عيد)[3].

أما إذا عصى العبد ربه فهو في خسارة ووبال فـ(. . . كل وقت يخليه من طاعة مولاه فقد خسره، وكل ساعة يغفل فيها عن ذكر الله تكون عليه يوم القيامة ترة)[4].

يقول ابن رجب: (. . . فواأسفاه على زمان ضاع في غير طاعته وواحسرتاه على قلب بات في غير خدمته)[5].

والمؤمن دائماً في طاعة حتى يوافيه الأجل ويستقر به القرار في دار المقام، لأن (. . . عمل المؤمن لا ينقضي حتى يأتيه أجله. قال الحسن:

---

(١) لطائف المعارف: ١٦٦.
(٢) المرجع السابق: ٢٠٥.
(٣) المرجع السابق: ٢٨٩.
(٤) المرجع السابق: ٢٣٨.
(٥) المرجع السابق: ٢٣٨.

إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت ثم قرأ: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾[1])[2].

وغاية المؤمن طلب مرضاة الله عز وجل والفوز بجناته والنجاة من نيرانه، وعلى المؤمن أن يعلم (... أن مهور الحور العين التهجد، وهو حاصل في رمضان أكثر من غيره...)[3].

ورمضان من الأوقات الفاضلة، وينبغي للمؤمن أن لا يفوت هذا الموسم الكريم دون أن يعمل صالحاً ويتقرب إلى مولاه بأنواع القرب فيه، لكن على المؤمن أيضاً أن لا يجهد نفسه بأنواع من الطاعة التي لا يستطيع الاستمرار عليها، وليوازن بين أداء الحقوق التي لله ولنفسه وأهله والناس عموماً، فالنفس لها حق، ومن حقها اللطف بها حتى توصل صاحبها إلى المنزل: (... قال الحسن: نفوسكم مطاياكم إلى ربكم فأصلحوا مطاياكم توصلكم إلى ربكم، فمن وفى نفسه حظها من المباح بنية التقوى به على تقويتها على أعمال الطاعات كان مأجوراً في ذلك، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، ومن قصر في حقها حتى ضعفت وتضررت كان ظالماً لها...)[4].

الخلاصة:

الإنسان هو المخلوق المكرم صاحب الغاية الواضحة والأهداف المحددة الذي أوضح الله عز وجل مسؤوليته في هذا الوجود، فمتى ما نمى إيمان هذا الإنسان ورسخ اليقين في نفسه سار على النهج السوي وثبت

(١) سورة الحجر، الآية [٩٩].
(٢) لطائف المعارف: ٢٣٧.
(٣) المرجع السابق: ١٦٨.
(٤) لطائف المعارف: ١٣٠، ١٣١.

على الطريق المستقيم، لا تؤثر فيه الفتن ولا تزيغ به الأهواء، يلين قلبه ويخضع لله رب العالمين، قلبه سليم، ونفسه عالية، يحترز من أمراض القلوب، ويصون جوارحه عن المحرمات، خشع قلبه تعظيماً لربه، وخشعت جوارحه طاعة له، معتمد على الله متوكل عليه، آخذ بالأسباب ولا يعتمد عليها بالكلية، يفعل الطاعات ويتقرب إلى الله بالفضائل، قد مُحيت ذنوبه وطهر قلبه وتزود بزاد التقوى، هذا النموذج هو الذي تحرص على إيجاده التربية في نظر ابن رجب رحمه الله.



ب - النمـــو الأخلاقي

* تمهيـــــد .
* خلق الرسول ﷺ .
* حسن الخلق .
* من معاني البر .
* من الأخلاق الفاضلة :

الصبر .

الشكر .

الإيثار .

الحياء .

* من الأخلاق الذميمة :

الكبر .

الشح .

الحرص والعجز والحمق .

الحسد .

العلو .



تمهيد

إنّ مما تحرص عليه التربية الإسلامية نمو الجانب الأخلاقي عند المسلم، لأن الأخلاق الفاضلة تزين الإنسان في نفسه، وتحسن علاقته بربه ومع بني جنسه، وما بعثة الرسول ﷺ إلا إتمام لمكارم الأخلاق، كما قال ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وإن الحديث عن الأخلاق هو الحديث عن كل ما جاء في الإسلام، لكن سيقتصر حديثنا على توضيح خلق الرسول ﷺ وبيان حسن الخلق، ومعرفة البر وعلاقته بحسن الخلق، ثم نذكر نماذج من الأخلاق الفاضلة وأنواع من الأخلاق الذميمة، فمن الله نستمد العون وعليه نتوكل وبه نستعين.

خلق الرسول صلى الله عليه وسلم:

من أراد أن يرى هدي هذا الدين واقعاً يعاش فليدرس سيرة رسول الله ﷺ دراسة فهم وتأمل وتدبر، ففي الأخلاق كان عليه الصلاة والسلام أحسن الناس خلقاً، (سئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه؟ قالت: كان كرجل من رجالكم إلا أنه أكرم الناس وأحسن الناس خلقاً، وكان ضحاكاً بساماً)[3].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) الحديث في ضعيف الجامع برقم (٤٣٨٦).

(٣) لطائف المعارف: ١٣.

والمسلم مأمور أن يقتدي برسول الله ﷺ في أخلاقه وعبادته ومعاملته. قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾(١). وقال تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله...**﴾الآية(٢).

فينبغي للمسلم أن يدخل البهجة والسرور إلى قلوب أهله وذويه اقتداء برسول الله ﷺ الذي كان يصف خير الناس فيقول: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»(٣).

لقد كان عليه الصلاة والسلام يخسف نعله ويرقع ثوبه ويعين أهله، إنها قمة الأخلاق يعلمها الرسول ﷺ أمته، ليعلم ذلك الرجال المتسلطون الذين يدخلون على أهليهم عابسي الوجوه يتطاير الشرر من عيونهم، لا تجد الشفقة ولا الرحمة طريقاً إلى قلوبهم فليعلموا سيرة رسول الله مع أهله كيف كانت؟ لقد رأى الحابس بن قيس رسول الله ﷺ يقبل الحسن والحسين، فقال: أتقبلون صبيانكم؟ قال: «نعم». قال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم. فقال رسول الله ﷺ: «هل أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك» أو كما قال ﷺ»(٤).

ولقد شاهد الصحابة رضوان الله عليهم ولمسوا حسن خلقه ﷺ وتأثرت بذلك أخلاقهم وسيرتهم، فهذا جابر بن عبد الله يصف لنا حال الرسول ﷺ عند نزول الوحي عليه، فقال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه

---

(١) سورة الأحزاب، الآية [٢١].

(٢) سورة آل عمران، الآية [٣١].

(٣) حديث صحيح، في صحيح الجامع، رقمه (٣٣١٤).

(٤) الحديث صحيح، رواه الشيخان.

الوحي قلت: نذير قوم، فإذا سري عنه فأكثر الناس ضحكاً وأحسنهم خلقاً»[1])[2].

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم جاداً أثناء العمل، مرحاً ضحوكاً في أوقات الراحة والفراغ يألف ويؤلف.

حسن الخلق:

(. . . إن حسن الخلق قد يراد به التخلق بأخلاق الشريعة والتأدب بآداب الله التي أدب الله بها عباده في كتابه كما قال لرسوله ﷺ **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**[3].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه ﷺ القرآن»[4]. يعني أنه يتأدب بآدابه فيعمل بأوامره ويجتنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خلقاً كالجبلة والطبيعة لا يفارقه، وهذا من أحسن الأخلاق وأشرفها وأجملها. وقد قيل إن الدين كله خلق . . .)[5].

فالحديث عن حسن الخلق هو الحديث عن كل ما جاء به القرآن من أوامر ونواهي وآداب وأخلاق ومعاملات وتشريع، وهذا ما يراه بعض من كتب في التربية الأخلاقية، إنهم يرون أن الدين كله خلق[6].

ولقد سئل بعض السلف عن حسن الخلق فقال: (بذل الندى وكف الأذى)[7]، وعن كف الأذى قال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من

---

(١) الحديث في صحيح الجامع، رقمه (٤٨١١).
(٢) لطائف المعارف: ١٢.
(٣) سورة القلم، آية [٤].
(٤) صحيح مسلم. كتاب صلاة المسافرين.
(٥) جامع العلوم والحكم: ٢٢١.
(٦) الاتجاه الأخلاقي في القرآن، والتربية الأخلاقية في الإسلام.
(٧) اختيار الأولى: ٨٤.

لسانه ويده»[1].

وعن بذل المعروف قال ﷺ: (أحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده)[2].

وابن رجب رحمة الله عليه يحث على حسن الخلق ويبين أنه يلحق صاحبه درجة المجتهدين في العبادة فيقول: (.. وحسن الخلق يبلغ به العبد درجات المجتهدين في العبادة)[3].

ويستشهد على هذا بقول رسول الله ﷺ: (... «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم النهار القائم الليل»[4])[5].

وذكر رؤيا مفادها أن أحد السلف رؤي في المنام (فسئل عن بعض إخوانه الصالحين، فقال: وأين ذلك؟! رفع في الجنة بحسن خلقه)[6]، وفي هذا حث على التحلي بحسن الخلق؛ لأن ثماره سعادة في الدنيا وعز وثواب في الآخرة.

ومكانة حسن الخلق في الجنة عالية من يتحلى به يفوق من كان يعمل معه في الدنيا أعمالاً صالحة لكنه دونه في حسن الخلق.

يقول ابن رجب (... يؤتى بحسن الخلق فيرفع حسن الخلق على سيء الخلق فيقول سيء الخلق: وسيء الخلق يا رب لم رفعته علي وإنما

---

(١) الحديث صحيح الجامع، رقمه (٦٧١١).

(٢) حديث حسن، صحيح اجامع، رقمه (١٧٢)، من رواية عبد الله بن عمر.

(٣) اختيار الأولى: ٨٤.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود، رقمه (٤٧٩٨)، وصححه ابن حبان برقم (١٩٢٧).

(٥) اختيار الأولى: ٨٤.

(٦) المرجع السابق: ٨٤.

اصطحبنا فيك وعملنا؟ فيقول: «لحسن خلقه» فلا يجد له جواباً»[1].

والبر هو حسن الخلق كما جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ: «سُئل عن البر فقال: «حسن الخلق»[2])[3].

والفرق بين حسن الخلق وسوء الخلق فسره النبي ﷺ كما وردٍ في المسند عن عائشة رضي الله عنها: (.. «الشؤم سوء الخلق»، وخرّجه الخرائطي ولفظه «اليمن حسن الخلق»)[4])[5].

وقد يعرف البر أنه لين الجانب وطلاقة الوجه، يقول ابن رجب: (وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إن البر شيء هين وجه طليق وكلام لين)[6].

وهذا الكلام ورد على شكل بيت من الشعر ذكره ابن رجب بقوله: (... روي عن ابن عمر أنه كان ينشد:

بني إن البر شيء هين ... وجه طليق وكلام لين[7]

ويذكر ابن رجب بأن الإحسان واللطف واللين يحتاج إليها الإنسان إذا كان في تجمع مع إخوانه كالسفر مثلاً؛ لأنه قد يبدر منهم ما يثيره ويزعجه فينبغي أن يتحمل ويتجاوز ويحسن ويصفح، وهذا كما يقول ابن رجب (يحتاج إليه في الحج كثيراً، أعني معاملة الناس بالإحسان

---

(١) لطائف المعارف: ٢٦٣.

(٢) الحديث في صحيح الجامع برقم (٢٨٨٠).

(٣) لطائف المعارف: ٢٤٦.

(٤) الحديث في ضعيف الجامع برقم (٣٤٢٦).

(٥) لطائف المعارف: ٧٦، ٧٧.

(٦) لطائف المعارف: ٢٤٦.

(٧) اختيار الأولى: ٨٣.

بالقول والفعل، قال بعضهم: إنما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال)[1].

فالإنسان قد يتصنع أخلاقاً ليست من أخلاقه لكنه في السفر ينكشف على حقيقته وتظهر أخلاقه دون تصنع.

يروى عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يثني على رجل فقال: هل سافرت معه؟ هل تعاملت معه بالدرهم والدينار؟ قال: لا. قال: إذن لا تعرفه.

من معاني البر:

البر من الأخلاق التي تطمئن إليها النفس. قال ﷺ: «البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[2].

والبر كلمة جامعة تشمل فعل الطاعات وترك المنكرات، وقد ورد في القرآن أنه يشمل معاني الإيمان وأصوله.

يقول ابن رجب: (يراد بالبر فعل الطاعات كلها وضده الإثم.

وقد فسر الله تعالى البر بذلك في قوله: ﴿**ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب**﴾[3]....

.... وتضمنت الآية أنواع البر، وهي ستة أنواع من استكملها فقد استكمل البر: أولها الإيمان بأصول الإيمان الخمسة، وثانيها إيتاء المال المحبوب لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي

---

(١) لطائف المعارف: ٢٤٦.

(٢) حديث في صحيح الجامع برقم ٢٨٨٠.

(٣) سورة البقرة، الآية [١٧٧].

الرقاب، وثالثها إقام الصلاة، ورابعها إيتاء الزكاة، وخامسها الوفاء بالعهد، وسادسها الصبر على البأساء والضراء وحين البأس... فهذه خصال البر...)[1].

من الأخلاق الفاضلة:

١ - الصبر: .... وهو خلق من أخلاق النفس الفاضلة ومن خصال الإيمان، بل من أفضلها: (... عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة»[2])[3].

والصبر أنواع، فصبر على الطاعة، وصبر على المعصية، وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ أما عند ابن رجب فقد (.... فسر الصبر بالصبر عن المحارم والسماحة بأداء الواجبات)[4].

٢ - الشكر: ... والمؤمن لا ينفك أن يكون بين نعمة ونقمة، والنعمة تقابل بالشكر والبلاء يقابل بالصبر، فالمؤمن صابر شاكر، قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن إصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[5].

فنعم الله على عبده متعددة لا يستطيع القيام بشكرها، لكن يشكر الله على توفيقه ويسأله التجاوز عن التقصير، فالناس مسؤولون عن هذا النعيم الذي يتفيئون ظلاله، ذكر ابن رجب قول الله تعالى: ﴿**ثم لتسألن**

---

(١) لطائف المعارف: ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) الحديث في صحيح الجامع برقم (١٠٩٧).

(٣) ما ذئبان جائعان: ١٩.

(٤) المرجع السابق: ١٩.

(٥) صحيح مسلم. كتاب الزهد.

يومئذ عن النعيم﴾[1]، وعلق عليها بقوله: (... فهذا يدل على أن الناس يُسألون عن النعيم في الدنيا هل قاموا بشكره أولا؟ فمن طولب بالشكر على كل نعمة من عافية وصحة جسم وسلامة حواس وطيب عيش استعصى ذلك عليه ولم تف أعماله كلها بشكر هذه النعم، وتبقى سائر النعم غير مقابلة بشكر فيستحق صاحبها العذاب بذلك)[2].

والله سبحانه إذا وفق العبد لعمل الصالحات وفعل الطاعات فمن حقه سبحانه على عبده أن يشكره على ذلك، وإذا شكره كان هذا الشكر نعمة تستوجب شكراً جديداً: (... كان وهيب بن الورد إذا سُئل عن أجر عمل من الأعمال يقول: لا تسألوا عن أجره، لكن سلوا عما يجب على من هُدي له من الشكر عليه)[3].

وهذا يذكرنا بما أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: وكلما أنعم الله عليَّ نعمة شكرته فإذا شكرته رأيت أن هذا الشكر نعمة جديدة تستوجب شكراً جديداً.

٣ - **الإيثار**: وهو من الأخلاق الحميدة والشيم الرفيعة، وهو ضد الأثرة الذي يعبر عنه بالأنانية، ويكون في أعلى الدرجات إذا حصل مع شدة الحاجة.

يقول ابن رجب: (.. فأفضل إطعام الطعام الإيثار مع الحاجة كما وصف الله تعالى بذلك الأنصار رضي الله عنهم: فقال: **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**[4])[5].

---

(١) سورة التكاثر، آية [٨].

(٢) المحجة في سير الدلجة: ٣٦.

(٣) المحجة: ٤١.

(٤) سورة الحشر، آية [٩].

(٥) اختيار الأولى: ٧٨.

٤ - **الحياء:** وهذا الخلق قد خص به الإنسان دون الحيوان وقال عنه ﷺ: «... إن الحياء لا يأتي إلا بخير»[١].

وابن رجب ذكر عن النبي ﷺ قول: («الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»[٢])[٣].

وهذا فيه بيان أن الإسلام جاء بالأخلاق الفاضلة وحذر من الأخلاق السيئة، فالتربية الإسلامية تأخذ بمبدأ التخلية، والتحلية تخلي النفس من الأخلاق الذميمة لتحل محلها الأخلاق الفاضلة.

من الأخلاق الذميمة:

١ - **الكبر:** قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[٤]، والكبر يعني عدم قبول الحق، كما يعني احتقار الناس.

يقول ابن رجب: (يعني التكبر عن قبول الحق والانقياد له واحتقار الناس وازدراءهم فهذا هو الكبر»[٤])[٥].

والكبر من أمراض النفوس وأدواء القلوب، ومن علاجه أن يعرف العبد قدر نفسه ويتفكر في منشأه ومصيره ويعرف قدر نعمة الله عليه ويعرف ما للناس من حقوق عليه، وكيف يكون حسن التعامل معهم، وإذا حرم الإسلام الكبر فقد أمر بالتواضع ولين الجانب.

٢ - **الشح:** (... عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن

---

(١) حديث في صحيح الجامع برقم (٣٢٠٢).

(٢) الحديث في صحيح الجامع برقم (٣٢٠١).

(٣) فضل علم السلف: ٧٥.

(٤) حديث في صحيح الجامع، برقم (٧٦٧٤).

(٥) اختيار الأولى: ١١٠.

النبـــي ﷺ قـال: «اتقـوا الشح فـإن الـشح أهلك من كـان قـبلكـم أمـرهم بالقطيـعـة فقطعـوا، وأمـرهـم بالبـخل فـبـخلوا، وأمـرهـم بالفـجـور ففجروا»[3].

ولقد أخبر ﷺ: (. . .أن الشح يأمر بالقطيعة وبالبخل)[3]، وفسر البخل بأنه: (. . . إمساك الإنسان ما في يده، والشح تناول ما ليس له ظلماً وعدواناً من مال أو غيره حتى قيل إنه المعاصي كلها»)[4].

ثم زاد ابن رجب في توضيح معنى الشح فقال: (الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنعها حقوقها، وحقيقته أن تتشوف النفس إلى ما حرمه الله ومنع منه، وأن لا يقنع الإنسان بما أحله الله له من مال أو فرج أو غيرهما)[5].

ثم أوضح رحمه الله أن الإيمان يوقف الإنسان عند المباح ويصرف نظره عن المحرم، أما الذي لا يقنع بالمباح ولا يرضى بالحلال فهو الشحيح وشحه هذا ينافي الإيمان. قال رحمه الله: (فمن اقتصر على ما أبيح له فهو مؤمن ومن تعدى ذلك إلى ما منع منه فهو الشح المذموم، وهو مناف للإيمان)[6].

ثم بعد هذا التوضيح لمعنى الشح اتضح أن الشح يرد بمعنى البخل ولكن الأصل التفريق بينهما (. . وقد يستعمل الشح بمعنى البخل

(١) الحديث في صحيح الجامع برقم (٢٦٧٨).
(٢) ما ذئبان جائعان: ١٧.
(٣) المرجع السابق: ١٨.
(٤) المرجع السابق: ١٨.
(٥) المرجع السابق: ١٨.
(٦) ما ذئبان جائعان: ١٨.

وبالعكس ولكن الأصل التفريق بينهما)[1].

وإذا كان الشح ذميماًوخلقاً سيئاً فقد حرمه الإسلام وجعل مكانه خلق الكرم وحث عليه:

٣- الحرص والعجز والحمق: (... قال بعض السلف: إذا كان القدر حقاً فالحرص باطل وإذا كان الغدو في الناس طبعاً، فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت لكل أحد راصداً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق)[2]، (والحرص الجشع، وقد حرص على الشيء يحرص بالكسر حرصاً فهو حريص)[3].

والحرص كما يقول ابن رجب رحمه الله نوعان: (... حرص فاجع وحرص نافع، فأما النافع فحرص المرء على طاعة الله، وأما الحرص الفاجع فحرص المرء على الدنيا..)[4].

وفي هذا توجيه تربوي بأن يحرص الإنسان على ما ينفعه من طاعة الله وما يقربه إليه وأن لا يغتر بالدنيا ولا يركن إليها فإنها متاع الغرور، قال تعالى: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾[5]. لذا فقد جاء الإسلام بالتحذير من الحرص على الدنيا وحث على إنفاق المال في وجوه الخير والبر وقربة إليه فقال تعالى: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾[6].

والحريص غالباً ما يتعرض للأذى وهو أصبر الناس على هذا الأذى.

---

(١) المرجع السابق: ٢٠.

(٢) ما ذئبان جائعان: ١٣.

(٣) مختار الصحاح، مادة «حرص».

(٤) ما ذئبان جائعان: ١٣، ١٤.

(٥) سورة آل عمران، آية [١٨٥].

(٦) سورة سبأ، آية [٣٩].

يقول ابن رجب عنه (. . أصبرهم على الأذى الحريص)[1].

٤ - **الحسد:** من الأخلاق الذميمة ومرض من أمراض القلوب المهلكة حذر منه الإسلام، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ويجلب للحاسد الهم والغم: (قال بعض الحكماء: أطول الناس هماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع)[2].

وإذا كان الحسد مذموماً فإنما يقابله من الأخلاق الفاضلة القناعة، فالتربة السليمة هي التي تخلص النفوس من الأخلاق الذميمة لتحل محلها الأخلاق الفاضلة وهذا لا يتأتى إلا من خلال التربية الإسلامية.

٥ - **العلو:** وهو من الكبر، وابن رجب له توجيه يفيد كثيراً في توضيح العلو والخلاص منه حيث قال عنه: (العلو الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبه غداً حسرة وندامة وذلة وهواناً وصغاراً، فهو الذي يشرع الزهد فيه والإعراض عنه، وللزهد فيه أسباب عديدة، فمنها نظر العبد إلى سوء عاقبة الشرف في الدنيا بالولاية والإمارة لمن لا يؤدي حقها في الآخرة، ومنها نظر العبد إلى عقوبة الظالمين والمتكبرين، ومن ينازع الله رداء الكبرياء ومنها نظر العبد إلى ثواب المتواضعين لله في الدنيا بالرفعة في الاخرة. . .

ومنها وليس هو في قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ما يعوضه الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفنى من المال والشرف مما يعجله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى وهيبة الخلق لهم في الظاهر ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها

---

(١) ما ذئبان جائعان: ١٥.

(٢) ما ذئبان جائعان: ١٥.

الملوك في الدنيا ولا أهل الرئاسات والحرص على الشرف كما قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»[1]

(١) ما ذئبان جائعان: ٦١، ٦٢.



جـ ـ النمو الإرادي

* تمهيد .
* تعريف الإرادة .
* ارتباط العمل بالنية .
* الهمة العالية .



تمهيد

لقد فهم السلف الصالح أن السعادة لا تتحقق للعبد إلا بحصول العمل الصالح المبني على العلم النافع، وأن أي سعادة تأتي من غير هذا الطريق فهي سعادة زائفة غير حقيقية.

والعلم النافع هو ما أخذ من القرآن والسنة، أما العمل الصالح فهو ما كان منبثقاً عن إرادة صالحة شريفة وهمة عالية ونية حسنة، وضروري أن يتوفر في هذا العمل حتى يكون عملاً صالحاً الموافقة والإخلاص.

إن التربية الإرادية تعتبر جانباً مهماً من جوانب التربية الإسلامية، وابن رجب بصفته مربياً سلفياً ومعلماً ماهراً يشير إلى بناء الجانب الإرادي لدى الإنسان المسلم، ويجعله هدفاً من أهداف التربية التي ينادي بها، ألحظ ذلك من خلال إشارات هامة ووقفات تربوية لها أثر واضح في التربية، ونلحظ تعريفاً للإرادة، وبياناً للعلاقة بينها وبين النية، وأن العمل متوقف قبوله على صلاحيتها وتوجهها إلى الله عز وجل، وتوضيحاً لعلو الهمة وعلو المرتبة وأن قيمة الإنسان في علو همته وعلو مراده، فإذا كان يريد من كل عمل وجه الله ومرضاته وما عنده من جزاء ومثوبة فإرادته قوية، وإذا كان يريد الدنيا وحطامها فهو صاحب همة دون وإرادة دنيئة، وبقدر محبة الشيء يكون توجه الإرادة إليه كما نلحظ في هذا إشارتين هامتين في تربية الإرادة وتوجيهها وحب الشيء وإرادته.

فيتضح من هذا أن ابن رجب قد جعل من أهداف التربية؛ التربية الإرادية.

تعريف الإرادة:

بالرجوع إلى معاجم اللغة نجد أن الإرادة هي المشيئة[1].

يقول ابن رجب: (واعلم أن النية في اللغة نوع من القصد والإرادة)[2].

ومعنى هذا أن القصد أعم من النية وكذلك الإرادة أعم وأشمل: والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين: أحدهما: تمييز العبادات بعضها عن بعض. كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر... وهذه النية هي التي توجد كثيراً في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل. وهل هو لله وحده لا شريك له أم لله وغيره؟... وهي النية التي يتكرر ذكرها في كلام النبي ﷺ تارة بلفظ النية وتارة بلفظ الإرادة، وإنما فرق من فرق بين النية وبين الإرادة والقصد، لظنهم اختصاص النية بالمعنى الأول الذي يذكره الفقهاء.

وقد ذكرنا أن النية في كلام النبي ﷺ وسلف الأمة إنما يراد بها المعني الثاني، فهي حينئذ بمعنى الإرادة، ولذلك يُعبَّر عنها بلفظ الإرادة في القرآن كثيراً كما في قوله تعالى: ﴿**منكم م يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة..**﴾[3][4].

ولكن ورد أن النية محلها القلب، أما الإرادة: ففهم ينبثق عنه عمل

---

(١) مختار الصحاح، الرازي، مادة «روده».

(٢) جامع العلوم والحكم: ٧.

(٣) سورة آل عمران، آية [١٥٢].

(٤) جامع العلوم والحكم: ٧، ٨.

وسبق هذا الهم نية : (. . . قال الفضيل بن زياد : سألت أبا عبد الله يعني أحمد عن النية في العمل، قلت : كيف النية؟ قال : يعالج نفسه إذا أراد عملاً لا يريد به الناس. . . .)[1].

وقديعبر عن النية في القرآن الكريم بلفظ الابتغاء كما في قوله تعالى : **﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله﴾**[2].

ارتباط العمل بالنية:

إنما يحدد مكانة العمل من الصلاح والفساد هو النية و(حظ العامل من العمل نيته، فإن كانت صالحة فعمله صالح ومأجور، وإن كانت فاسدة فعمله فاسد مأزور)[3]. (والله سبحانه يريد من عباده صدق النية والتوجه إليه بالعمل)[4]. (والنية تحتاج إلى معالجة)[5]. ولقد أكد سلفنا الصالح رحمهم الله على إخلاص النية وتوجيه الإرادة إليه، (قال ابن عجلان : لا يصلح العمل إلا بثلاث : التقوى، والنية الحسنة، والإصابة)[6].

التقوى هي سر السعادة، وبها تحصل طمأنينة القلب وراحة الضمير، قال تعالى : **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾**[7].

---

(١) جامع العلوم والحكم : ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية [٢٦٥].
(٣) جامع العلوم والحكم : ٧.
(٤) المحجة في سير الدلجة : ٥٤.
(٥) جامع العلوم والحكم : ١٠.
(٦) المرجع السابق : ١٠.
(٧) سورة فصلت، آية [٣٠].

والنية الحسنة من أهم شروط قبول العمل، لكن وحدها لا تكفي في جعل العمل عملاً صالحاً، بل لا بد من وجود شرط ثان، ألا وهو الإصابة، أي الموافقة لما جاء عن رسول الله ﷺ؛ لأن الدين بالإتباع، قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾[1].

ومما يدل على أن حسن النية وحده لا يجعل العمل عملاً متقبلاً قصة النفر الذين جاءوا إلى بيوت رسول الله ﷺ يسألون عن أعماله فتقالوها، فقالوا: أين نحن من رسول الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه.

فعندما سمع النبي ﷺ بما قالوا وما عزموا عليه من عمل لم يقرهم على هذا مع أن قصدهم ونيتهم حسنة وإرادتهم شريفة، فحسن النية غير كاف لصلاح العمل وقبوله كما ذكرنا، لكن توجيه النية والإرادة في كل الأعمال إلى الله عز وجل أمر حث عليه سبحانه وتعالى، هذا ما يريده من عباده، (يقول الفضيل بن عياض: إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك..)[2]، والإرادة عندما تكون صالحة تؤثر في صلاح العمل وقبوله، والعكس صحيح فعندما تكون فاسدة فالعمل يفسد بفسادها)[3].

وأصحاب الهمم العالية لا يرضون بالدون من الأشياء بل إن مطلوبهم عالي الشأن كبير المنزلة حبيب عند الله، فمن كبرت همته لم يرض بطلب شيء سوى الله سبحانه)[4]، فمن طلب الله فهو أكبر الناس،

---

(١) سورة آل عمران، الآية [٣١].

(٢) جامع العلوم والحكم: ٧.

(٣) المرجع السابق: ١١.

(٤) المحجة في سير الدلجة: ٨٨.

أما الدنيا فالتعلق بها والشغف بملذاتها ينسي المطلب.

فمن المعلوم بداهة أن: (قيمة كل إنسان ما يطلب، فمن كان يطلب الدنيا فلا أدنى منه، فإن الدنيا دنية وأدنى منها من يطلبها، وهي خسيسة وأخس منها من يخطبها)[1].

لكن الدنيا هي خير مطية لمن استخدمها في طاعة الله، ففيها العمل والجزاء عليه غداً يوم تنشر صحائف الأعمال، فلا تذم مطلقاً، ولا تمدح مطلقاً. فما صلى مصلٍّ إلا فيها ولا صام صائم ولا حج ولا اعتمر ولا جاهد ولا عمل صالحاً إلا فيها.

فهي خير مطية إذا سخرت لطاعة الله وبئس لمن ارتحلته وسيرته عبداً لها «تعس عبد الدينار والدرهم»[2]، نعم هناك عبيد للدنيا وما أكثرهم - لاكثرهم الله - وبالذات في هذا الزمن الذي تفاوتت فيه الإرادات وتباينت فيه المقاصد، فعالي الهمة: (.. يجتهد في نيل مطلوبه ويبذل وسعه في الوصول إلى رضى محبوبه، فأما خسيس الهمة فاجتهاده في متابعة هواه، ويتكل على مجرد العفو، فيفوته إن حصل له العفو منازل السابقين المقربين...)[3].

فالإردات الصلبة والهمم العالية تدفع إلى العمل الجاد والإنتاج المثمر البناء، فـ(صاحب الهمة العالية والنفس الشريفة التواقة لا يرضى بالأشياء الدنيئة الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزكية التي لا تفنى ولا يرجع عن مطلوبه ولو تلفت نفسه في طلبه)[4].

---

(١) لطائف المعارف: ٢٦١.

(٢) حديث صحيح، في البخاري، وابن ماجه، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) لطائف المعارف: ٢٦٢.

(٤) المرجع السابق: ٢٦١.

وهذه الهمة وهذه الإرادة لا تتوقف عن عجز ولا تتردد عن إقدام لأن التوقف ليس من سماتها، بل من سمات الهمم الخسيسة. يقول ابن رجب: (ما توقفت همة إلا لخساستها، وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع بالدون...)[1].

(والهمة مولودة مع الآدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا استحثت سارت، فمتى رأت في صاحبها عجزاً أو كسلاً تقاعست وكسلت، فعلاج ذلك أن يلجأ إلى الموفِّق ويدعوه بإصلاح حاله وشأنه، فلا ينال الخير إلا بطاعة الله ولا يفوته الخير إلا بمعصيته)[2].

والعاقل يعلم أن: (... من كان همه طلب محبة الله عز وجل أعطاه الله فوق ما يريده من الدنيا)[3]، وهذه الإرادة التي نتحدث عنها لها علاقة وثيقة بالمحبة: (... فإن الأفعال الاختيارية من العباد إنما تنشأ من محبة وإرادة، فإن كانت محبة الله ثابتة في قلب العبد نشأت عنها حركات الجوارح، فكانت بحسب ما يحبه الله ويرتضيه، فأحب ما يحبه الله عز وجل من الأعمال والأقوال كلها، ففعل حينئذ الخيرات كلها وترك المنكرات كلها واجب وهو ما يحبه الله من خلقه)[4].

فإن ارتباط المحبة بالإرادة يؤكد أن التربية الإسلامية تسعى إلى تحقيق الشخصية المتكاملة من جميع الجوانب العاطفية والإرادية وغيرها.

---

(١) لفتة الكبد في نصيحة الولد، ابن الجوزي، المطبعة السلفية، القاهرة، ص ٤٥.

(٢) المرجع السابق: ٤٥.

(٣) اختيار الأولى: ١٢٥.

(٤) اختيار الأولى: ١٢٥.

الهمـــــة العاليـــــة:

(قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، له شأن وللناس شأن)[1].

(وفي الحقيقة فالمؤمن في الدنيا غريب؛ لأن أباه لما كان في دار البقا فهمه الرجوع إلى مسكنه الأول)[2]...

(إن الغربة عند أهل الطريقة غربتان، ظاهرة وباطنة، فالظاهرة غربة أهل الصلاح بين الفساق وغربة الصادقين بين أهل الرياء والنفاق، وغربة العلماء بين أهل الجهل وسوء الأخلاق، وغربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سلبوا الخشية والإشفاق، وغربة الزاهدين بين الراغبين في ما ينفد وليس بباق.

وأما الغربة الباطنة: فغربة الهمة وهي غربة العارفين بين الخلق كلهم حتى العلماء والعباد والزهاد، فإن أولئك واقفون مع علمهم وعبادتهم وزهدهم وهؤلاء واقفون مع معبودهم لا يعرجون بقلوبهم عنه.

فكان أبو سليمان الداراني يقول في وصفهم: وهمتهم غير همة الناس، وإرادتهم الآخرة غير إرادة الناس، ودعاؤهم غير دعاء الناس.

وسئل عن أفضل الأعمال: فبكى وقال: أن يطلع على قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره)[3].

وهذا ما ذكره سيد قطب رحمه الله وأسماه بالعزلة الشعورية: أن

---

(١) كشف الكربة: ٢٨.
(٢) المرجع السابق: ٢٩.
(٣) كشف الكربة: ٣٠.

يكون المؤمن مخالطاً لغيره من الناس لكنه منعزل عنه بمشاعره الإيمانية وهمته العالية ورغبته في مرضاة الله[1].

(١) انظر الظلال، سيد قطب.

د - النمـــو العاطفـــي

* ❊ تمهيد .
* ❊ تعريف المحبة .
* ❊ غاية المحبة .
* ❊ تعريف الخلة .
* ❊ أنواع المحبة .
* ❊ من يحبهم الله .
* ❊ مقتضى محبة الله .
* ❊ بم تحصل المحبة .
* ❊ وسائل تربية عاطفة الحب .
* ❊ الخوف .
* ❊ الحزن .
* ❊ الفرح .



تمهيد

نعني بالنمو العاطفي: ذاك النمو الذي يوجه كل مشاعر العاطفة من المحبة والبغض والفرح والحزن والخوف وجهة ترضي الله عز وجل، فالمحبة فيه والبغض من أجله والفرح بطاعته والحزن في ارتكاب معصيته والخوف من عقابه.

وإننا في هذا الفصل سنتناول بإذن الله وتوفيقه تعريف المحبة وأنواعها وغايتها وتوجيهها وثمارها، ثم نشير إلى بيان أن خوف المؤمن وحزنه وفرحه كل ذلك موجه لمرضاة الله، نفعل ذلك مؤصلين فكر ابن رجب التربوي في هذا كما فعلنا وسنفعل في الفصول والمباحث الأخرى.

تعريف المحبة:

في اللغة: أحببت الشيء بالألف، فهو (محب) و (استحببته) مثله، ويكون (الاستحباب) بمعنى الاستحسان[١]. وقد سُئِل بعض العارفين عن المحبة فقال: (الموافقة في جميع الأحوال...)[٢] لاتباع المحبوب، فإذا أمر أطيع أمره وإذا نهى اجتنب نهيه، وهذا الالتزام يورث الحب الحقيقي، قال الحسن البصري: (إنما أحباء الله هم الذين ورثوا طيب الحياة وذاقوا نعيمها بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم وبما وجدوا من لذة حبه في قلوبهم)[٣].

مال المحب سوى إرادة حبه ... إن المحب بكل بر يصرع[٤]

---

(١) المصباح المنير، المقري: كتاب الحاء، ١/ ١١٧، المكتبة العلمية، بيروت.

(٢) اختبار الأولى: ٢٦.

(٣) كشف الكربة: ٢٦.

(٤) المحجة في سير الدلجة: ٨٦.

غايـــــــة المحبـــــــة:

غاية المحبة توجيه كل الأعمال لله تعالى وطلب مرضاته؛ (فالمحبون لله غاية مقاصدهم من الخلق أن يحبوا الله ويطيعوه ويفردوه بالعبودية والألوهية)[١].

والذي يفعل هذا (لا يريد من الخلق جزاء ولا شكوراً وإنما يرجو ثواب عمله من الله)[٢]، وما وصل الذي يفعل هذا إلى هذه الدرجة إلا بسخاء نفسه ولم يبلغ (بكثرة صيام ولا صلاة لكن بسخاوة الأنفس وسلامة الصدر والنصيحة للأمة)[٣].

تعريـــــف الخلـــــة:

في اللغة: الصداقة[٤]. (قيل إن إبراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده، ولم يكن المقصود إراقة دمه بل تفريغ محل الخلة لمن لا يصلح أن يزاحمه فيها أحد)[٥] وهذه الخلة لا تصلح أن تكون لأحد من البشر (لما كان رسول الله ﷺ خليل الله لم يتح له أن يخالل مخلوقاً فإن الخليل من جرت محبة خليله منه مجرى الروح ولا يصلح هذا لبشر)[٦].

أنـــــواع المحبـــــة:

(ومحبة الله على درجتين: إحداهما: واجبة؛ وهي المحبة التي توجب للعبد محبة ما يحبه الله من الواجبات وكراهة ما يكرهه من

---

(١) ما ذئبان جائعان: ٣٢.

(٢) المرجع السابق: ٣٢.

(٣) المحجة في سير الدلجة: ٥٤.

(٤) المصباح المنير، المقري، كتاب الخاء ١٥/ ١٨٠.

(٥) لطائف المعارف: ١٠٧.

(٦) المرجع السابق: ١٠٧.

المحرمات . . . الدرجة الثانية من المحبة : درجة المقربين، وهي أن يمتلأ القلب بمحبة الله تعالى حتى توجب له محبة النوافل والاجتهاد فيها، وكراهة المكروهات والانفكاك عنها، والرضى بالأقضية والأقدار المؤلمة لصدورها عن المحبوب)[1]، وتحمل الصعاب في سبيل ذلك لأن (من عرف ما يطلب هان عليه كل ما يبذل)[2]، ومجاهدة النفس على الطاعة وحب ما يحبه الله وبغض ما يبغضه والابتعاد عن الشرك بما في ذلك الشرك الخفي (ففي صحيح الحاكم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : (. . . «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء»[3]، وأدناه على أن تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل ؛ وهل الدين إلا الحب والبغض)[4]، والحب والبغض داخل في الولاء والبراء الذي ينبغي تحريره لله عز وجل، فالحب فيه والبغض فيه .

من يحبهم الله؟:

(في بعض الآثار يقول الله عز وجل : «أحب العباد إلي المتحابون بجلالي، المشاءون في الأرض بالنصيحة، المشاؤون على أقدامهم إلى الجمعات». وفي رواية : «المتعلقة قلوبهم بالمساجد، والمستغفرون بالأسحار، فإذا أردت إنزال عذاب بأهل الأرض فنظرت إليهم صرفت العذاب عن الناس»)[5] .

المحبون لله يتقربون إليه بأرواحهم ويضحون في سبيله بكل غال

---

(١) اختيار الأولى، ص ١٢٦، ١٢٧ .

(٢) لطائف المعارف، ابن رجب ص ٢٦٧ .

(٣) مسند أحمد ٤/ ٤٠٢ .

(٤) كلمة الإخلاص، ابن رجب، ص ٣٠ .

(٥) لطائف المعارف، ابن رجب، ص ١٤٠ .

ونفيس لأنه (ما يرضى المحبون لمحبوبهم بإراقة دماء الهدايا، وإنما يهدون له الأرواح)[1].

والتقوى سبب في حب الله تعالى للعبد، قال تعالى: ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾[2]. وفي حديث سعد عن النبي ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[3].

وقيام الليل دليل على حب العبد لله كما يقول ابن رجب: (وسط الليل للمحبين للخلوة بحبيبهم)[4].

والذين يعلمون الناس الخير ويدلونهم على البر ويربونهم على الطاعة (يحبهم الله، ويسكن محبتهم القلوب، بل ويجعل كل ما في السموات والأرض يحبهم. فمن كانت هذه صفته[5] فإن الله يحبه ويزكيه ويثني عليه ويأمر عباده من أهل السماء والأرض وسائر المخلوقات بمحبته والدعاء له وذلك هو صلاته عليه، ويجعل له المودة في قلوب عباده المؤمنين)[6].

مقتضى محبة الله:

إن المحبة الحقيقية تردع العبد عن فعل ما حرمه الله عليه وعن ترك ما أمره بفعله، فـ (المحبة بالقلب موجبة لفعل الخيرات بالجوارح ولترك المنكرات بالجوارح)[7].

---

(١) المرجع السابق: ٢٩٨.
(٢) سورة آل عمران، آية [٧٦].
(٣) صحيح مسلم، كتاب الزهد.
(٤) المحجة في سير الدلجة: ٦٥.
(٥) أي يعرف بالله وحقوقه وطاعته ويدل الناس على أمره وحكمه.
(٦) ورثة الأنبياء: ٧٩.
(٧) اختيار الأولى: ٩٤.

ومعرفة العبد لربه توجب محبته له وتشعره بقربه منه فيأنس بهذا القرب ويتوجه للطاعة والعبادة فكلما : (. . . . قويت المعرفة لله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال . .)[1] .

ومعرفة العبد لربه تأتي من خلال مشاهداته لآياته الكونية ومطالعته لنعمه عليه وتدبر كتابه الكريم وتفهم شرعه المنزل ومطالعة سيرة نبيه الأمين عليه الصلاة والسلام والسير على سنته وطريقته وكثرة الطاعات وشكره على نعمه فـ (المحب لا يمل بالتقرب بالنوافل إلى مولاه، ولا يؤمل إلا قربه ورضاه . . . .)[2]، فدوماً يقدم ما يحب مولاه على هوى نفسه، فلا يقدم شيئاً من المحبوبات على محبة الله عز وجل لأنه (. . لا يرتكب أحد شيئاً من المحرمات أو يخل بشيء من الواجبات إلا لتقديم هوى النفس المقتضي ارتكاب ذلك على محبة الله تعالى المقتضية لخلافه)[3]، وهذا يتنافى مع محبة الله حقاً .

ومن مقتضى محبة الله عز وجل حب أوليائه، لأن (. . . الحب في الله من أوثق عرى الإيمان ومن علامات ذوق حلاوة الإيمان، وهو أفضل الإيمان وهذا كله مروي عن النبي ﷺ . إنه حبٌّ في الله تعالى، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : به تنال ولاية الله وبه يوجد طعم الإيمان . . .)[4] .

ومن مقتضى محبة الله كثرة التردد إلى بيته الحرام لعمرة أو حج

---

(١) لطائف المعارف : ٢٠٣ .

(٢) لطائف المعارف : ٢٣٨ .

(٣) اختيار الأولى : ١٢٧ .

(٤) المرجع السابق : ٩٤ ـ ٩٥ .

أو زيـــارة.

يقول ابن رجب: (.. ما يؤهل للإكثار من التردد إلى تلك الآثار[1] إلا محب مختار. حج علي بن الموفق ستين حجة، فلما كان بعد ذلك قال: جلست في الحجر أفكر في حالي وكثرة ترددي إلى ذلك المكان ولا أدري هل قبل مني حجي أم رد، ثم نمت فرأيت في منامي قائلاً يقول لي هل تدعو إلى بيتك إلا من تحب؟ قال: فاستيقظت وقد سري عني)[2].

فالمؤمن حاله بين الخوف والرجاء يعمل العمل ولا يركن إليه... يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل أحداً عملُه الجنة»[3].

ومن مقتضى محبة الله عز وجل التنبه عند الخطيئة والأوبة إلى الله والرجعة إليه والتوبة والاستغفار (إن الله عز وجل له عناية بمن يحبه، فكلما زلق ذلك العبد في هوة الهوى أخذ بيده إلى نجوة النجاة، ييسر له التوبة وينبهه على قبح الزلة، فيفزع إلى الاعتذار، ويبتليه بمصائب مكفرة لما جنى)[4].

والله عز وجل إذا أحب عبداً وضع له القبول في نفوس الناس كما جاء في الحديث: إن الله إذا أحب عبداً نادى يا جبريل: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السماء، ثم يحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)[5].

---

(١) أي الديار المقدسة.

(٢) لطائف المعارف: ٦٥.

(٣) الحديث في صحيح الجامع برقم (٥٢٢٢).

(٤) كلمة الإخلاص: ٤٦.

(٥) ما ذئبان جائعان: ٦٧.

إن المحب لله عز وجل لا يمل من ذكر الله ولا يفتر عن عبادته ويتحمل المشاق في سبيل رضاه: (فمن امتلأ قلبه من محبة الله عز وجل أحب ما يحب وإن شق على النفس وتألمت به، كما يقال: المحبة تهون الأثقال. وقال بعض السلف في مرضه أَحَبُّه إليَّ أحبه إليه)[1]. (من خدم من يحب تلذذ بشقائه في خدمته، وقال بعضهم: القلب المحب لله يحب النصب له، وقال عبد الصمد: أوجد لهم في عذابه عذوبة)[2].

(سئل ذو النون المصري متى أحب ربي؟ قال: إذا كان ما يكرهه أمرَّ عندك من الصبر. وقال غيره: ليس من أعلام المحبة أن تحب ما يكرهه حبيبك)[3].

(وقال الحسن: اعلم أنك لن تحب الله حتى تحب طاعته)[4]، (ومن الشرك الخفي محبة ما يكرهه الله وبغض ما يحبه، والموالاة على ذلك والمعاداة فيه)[5].

قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾[6].

قال الحسن: (قال أصحاب رسول الله ﷺ: إنا نحب ربنا حباً شديداً فأحب الله أن يجعل لحبه علماً فأنزل الله هذه الآية»[7].

---

(١) اختيار الأولى: ٥٤.

(٢) المرجع السابق: ٥٥.

(٣) لطائف المعارف: ١٦٢.

(٤) كلمة الإخلاص: ٣١.

(٥) كلمة الإخلاص: ٣١.

(٦) سورة آل عمران، الآية [٣١].

(٧) كلمة الإخلاص: ٣٢، ٣٣.

(قال أبو يعقوب النهرجوري: كل من ادعى محبة الله ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة. وقال يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده. وقال رويم: المحبة الموافقة في جميع الأحوال)[1]. لأنه لا تتم شهادة أن لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمداً رسول الله، فإنه إذا علم أنه لا تتم محبة الله إلا بمحبة ما يحب وكراهة ما يكرهه، فلا طريق إلى معرفة ما يحبه وما يكرهه إلا من جهة محمد المبلغ عن الله ما يحبه وما يكرهه باتباع ما أمره به واجتناب ما نهاه عنه، فصارت محبة الله مستلزمة لمحبة رسوله ﷺ وتصديقه ومتابعته، ولهذا قرن الله بين محبته ومحبة رسوله في قوله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم... إلى قوله: أحب إليكم...**﴾[2] الآية)[3]. و(متى بقي للمحب حظ من نفسه فما بيده من المحبة إلا الدعوة، إنما المحب من يفنى عن كله ويبقى، بحبيبه وبه يسمع وبه يبصر)[4]. (... ومتى قويت المعرفة والمحبة لم يرد صاحبها إلا ما يريد مولاه)[5].

ومن مقتضى المحبة كتم المحب كل ما يفعله من أمور يحبها مولاه فـ(... المحبون يغارون من اطلاع الأغيار على الأسرار التي بينهم وبين من يحبهم ويحبونه)[6].

وهناك ارتباط بين محبة العبد لربه ومحبة الخلق لهذا العبد، فإذا قويت محبة العبد لله تمكن حبه من قلوب البشر، وإذا اشتغل بطاعة الله اشتغل الناس بشؤونه وأموره؛ فـ(... على قدر محبتك لله يحبك الخلق

(١) كلمة الإخلاص: ٣٢.
(٢) سورة التوبة، الآية [٢٤].
(٣) كلمة الإخلاص: ٣٣.
(٤) المرجع السابق: ٣٧.
(٥) المرجع السابق: ٣٥.
(٦) لطائف المعارف: ١٦٣.

وعلى قدر اشتغالك بالله يشغل الخلق بأشغالك)[1] .

بم تحصل المحبة؟

تحصل بمحبة ما يحبه الله عز وجل وما يحبه رسوله ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: « . . . ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب الرجل لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[2] .

وتحصل بالتضحية في سبيله كما حصل من السحرة الذين آمنوا بموسى ورسالته، فلما (سكنت المحبة قلوبهم سمحوا ببذل النفوس وقالوا لفرعون: ﴿**اقض ما أنت قاض**﴾[3])[4] .

وتحصل بالتوجه إلى نوافل الطاعات والرغبة في الاستزادة من العبادات، لأنه متى تمكنت المحبة في القلب (لم تنبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب، وهذا هو معنى الحديث الإلهي الذي خرجه البخاري في صحيحه وفيه: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»[5])[6] .

والمعنى أن محبة الله (إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم تنبعث الجوارح إلا إلى مراضي الرب وصارت النفس حينئذ مطمئنة بإرادة

---

(١) ما ذئبان جائعان: ٦٣ .

(٢) حديث في صحيح الجامع برقم (٣٠٤٤) .

(٣) سورة طه، الآية [٧٢] .

(٤) كلمة الإخلاص: ٣٤, ٣٥ .

(٥) الحديث في صحيح الجامع برقم (١٧٨٢) .

(٦) كلمة الإخلاص: ٣٤ .

مولاها عن مرادها وهواها)[1].

وتحصل المحبة أيضاً بكتمان الأعمال الصالحة وعدم إظهارها والتحدث عنها لأن (الله تعالى يحب من عباده أن يعاملوه سراً بينهم وبينه، وأهل محبته يحبون أن يعاملوه سراً بينهم وبينه بحيث لا يطلع على معاملتهم إياه سواه...)[2].

المحب تزداد محبته بقربه من حبيبه وسؤاله عنه ومحادثته إياه (.. ليس للمحب عيد سوى قرب محبوبه...)[3].

(... أحب ما إلى المحب سؤال من قدم من ديار الحبيب)[4]. ومما يزيد المحبة التحقق بمقتضى لا إله إلا الله، فقول (... لا إله إلا الله تقتضي أن لا يحب سواه؛ فإن الإله هو الذي يطاع فلا يُعصى محبة وخوفاً ورجاءً)[5].

وتحصل المحبة بتعلق القلب بالمساجد وملازمتها وعمارتها بذكر الله عز وجل، فإنه: (.. لما كانت المساجد بيوت الله أضافها إلى نفسه تشريفاً لها وتعلقت قلوب المحبين بالله عز وجل بها لنسبتها إلى محبوبهم وانقطعت إلى ملازمتها لإظهار ذكره فيها)[6].

ومعرفة الله عز وجل حق المعرفة توصل إلى محبته ورضوانه وطاعته وعبادته، فتنال النفوس الفاعلة لذلك جزاءها الوفير في الآخرة فـ(...

---

(١) المرجع السابق: ٣٤-٣٥.

(٢) لطائف المعارف: ١٦٢.

(٣) المرجع السابق: ٢٨٩.

(٤) لطائف المعارف: ٦٥.

(٥) كلمة الإخلاص: ٢٩.

(٦) اختيار الأولى: ٧١.

الوصول إلى الله نوعان أحدهما في الدنيا والثاني في الآخرة، فأما الوصول الدنيوي، فالمراد به أن القلوب تصل إلى معرفته، فإذا عرفته أحبته وأنست به، فوجدته منها قريباً ولدعائها مجيباً... وأما الوصول الأخروي، فالدخول إلى الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه، ولكنهم في درجاتها يتفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في الدنيا في القرب والمشاهدة)[1].

قال ﷺ في حديثه الطويل: «... الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

وسائل تربية عاطفة الحب:

تحصل محبة الله عز وجل بكثرة العبادة من النوافل والفرائض واجتناب المحرمات. إن (.. أفضل ما تستجلب به محبة الله عز وجل فعل الواجبات وترك المحرمات)[3].

ومن (.. أعظم ما تحصل به محبة الله تعالى من النوافل: تلاوة القرآن، وخصوصاً مع التدبر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فمن أحب القرآن فهو يحب الله ورسوله، ولهذا قال النبيّ ﷺ لمن قال: إني أحب سورة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ لأنها صفة الرحمن. فقال: «أخبره أن الله يحبه»[4]...

ومن الأعمال التي توصل إلى محبة الله تعالى وهي من أعظم علامات المحبين كثرة ذكر الله عز وجل بالقلب واللسان، قال بعضهم: ما

---

(١) المحجة في سير الدلجة: ٧٨، ٧٩.

(٢) الحديث في صحيح الجامع برقم (٢٧٦٢).

(٣) اختيار الأولى: ١٢٩.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد.

أدمن أحد ذكر الله إلا وأفاد منه محبة الله تعالى . . .

ومما تحصل به المحبة أيضاً: حب الخلوة بمناجاة الله تعالى وخصوصاً في ظلمة الليل)[1] . وكثرة الخطا إلى بيوت الله عز وجل وتعلق القلب بها. فـ (. . . قلوب المحبين ببيوت محبوبهم متعلقة، وأقدام العابدين إلى بيوت معبودهم مترددة)[2] .

وحب أوليائه وبغض أعدائه مما يؤكد محبة الله عز وجل، لأن (. . من أحب الله أحب أحباءه فيه ووالاهم، وأبغض أعداءه وعاداهم . كما قال ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله . . . »)[3][4] .

وتفريغ القلب من محبة غير الله تعالى وملئه بحبه وحب كل أمر يحبه؛ لأنه (. . متى كان القلب فيه غير الله فالله أغنى الأغنياء عن الشرك، وهو لا يرضى بمزاحمة أصنام الهوى . . الحق غيور يغار على عبده المؤمن أن يسكن في قلبه سواه أو يكنَّ فيه شيء ما يرضاه)[5] .

(. . إن من امتلأ قلبه من محبة الله لم يكن فيه شيء أفرغ من إرادات النفس والهوى . .)[6] .

وحب المساكين يورث حب الله عز وجل؛ لأن حبهم: (. . أصل

---

(١) اختيار الأولى: ١٣٠، ١٣١ .

(٢) المرجع السابق: ٧٢ .

(٣) الحديث في صحيح الجامع برقم (٣٠٤٤) .

(٤) اختيار الأولى: ١٢٨، ١٢٩

(٥) كلمة الإخلاص: ٦٦ .

(٦) المرجع السابق: ٦٦ .

الحب في الله تعالى ؛ لأن المساكين ليس عندهم من الدنيا ما يوجب محبتهم لأجله، فلا يحبون إلا لله عز وجل)[1].

(.. وحب المساكين مستلزم لإخلاص العمل لله تعالى، والإخلاص هو أساس الأعمال الذي لا تثبت الأعمال إلا عليه ؛ فإن حب المساكين يقتضي إسداء النفع لهم بما يمكن من منافع الدين والدنيا، فإذا حصل إسداء النفع إليهم حباً لهم وإحساناً إليهم كان هذا العمل خالصاً)[2].

وعلى العبد أن يتفقد حاله، فمتى شعر أنه مخل ببعض الواجبات أو مرتكب لبعض المحرمات فليراجع نفسه وليحرص على فعل كل ما يحبه ربه، لأنه (.. متى أخل ببعض الواجبات، أو ارتكب بعض المحرمات فمحبته لربه غير تامة، فالواجب عليه المبادرة بالتوبة والاجتهاد في تكميل المحبة المقتضية لفعل الواجبات كلها واجتناب المحرمات كلها)[3].

وليحرص على تكميل إيمانه: (.. لأن الإيمان الكامل يقتضي محبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه الله عز وجل والعمل بمقتضى ذلك)[4].

ولقد تناولنا في مبحث النمو الإيماني كيفية بناء الإيمان وتكامله، متى ما كان القلب سليماً فإن الإنسان يؤثر ما يبقى على ما يفنى (.. عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[5])[6].

---

(١) اختيار الأولى: ٩٤.

(٢) كلمة الإخلاص: ٩٥.

(٣) اختيار الأولى: ١٢٦.

(٤) المرجع السابق: ١٢٧.

(٥) مسند أحمد ٤/ ٤١٢.

(٦) ما ذئبان جائعان: ٦٧.

والتنافس ينبغي أن يكون في الأعمال الصالحة التي ترضي الله عز وجل، فإذا حرص العبد على رضا مولاه أحبه مولاه ووفقه وهداه (.. إن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله وبعده عن الله وطرده عنه، فهذا هو العلو الفاني الذي يذم وهو القعود والتكبر في الأرض بغير الحق)[1].

(.. قال وهب بن منبه: من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم..)[2].

ويقول ابن رجب: (.. إن الهوى داع إلى الرغبة في الدنيا وحب المال والشرف فيها، والتقوى تمنع من اتباع الهوى وتردع عن حب الدنيا)[3].

إن تقوى الله عز وجل ومراقبته تجعل القلب سليماً. و (.. القلب السليم الذي ليس فيه غير محبة الله، ومحبة ما يحبه الله؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً)[4].

والمجاهدة في الله تورث محبته سبحانه. قال تعالى: ﴿**يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾[5]. فقد (.. وصف الله تعالى في

---

(١) المرجع السابق: ٥٨.
(٢) المرجع السابق: ٥٧.
(٣) المرجع السابق: ٥٧.
(٤) اختيار الأولى: ٦٧.
(٥) سورة المائدة، الآية [٥٤].

كتابه أنَّ المحبين له مجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم . .)[1] .

ومحبة العلماء العاملين والصالحين تورث محبة الله عز وجل . يقول ابن رجب : (. . إن محبة العلماء العاملين من الدين ، كما قال علي رضي الله عنه لكميل بن زياد : ومحبة العالم دين يدان بها . .)[2] ، لأن (. . من أبغض أهل العلم أحب هلاكهم ، ومن أحب هلاكهم فقد أحبّ أن يطفيء نور الله في الأرض وتظهر فيها المعاصي والفساد . .)[3] ، لأن الذي (. . يبغض المؤمن والعالم عصاة الثقلين ؛ لأن معصيتهم لله اقتضت تقديم أهوائهم على محبة الله وطاعته فكرهوا طاعة الله وأهل طاعته ، ومن أحب الله وأحب طاعته أحب أهل طاعته ، وخصوصاً من دعا إلى طاعته وأمر الناس بها)[4] .

ومما يزيد المحبة تذكر المحبوب على الدوام وعدم نسيانه ؛ لأن المحب اسم محبوبه لا يغيب عن قلبه . فلو كلف أن ينسى ذكره لما قدر ، ولو كلف أن يكف عن ذكره بلسانه لما صبر)[5] ؛ لأن قلبه قد أشرب المحبة الكاملة وجرت في دمه وعروقه فإذا (. . سمع ذكر اسم حبيبه من غيره زاد طربه وتضاعف قلقه . .)[6] . (. . فقلوب المحبين لا تطمئن إلا بذكره ، وأرواح المشتاقين لا تسكن إلا برؤيته . .)[7] .

---

(١) ما ذئبان جائعان : ٣٥ .

(٢) ورثة الأنبياء : ٨٣ .

(٣) المرجع السابق : ٨٥ .

(٤) المرجع السابق : ٨٠ .

(٥) جامع العلوم والحكم : ٣٨٨ .

(٦) المرجع السابق : ٣٨٩ .

(٧) جامع العلوم والحكم : ٣٨٩ .

وحب كلام الله عز وجل يورث محبته؛ لأنه (.. لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم وغاية مطلوبهم)[1]. والدنيا لا تشغل المحبين لله عز وجل عن حبهم له سبحانه. (.. قال فتح الموصلي: المحب لا يجد مع حب الله للدنيا لذة، ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين..)[2].

ومجاهدة أعداء الله تورث حبه؛ لأن في مجاهدتهم تخليص الناس من شرهم، ومتى ما تخلصوا من شرهم توجهوا إلى الله عز وجل (.. فالمحب لله يحب اجتلاب الخلق كلهم إلى الله)[3].

والخلوة وذكر الله تورث حبه، فالمحبون (يستوحشون من كل شاغل يشغل عن الذكر، فلا شيء أحب إليهم من الخلوة بحبيبهم)[4].

والمحبة تقوى وتزيد كما أنها تنقص وتضعف، فالاشتغال بالذكر يقويها ويزيدها (.. إذا قوي حال المحب ومعرفته لم يشغله عن الذكر بالقلب واللسان شاغل، فهو بين الخلق بجسمه وقلبه معلق بالمحل الأعلى)[5].

وهذا ما يسميه سيد قطب رحمه الله بالعزلة الشعورية.. (قال الحسن: أحَبُّ عباد الله إلى الله أكثرهم له ذكراً وأتقاهم قلباً)[6].

(.. قال الربيع بن أنس: عن بعض الصحابة: علامة حب الله كثرة

---

(١) المرجع السابق: ٣١٨.
(٢) المرجع السابق: ٣١٧.
(٣) المرجع السابق: ٣١٨.
(٤) المرجع السابق: ٣٩٠.
(٥) المرجع السابق: ٣٩٠.
(٦) المرجع السابق: ٣٨٧.

ذكره؛ فإنك لن تحب شيئاً إلا أكثرت ذكره. قال فتح الموصلي: المحب لله لا يغفل عن ذكر الله طرفة عين. وقال إبراهيم الجنيد: كان يقال من علامة المحب لله دوام الذكر بالقلب واللسان، وقلما ولع المرء بذكر الله إلا أفاد منه حب الله)[1].

الخوف:

ينبغي للمؤمن أن يوجه كل عواطفه ومشاعره وأحاسيسه وجهة إيمانيه، فلا يخاف إلا الله عز وجل، ولا يخاف إلا على نفسه إن فرطت في حق من حقوق الله أو فرطت في واجب من الواجبات الشرعية أو ضاع جزء من وقته في غير طاعة الله عز وجل. وهناك تلازم بين معرفة الله عز وجل والخوف منه (. . فمن كان بالله أعرف فله أخوف، وفيما عنده أرغب، فهو أفضل ممن دونه في ذلك وإن كثر صومه وصلاته)[2].

والخوف من الله سبحانه يهذب السلوك ويقوم العمل ويجعل الإنسان يسلك الطريق السوي، فهذا الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي ملأت سيرة عدله الأرض طولاً وعرضاً كان يخاف من الله خوفاً يجعله ينتفض كالعصفور (. . سئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز بعد وفاته عن عمله فقالت: والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا بأكثر صياماً، ولكن والله ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف، حتى نقول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم)[3]، والخوف من الله هو (. . أصل كل خير في الدنيا والآخرة. .)[4].

---

(١) المرجع السابق: ٣٨٧.

(٢) لطائف المعارف: ٢٦٩.

(٣) المرجع السابق: ٢٦٩.

(٤) جامع العلوم والحكم: ٣٨٢.

ومما يورث الخوف تقليل الطعام والشراب: (.. قال الحسن بن يحيى الخشني: من أراد أن تغزر دموعه ويرق قلبه فليأكل وليشرب في نصف بطنه..)[1].

ولقد كان السلف يخافون من الله عز وجل، ولا يركنوا إلى الدنيا، ولا يخدعون بها، ولا يتنافسون في حطامها الزائل لأنها فانية، وكل ما عليها فان (.. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً يمشي ووراءه قوم من كبار المهاجرين فالتفت إليهم فخروا على ركبهم هيبة له، فبكى عمر رضي الله عنه وقال: اللهم إنك تعلم أني أخوف لك منهم فاغفر لي)[2].

الحـــــــزن:

(الحُزْنُ، والحَزَن: ضد السرور، وقد حَزِن من باب طَرِب)[3].

يرى ابن رجب رحمه الله تعالى أن (الحزن والأسى والبكاء يكون على فوات الدرجات العلى والنعيم المقيم)[4]. فالمؤمن ينبغي أن يشتاق إلى لقاء ربه ويفرح بقدومه عليه، ويحزن إذا صد عن سبيل الله وما يوصل إلى مرضاته.

(.. قال الفضيل بن عياض: المؤمن في الدنيا مهموم محزون..)[5] لأنه يخشى سوء الخاتمة ولا يأمن على نفسه الفتنة في الدنيا كما جاء في الحديث: «ومنكم من يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها

---

(١) المرجع السابق: ٣٧٣.

(٢) ما ذئبان جائعان: ٦٣، ٦٤.

(٣) مختار الصحاح، الرازي، مادة: «حزن».

(٤) لطائف المعارف: ٢٥٩.

(٥) كشف الكربة: ٢٨.

إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . . »[1] .
وقال ﷺ : «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء»[2] ، لذا كان يكثر من قول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على الإيمان»[3] . ومن قعدت به همته عن نيل الدرجات العلى وانقطعت به أعماله فعليه أن يحزن لحاله ويبكي سوء فعاله ؛ لأنه (. . يحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق ، ولمن شاهد السائرين إلى ديار الأحبة وهو قاعد أن يحزن)[4] .

وهناك ارتباط بين التسخط والشك وبين الهم والحزن (. . فإن الله بقسطه جعل الهم والحزن في الشك والسخط . .)[5] .

الفـــــرح:

جاء في اللغة : (فَرِح به سُرَّ . . من باب طَرِب . وأفرحه وفرَّحه تفريحاً أي سرَّه . يقال : ما يسرني بهذا الأمر)[6] .

والفرح من المشاعر العاطفية ، فالنفس تفرح بتمكنها بما يلائمها طبعاً إذا كان هذا بعد منعها عنه ؛ لأن (. . النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح ، فإذا منعت من ذلك في وقت من الأوقات ثم أبيح لها في وقت آخر فرحت بإباحته . . خصوصاً عند

---

(١) الحديث في صحيح الجامع برقم (١٥٤٣) وبرقم (٢٤٢٣) .
(٢) الحديث في صحيح الجامع ، برقم (٢١٤١) .
(٣) الحديث في صحيح الجامع برقم (٧٩٨٧) .
(٤) لطائف المعارف : ٢٥٣ .
(٥) ما ذئبان جائعان : ١٣ .
(٦) مختار الصحاح ، الرازي ، مادة : «فرح» .

اشتداد الحاجة إليه، فإن النفوس تفرح بذلك طبعاً، فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً شرعاً)[1].

للمؤمن مواسم أفراح يفرح فيها، ومنها العيد فهو (.. موسم الفرح والسرور)[2]. وقد ورد في الحديث: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه..»[3]).

لكن الفرح الذي لا يعدله شيء هو الفرح بطاعة الله عز وجل ورضاه؛ لأن (.. أفراح المؤمنين وسرورهم في الدنيا إنما هو بمولاهم إذا فازوا بكمال طاعته وحازوا ثواب أعمالهم بوثوقهم بوعده لهم عليها بفضله ومغفرته كما قال تعالى: ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**﴾[4])[5].

والناس متفاوتون في توجيه فرحهم: فمنهم من يفرح إذا حصل على شيء من ملذاته وشهواته.. ومنهم من يفرح بالعصمة والطاعة. ومنهم من يفرح بلهوه وهواه، فهو الغافل عن مصيره ومعاده.

(.. قال بعض العارفين: ما فرح أحد بغير الله إلا لغفلته عن الله عز وجل، فالغافل يفرح بلهوه وهواه)[6]. أما (العاقل فيفرح بمولاه[7].

واليقين والرضى كل منهما يوجب للمرء الفرح والسرور: (.. إن الله بقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى..)[8].

---

(١) لطائف المعارف: ١٦٤، ١٦٥.
(٢) المرجع السابق: ٢٨٥.
(٣) الحديث رواه مسلم.
(٤) سورة يونس، الآية [٥٨].
(٥) لطائف المعارف: ٢٨٥.
(٦) المرجع السابق: ٢٨٥.
(٧) المرجع السابق: ٢٨٥.
(٨) ما ذئبان جائعان: ١٣.

هـ - نمـــو البـــدن

* التمهيـــــد .
* تربية البدن .
* من وسائل تدبير أمر البدن .



تمهيد

إن التربية الإسلامية تهتم ببناء شخصية المسلم من جميع جوانبه: روحه وعقله وبدنه وعاطفته.. لا تنمي جانباً على حساب الجانب الآخر، لذا فإنها تحقق التوازن والشمول.

تربية البدن:

فالبدن له أهمية بالغة؛ «وإن لجسدك عليك حقاً»[1]؛ وله حقوق لا يصح التهاون بها، والله قد أوضح في محكم التنزيل أن الإنسان هو مجموع الروح والجسد. قال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾[2].

ولا يصح تكليف البدن فوق طاقته حتى ولو كان هذا التكليف من جنس العبادة والطاعة؛ لأن: (.. من تكلف من العبادة ما يشق عليه حتى تأذى بذلك جسده فإنه غير مأمور بذلك)[3].

بل: (.. من تكلف من التطوع ما يتضرر به في جسمه... فإنه ينهى عن ذلك)[4]. ولا يصح فعل النوافل الكثيرة التي تجهد البدن

---

(١) الحديث في صحيح الجامع برقم (٧٩٤٢).

(٢) سورة ص، الآية [٧١، ٧٢].

(٣) لطائف المعارف: ٢٦٣.

(٤) المرجع السابق: ٢٦٨.

وتجعله عاجزاً عن القيام بالواجبات المناطة به، لكن إذا احتمل البدن هذه الكثرة من النوافل ولـم تمنعه عن أداء الواجبات، لـم ينه عن هذا (.. فمن احتمل بدنه ذلك ولـم يمنعه من حق واجب عليه لـم ينه)[1]. إذا منعه عن فـعل مـا هو أفـضل (.. من ذلك من النوافل فـإنه يرشـد إلى عـمل الأفضل)[2]؛ لأن (.. أحـوال الناس تختلف فـيمـا تحـمل أبدانـهم من العمل)[3].

وعلى المؤمن أن يجم بدنه ويريحه حتى يتمكن من المحافظة على قوته وصحته ويستطيع القيام بحقوق وواجبات العبادة وغير ذلك من الأمور الواجبة للغير.

من وسائل تدبير أمر البدن:

من هذه الوسائل ملاحظة غذائه من حيث النوعية والكمية؛ فلا يزيد في الطعـام عن حـاجـتـه الضـرورية حـتى لا يقع فـي مـرض من أمـراض التـخمـة، فـالمعـدة هي بيت الـداء، فـ(.. الحـمية رأس الدواء، والبطنة رأس الداء)[4].

وليس من الصحة إدخال الطعام على الطعام، قال الحارث بن كلدة: (... الذي قـتل البَريَّة وأهلك السـبـاع فـي البـرِّيَّة إدخـال الـطعـام على الطعام قبل الانهضام)[5].

فـالتخمـة كم أهلكت ودمرت من الناس، فلو (.. قـيل لأهل القبـور

(١) المرجع السابق: ٢٦٩.
(٢) المرجع السابق: ٢٦٩.
(٣) المرجع السابق: ٢٦٩.
(٤) جامع العلوم: ٣٧١.
(٥) المرجع السابق: ٣٧١.

ما كان سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم. .)[1].

ولقد عرف السلف الأضرار الناجمة من التخمة، لذا فقد كانت لهم توجيهات جديرة بالتأمل: (. . عن أبي عبيدة الخواص قال: حتفك في شبعك وحفظك في جوعك. .)[2].

ثم أخذ يفسر ويوضح ويقول: (. . إذا أنت شبعت ثقلت فنمت استمكن فيك العدو فجثم عليك، وإذا أنت تجوعت كنت للعدو بالمرصاد)[3].

و(. . عن الشافعي قال: ما شبعت منذ ستة عشر سنة، لأن الشبع يثقل البدن، ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة. .)[4].

(. . وعن عثمان بن رائدة قال: كتب إليَّ سفيان الثوري: إن أردت أن يصح جسمك ويقل نومك فأقلل من الأكل)[5]، والإفراط في الأكل له أضرار غير هذا، فالضرر ليس على البدن فحسب بل القلب يتأثر بذلك أيضاً. فالشبع (. . يميت القلب. .)[6].

وقلة الأكل تفيد كثيراً في رقة القلب وخفة البدن وشفافية الروح؛ (. . فإن قلة الغذاء توجب رقة القلب وقوة الفهم وانكسار النفس

---

(١) المرجع السابق: ٣٧١.
(٢) المرجع السابق: ٣٧١.
(٣) المرجع السابق: ٣٧١.
(٤) المرجع السابق: ٣٧٣.
(٥) المرجع السابق: ٣٧٢.
(٦) المرجع السابق: ٣٧٤.

وضعف الهوى والغضب، وكثرة الغذاء يوجب ضد ذلك)[1].

وهناك ارتباط بين الخمول والكسل وكثرة الطعام والإفراط فيه (.. إن كثرة الطعام يثقل صاحبه عن كثير مما يريد..)[2].

فيكون الإنسان عندئذ عاطلاً كسولاً خاملاً ذا إرادة هزيلة مهزوزة لا تقوى على شيء فيصبح الإنسان بعد ذلك ضعيفاً لا يقوى على شيء من العبادات وغيرها، فمن (.. ملك بطنه ملك الأعمال الصالحة كلها. وكان يقال لا تسكن الحكمة معدة ملأى)[3].

هذه التوجيهات من سلفنا بخصوص التحذير من البطنة والشبع حتى تسلم للبدن قواه وللقلب سلامته، استمدوها من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال: (.. «لم يخلق الله وعاء إذا ملىء شراً من بطن، فإذا كان لا بد فاجعلوا ثلثاً للطعام وثلثاً للشراب وثلثاً للريح»[4]... وهذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها. وقد روى أنّ ابن أبي ماسويه الطبيب لما قرأ هذا الحديث في كتاب أبي خيثمة قال: لو استعمل الناس هذه الكلمات لسلموا من الأمراض والأسقام، ولتعطلت المارشايات ودكاكين الصيادلة)[5].

وقال بعض السلف: (.. لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتناموا كثيراً فتخسروا كثيراً)[6].

---

(١) المرجع السابق: ٣٧١.

(٢) المرجع السابق: ٣٧١.

(٣) جامع العلوم والحكم: ٣٧١.

(٤) ابن ماجة، كتاب الأطعمة.

(٥) المرجع السابق: ٣٧٠.

(٦) المرجع السابق: ٣٧٣.

أرأيت هذا الترابط: فالمسلم ينبغي أن يكون عضواً متحركاً نافعاً صالحاً لنفسه ولغيره، فيبتعد عن كل ما هو مضر بصحته ونشاطه.

ومن تدبير أمر البدن أن لا يشرب بعد الأكل مباشرة؛ لأن لهذا الشرب أضرار خطيرة على البدن لأن (.. كثرة الشرب تجلب النوم وتفسد الطعام. قال سفيان: كل ما شئت ولا تشرب)[١].

هذا ما وقفت عليه من نصوص لابن رجب في النمو البدني، والله أعلم.

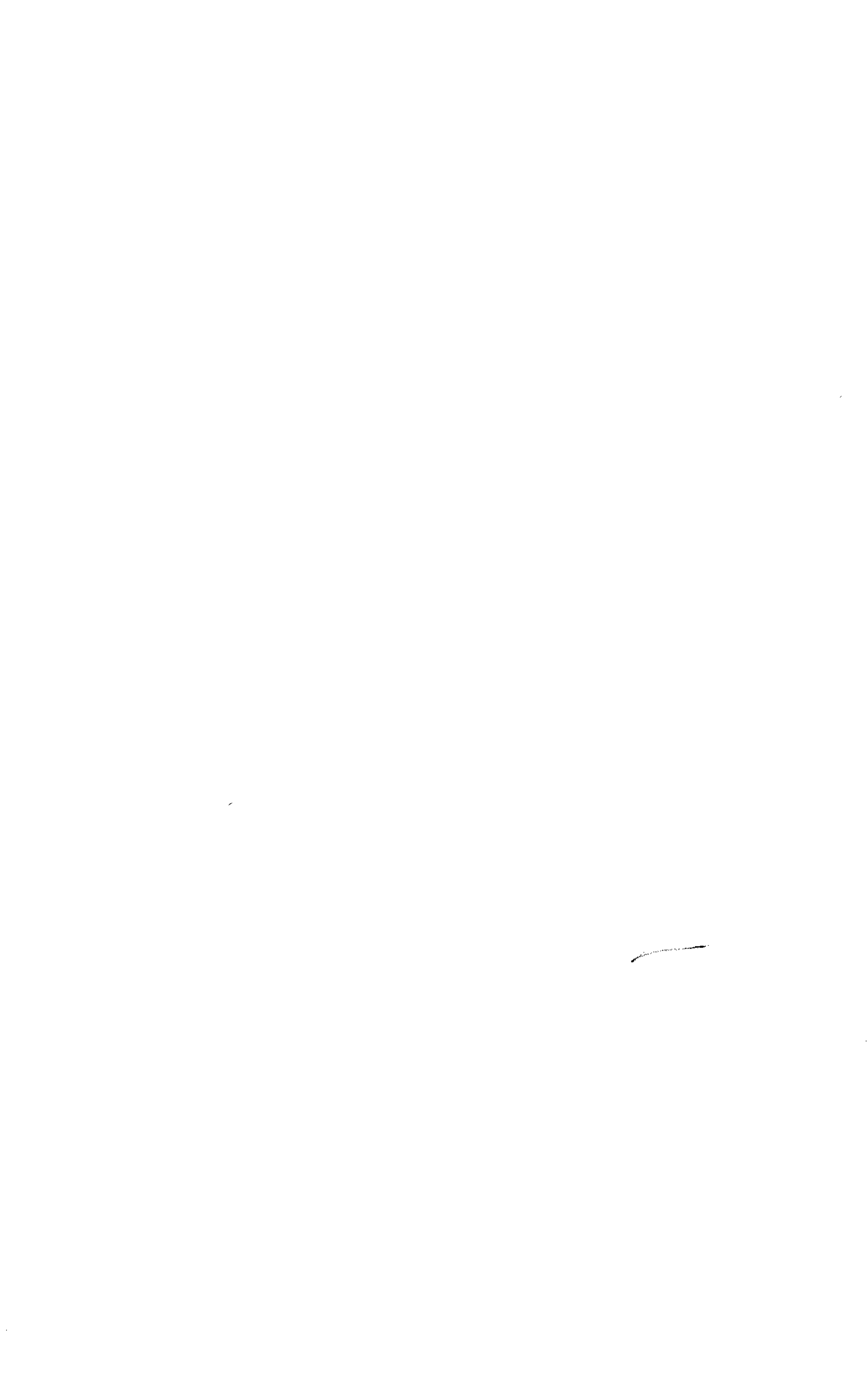
---

(١) المرجع السابق: ٣٧٣.



و - التربيـــة الجنســـية

* تمهيـــد .
* ميـــل فطـــري .
* المبـــاح والمحـــرم .
* الحـــث علـــى الـــزواج .



تمهيد

المقصود من الحديث في هذا الجانب بيان تدبير الإسلام في المحافظة على هذا الإنسان حتى يكون له نصيب من العفة والكرامة.

وفي صيانة هذا الإنسان صيانة للأسرة والمجتمع.

ميل فطري:

الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان وأودع فيه شهوة الميل إلى النساء، لذا فقد أباح له التمتع بالنساء بالطرق المباحة المشروعة من الزواج والاسترقاق، وحرَّم كل طريق غير مشروع في تلبية هذه الرغبة، وحرم كل ما يدعو إلى الحرام من النظر إلى الأجنبيات واعتبر النظر (.. سهماً من سهام إبليس..)[1]، وفي هذا صون للمجتمع من الفساد والسقوط في الرذيلة، وحماية للفرد من الغواية، وصيانة للأسرة من التفكك والضياع.

والمؤمن حينما يترك النظر المحرم خوفاً من الله عز وجل ورغبة في رضاه أعقبه إيماناً في قلبه يجد حلاوته وآثاره الطيبة في حياته كما يقول ابن رجب: (.. من تركه من خوف الله أعطاه إيماناً يجد حلاوته في قلبه)[2].

---

(١) لطائف المعارف: ١٦٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٣٩.

المباح والمحرم:

والله سبحانه الذي أودع هذه الغريزة في الإنسان جعل لها طرقاً مباحة حتى تشبع . وحرم طرقاً غير شرعية حفاظاً على الأفراد والأسرة والمجتمع ، فأباح الزواج ، وحرم في مقابله الزنا والسفاح ، وأباح إتيان ملك اليمين ، وقال سبحانه وهو يقرر أن هذه الغريزة قد أودعها الله في هذا الإنسان : ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء . .** ﴾ الآية[1] ، وحث على النكاح فقال : ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . .** ﴾ الآية [2] .

الحث على الزواج:

والرسول ﷺ قد حث من يستطيع مؤنة الزواج على النكاح فقال : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3] .

وهذا علاج للحد من ثورة الشهوة إذا كان الإنسان لا يجد من يعينه على الزواج أرشد إليه الرسول ﷺ حيث (. . جعل الصوم وجاء لقطعه عن شهوة النكاح)[4] .

هذا ما اطلعت عليه في هذا الجانب ، والله الموفق .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية [١٤] .

(٢) سورة النساء ، الآية [٣] .

(٣) الحديث في صحيح الجامع برقم (٧٩٧٥) .

(٤) لطائف المعارف : ١٦٣ .

الفصل السادس

وسائط التربية عند ابن رجب

* تمهيـــد .
* الأســـرة .
* المســـجد .
* مجـــالـــس العلمـــاء .
* الكتـــاب .
* مجالـــس الذكـــر .



تمهيـــــــــــــد

إن التربيـة التي يراها ابن رجب تتم من خلال قنوات تسـمى وسائط التربيـة أو المؤسسات التـربوية، وهي تعنى بتـربية جوانب متـعددة لدى الفرد ليتحقق له التوازن والتوافق مع نفسه وأسرته وبيئته ومجتمعه وقبل ذلك مع ربه وخالقه؛ ليحقق بذلك كله معنى العبودية لله ويكون داعية إلى دين الله عز وجل.

فهذه الوسائط التربوية تسهم إسهاماً مباشراً في تكوين الفرد الصالح والأسرة المسلمة والمجتمع المثالي. وهي كثيرة، ولكن سنذكر منها: الأسرة بصفتها محضن تربوي هام ولبنة أساسية في المجتمع المسلم، ومنها المسجد، ومجالس العلماء، ومجالس الذكر، والكتَّاب، كل ذلك حسبما أورد ابن رجب رحمه الله لأننا بصدد الكتابة عن فكره التربوي.

الأســــــــــرة:

وهي كما أشرنا المحضن التربوي الأول الذي يترعرع فيه الفرد وينشأ على القيم والمبادىء التي يتغذى بها في سنيّ عمره الأولى, والأسرة تسهم إسهاماً بالغ الأهمية في التربية، ويشارك الأب والأم والأبناء في هذه المسؤولية التربوية، ولقد كان سلفنا يجدون في هذه الأسر العون على الطاعة والحث على العبادة، فالزوج والزوجة كل منهما يحث الآخر على التسابق في الخيرات والتنافس في الطاعات، فقد (كان إبراهيم النخعي يبكي إلى امرأته يوم الخميس وتبكي إليه ويقول: اليوم تعرض

أعمالنا على الله عز وجل)[1]، وفي هذا إشارة إلى حديث للرسول ﷺ الذي ورد فيه أن «أعمال العباد تعرض على الله تعالى في يومي الخميس والاثنين»[2].

إن التربية الأسرية التي تسعى التربية الإسلامية إلى تأسيسها وبنائها تستمد مبادءها من سيرة المصطفى ﷺ الذي كان قمة في التواضع واللطف ولين الجانب والشفقة والرحمة على الأطفال الصغار، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن جعفر قال: « . . كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل المدينة، وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه، فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة . . . وفي المسند وصحيح الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أقبلنا من مكة في حج أو عمرة فتلقانا غلمان من الأنصار كانوا يستقبلون أهليهم إذا قدموا»[3])[4].

فالأسرة المسلمة يشفق كبارها على صغارها، ويحترم صغارها كبارها، ويحبونهم ويجلونهم، وهذه القيم الأخلاقية متى ما توفرت في الأسرة أقامت جسراً من الثقة بين الصغار والكبار فيها، وبموجب ذلك يتلقى الصغار التوجيه من الكبار ويتأثرون بنصحهم ويستفيدون من توجيههم وينشأون على قيم التربية التي يلقونها منهم.

وينشأ الأطفال على ما يعودونهم عليه آباؤهم وأمهاتهم، فالأطفال يميلون إلى تقليد الكبار، فإذا رأوا كلاً من الأب والأم يحافظ على أداء

---

(١) لطائف المعارف: ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) مسند أحمد ٤/ ٥.

(٤) لطائف المعارف: ص ٦٣ ـ ٦٤.

الفرائض والاستزادة من النوافل تأثروا بذلك أيما تأثير، وقد حث الإسلام كلاً من الرجل والمرأة على أن يكون معواناً لصاحبه، فالرجل يوقظ زوجته لقيام الليل، وهي توقظه كذلك، ولقد (.. «ورد الترغيب في إيقاظ أحد الزوجين صاحبه للصلاة ونضح الماء في وجهه»[1]، وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: «الصلاة الصلاة»، ويتلو هذه الآية: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾ الآية[2])[3].

المسجد:

للمسجد أهمية في التربية الإسلامية، ولقد عرف الرسول ﷺ رسالته في التربية والتعليم والتهذيب والتوجيه، فكان أول عمل قام به عند وصوله المدينة بناء المسجد حيث أصبح فيما بعد مكاناً للصلاة والقراءة والذكر. ومدرسة للتربية والتعليم ومنتدى للشورى، ولقد حث عليه الصلاة والسلام على ارتياد المساجد والجلوس فيها لقراءة القرآن والذكر والعبادة فقال: «ما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله...»[4].

يقول ابن رجب: عن الجلوس في المساجد (هذا يدل على استحباب الجلوس في المساجد لتلاوة القرآن ومدارسته)[5].

ومن أساليب رسول الله ﷺ في التربية والتعليم أنه أحياناً يأمر من يقرأ وهو يستمع ويتابع ويتدبر تلاوته.

---

(١) الحديث في صحيح الجامع برقم (٣٤٩٤).

(٢) سورة طه، الآية [١٣٢].

(٣) لطائف المعارف: ٢٠٢.

(٤) الحديث رواه مسلم.

(٥) جامع العلوم والحكم: ١٠١.

يقـول ابن رجب: (وقـد كـان النبي ﷺ أحيـاناً يأمر من يقـرأ القرآن ليسمع قـراءته كـمـا كـان ابن مـسـعـود يقـرأ عليـه، وقـال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»[1])[2].

ولقد كان المسجد في عصر النبوة حافلاً بحلق الذكر ومجالس التربية، ولقد: (خـرج رسول الله ﷺ فدخل المسـجد فإذا هو بحلقتين إحداهما يقرأون القرآن ويدعون الله وأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي: «كل على خير، هؤلاء يقرأون القرآن ويدعون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلماً» فجلس معهم)[3] وفي هذا أيضاً حث من رسول الله ﷺ وتشجيع للتعلم والتعليم.

وللمسجد رسالة تربوية قاموا بأدائها منذ تأسيس أول مسجد، فهو على مر العصور والأزمان يؤدي هذه الرسالة. وهذه الرسالة للمسجد تثمر وتنتج في فترة زاهية من تاريخ الإسلام وتخبو وتقل ثمارها في فترات معتمة جامدة يقل فيها الإنتاج العلمي والثقافي ويضعف البناء الروحي بسبب تعطيل رسالة المسجد أو الحد منها.

ولقد عرف السلف أهمية المسجد ورسالته في التربية والتعليم فهيئوا كافة السبل للمسجد حتى يحقق رسالته ودرّسوا فيه شتى العلوم والمعارف ومكّنوا للعلماء من مزاولة هذه الرسالة، فهذا عمر رضي الله عنه: «كان يأمر من يقرأ عليه وعلى أصحابه وهم يستمعون، تارة يأمر أبا موسى، وتارة يأمر عقبة بن عامر... وروى يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه قال: كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً يقرأون القرآن

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري، جـ٩، ص ٨٥.

(٢) جامع العلوم والحكم: ٣٠١.

(٣) الحديث في ضعيف الجامع، رقمه (٤٢٤٢).

(٤) ورثة الأنبياء: ٢٢٦.

ويتعلمون الفرائض والسنن ويذكرون الله تعالى . . .)[1] .

وفي هذا توضيح لمواد المنهج التعليمي الذي يسيرون عليه وهو عبارة عن: تلاوة القرآن، وتعلم الفرائض، ودراسة السنة، والذكر والدعاء. ولقد كانوا يحرصون على حضور حلق العلم ودراسة القرآن في المساجد، لأنهم قد وعوا حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «ما من قوم صلوا صلاة الغداة ثم قعدوا في مصلاهم يتعاطون كتاب الله ويتدارسونه إلا وكَّل الله بهم ملائكة يستغفرون لهم حتى يخوضوا في حديث غيره»[2])[3] .

وفي هذا بيان لأهم وقت من أوقات دراسة العلم، ألا وهو وقت الفجر وبعد الصلاة مباشرة.

يقول ابن رجب عن هذا الوقت: (. . وهذا يدل على استحباب الاجتماع بعد صلاة الغداة لمدارسة القرآن)[3] . وهذا يؤيده قول الله تعالى: ﴿**إن قرآن الفجر كان مشهوداً**﴾[4] .

ولقد حث الصحابة رضوان الله عليهم على غشيان هذه المجالس في المساجد، وكانوا يرون أن المجتمعين فيها هم على إرث محمد ﷺ. ولقد رأى عبد الله بن مسعود قوماً في: (. . . المسجد يتعلمون فقال رجل: علام اجتمع هؤلاء؟ فقال: على ميراث محمد ﷺ يقتسمونه»[5] .

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٣٠١.

(٢) ورد بمعناه في الترمذي، كتاب أبواب السفر، ٢/ ٤٨١ .

(٣) جامع العلوم والحكم: ٣٠١.

(٤) سورة الإسراء، الآية [٧٨].

(٥) ورثة الأنبياء: ١٣٥

و(قد كان زيد بن أسلم من أجلة علماء المدينة، وكان له مجلس في المسجد يذكر فيه التفسير والحديث والفقه وغير ذلك)[1].

وهذا الكلام يضيف على ما ذكر سابقاً من مواد المنهج التفسير والفقه وغير ذلك، وقد كان رسول الله ﷺ يجلس مع أصحابه في المسجد مجالس عبادة وذكر وتعلم وتعليم.

يقول ابن رجب: (كانت مجالس النبي ﷺ مع أصحابه بما فيها مجالس تذكير بالله وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة وتعليم ما ينفع في الدين، كما أمره الله تعالى في كتابه أن يذكر ويعظ ويقص وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يبشر وينذر)[2].

نعم إنها مدرسة النبوة معلمها المصطفى ﷺ ومنهجها القرآن والسنة وهدفها التذكير بالله والترغيب فيما عنده والترهيب من عقاب الله، ومن أساليبها الموعظة الحسنة والقصة المؤثرة المشوقة والدعوة بالحكمة واللطف واللين.

ومما يوضح رسالة المسجد في مجال التربية والتعليم ما جاء في قول ابن رجب: (... ويدخل في قوله: «والجلوس في المساجد بعد الصلوات» الجلوس للذكر والقراءة وسماع العلم وتعليمه ونحو ذلك لا سيما بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس؛ فإن النصوص قد وردت بفضل ذلك وهو شبيه بمن جلس ينتظر صلاة أخرى لأنه قد قضى ما جاء المسجد لأجله من الصلاة وجلس ينتظر طاعة أخرى)[3].

---

(١) المرجع السابق: ٦٧.

(٢) لطائف المعارف: ٩، ١٠.

(٣) اختيار الأولى: ٦٨.

ولقد كان رسول الله ﷺ يدعو إليه أصحابه ليجتمعوا إليه في المسجد حتى يعلمهم ما يجهلونه من أمر الدين، فمرة طلب منهم أن يحتشدوا في المسجد حتى يقرأ عليهم سورة الإخلاص، فاجتمعوا فعلمهم السورة وبين لهم مكانتها.

يقول ابن رجب: (... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتشدوا فإني سأقرأ عليكم بثلث القرآن فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء. ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: «إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن»(١). أي تعدل ثلث القرآن في أجر التلاوة والثواب.

ومن أعظم ما يعلم في المسجد الفقه، فهو العلم الذي يبين الحلال والحرام فينتفع الناس بذلك.

يقول ابن رجب: (الفقه ... مجالسه من أفضل مجالس الذكر التي هي رياض الجنة، وهي أفضل من مجالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية، والذكر المجرد تطوع محض. وقد دخل بعض السلف مسجد البصرة فرأى فيه حلقتين في أحدهما قاص، وفي الأخرى فقيه يعلم الفقه، فصلى ركعتين واستخار الله في الجلوس إلى إحداهما فنعس فرأى في منامه من يقول له: (أو قد سويت بينهما، إن شئت أريتك مقعد جبريل من فلان، يعني الفقيه الذي يعلم العلم»[٣].

---

(١) الحديث في صحيح الجامع، رقمه (١٩٧).

(٢) ثلاث رسائل لابن رجب: ٧٦.

(٣) ورثة الأنبياء: ٦٦.

ولقد كان المسجد يمارس مهامه ويؤدي رسالته في مجال التعليم والتثقيف والتربية عبر القرون المفضلة، فأهل مكة وأهل الشام وأهل حمص وأهل البصرة كانوا يجتمعون في المسجد لمدارسة القرآن وتعلمه، وبالذات بعد صلاة الفجر (. . . ذكر حرب أنه رأى أهل دمشق وأهل حمص وأهل مكة وأهل البصرة يجتمعون على القرآن بعد صلاة الصبح)[1].

وأهل هذه البلدان يختلفون في طريقة الدراسة والتعلم، فأهل (. . . الشام يقرأون القرآن كله جملة من سورة واحدة بأصوات عالية، وأهل البصرة وأهل مكة يجتمعون فيقرأ أحدهم عشر آيات والناس ينصتون، ثم يقرأ آخر عشر آيات حتى يفرغوا، قال حرب: وكل ذلك حسن جميل وله ما يؤيده من الأدلة)[2].

قال ابن رجب (. . . استدل الأكثرون على استحباب الاجتماع لمدارسة القرآن بالجملة بالأحاديث الدالةعلى استحباب الاجتماع للذكر، والقرآن من أفضل أنواع الذكر)[3].

وفي الاجتماع في المسجد في هذه المجالس آداب منها: أن الطالب أحق بمجلسه الذي يجلس فيه من غيره وأنه حق لا يقبل المنازعة. كما يقول ذلك ابن رجب في القواعد الفقهية: (الحقوق خمسة أنواع. . والنوع الرابع: وهو عبارة عما يختص مستحقه بالانتفاع به ولا يملك أحد مزاحمته فيه وهو غير قابل للشمول والمفاوضات، يدخل تحت ذلك صور

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٣٠١-٣٠٢.

(٢) المرجع السابق: ٣٠٢.

(٣) المرجع السابق: ٣٠٢.

منها الجلوس في المساجد ونحوها لعبادة أو مباح فيكون الجالس أحق بمجلسه إلى أن يقوم عنه باختياره قاطعاً الجلوس، أما إن قام لحاجة عارضة ونيته الرجوع فهو أحق بمجلسه)[1].

مجالس العلماء:

مجالس العلماء كانت حافلة بالعلوم النافعة والدروس المفيدة، وكان الناس يرتادونها على كافة طبقاتهم الاجتماعية وشتى مستوياتهم العلمية وتفاوت أعمارهم وأفكارهم، (كان أبو السوار في مجلسه جموع من الناس يتذاكرون العلم ومعهم فتى شاب فقال لهم: قولوا سبحان الله، والحمد لله. فغضب أبو السوار، وقال: ويحك! في أي شيء كنا إذاً؟)[2].

ومجالس العلماء من أهم وسائط التربية لأنها مجالس ذكر لله وتعليم وتربية فهي شبيهة بمجالس الأنبياء: (... قال سهل بن عبد الله: من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء)[3].

يقول ابن رجب في وصفها بأنها مجالس الذكر: (ومن مجالس الذكر مجالس العلم التي يذكر فيها تفسير القرآن وتروى فيها سنة رسول الله ﷺ)[4].

ولقد أوضح المنهج العلمي الذي يؤدى في مثل هذه المجالس حيث يشرك مع التفسير رواية الحديث لتعلم السنة من جهة ويتم العمل بها من جهة أخرى، كما أن التفسير وتعلم معاني القرآن يجتمع هذا مع تلاوة

---

(١) القواعد الفقهية، ابن رجب: ١٨٨ - ١٩٣.

(٢) ورثة الأنبياء: ٦.

(٣) المرجع السابق: ١٢٨.

(٤) المرجع السابق: ٦٥.

القرآن وتدريسه، وكذلك تدريس العقيدة وقضايا الإيمان فيقول ابن رجب وهو يصف هذا المنهج: (. . . فإن كان رواية الحديث مع تفسير معانيه فذلك أكمل وأفضل من مجرد التلاوة، ويدخل في الدين رواية ألفاظ كل علم مستنبط من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ سواء كان من علوم الإسلام التي هي الأعمال الظاهرة أو من علوم الإيمان التي هي اعتقادات باطنة، وأدلة ذلك وبراهينه المقررة في الكتاب والسنة أو من علوم الإحسان التي هي علم المراقبة والمشاهدة بالقلب، ويدخل في ذلك علم الخشية والمحبة والإنابة والرجاء والصبر والرضا وغير ذلك. . . وكل ذلك قد سماه النبي ﷺ في حديث سؤال جبريل له عن ذلك ديناً)[1].

ومجالس العلماء فيها الخير العظيم والعلم الوفير والهدى والنور، ولقد كان الواحد من علماء السلف يحث في مجالسه على طاعة الله والمداومة عليها وعدم الحيدة عنها، (قال الحسن: يا قوم المداومة المداومة. فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثم تلى هذه الآية: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾[2]. وقال أيضاً: نفوسكم مطاياكم، فأصلحوا مطاياكم تبلغكم إلى ربكم عز وجل)[3] وإصلاح النفوس يكون بتقوى الله وطاعته والسير على منهجه ومراقبته في كل صغيرة وكبيرة والبعد عما يغضبه، وعدم الركون إلى الدنيا والانغماس في ملذاتها والجري وراء شهواتها.

ولقد كان الناس الذين يحضرون هذه المجالس يستفيدون من الوعظ والإرشاد والتوجيه، ولقد (كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل

---

(١) ورثة الأنبياء: ٦٥.

(٢) سورة الحجر، الآية [٩٩].

(٣) المحجة في سير الدلجة: ٧١.

عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئاً)[١]. إنه التعليم بالقدوة الحسنة والشخصية المؤثرة، فتعليم الناس بلسان الحال أقوى من تعليمهم بلسان المقال فقط، فما أحوج أمة الإسلام اليوم إلى نماذج من طراز هذا العالم ممن يفرض احترامه على الناس وحبه وتقديره والثقة في علمه والاستفادة من توجيهه.

إن الدروس الإيمانية من مثل التذكير بالموت وأحوال القيامة كانت من الأمور التي تمارس في مثل هذه المجالس. فكانت مجالس الحسن البصري يرحمه الله يذكر الناس ويوعظهم ويرقق قلوبهم ويبين لهم نهاية ومصير كل حي ويقول لهم: (إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم فالتمسوا عيشاً لا موت فيه، وقال: فضح الموت الدنيا فلم يدع لذي لب بها فرحاً...)[٢].

والحسن البصري وأمثاله من علماء السلف كانت مجالسهم مجالس خير ورحمة وبر وطاعة بما يقومون به من حث الجالسين فيها على الإكثار من الطاعات وتقديم القربات لنيل رضا الله ومثوبته. فقد روى ابن رجب (عن الحسن قال: الملائكة يعملون لبني آدم في الجنان يغرسون ويبنون، فربما أمسكوا فيقال لهم: قد أمسكتم، فيقولون: حتى تأتينا النفقات. قال الحسن: فأتعبوهم بأبي أنتم وأمي على العمل)[٣].

وكان رحمه الله يتحدث عن الفروض وأركان الإسلام بجانب الوعظ والإرشاد، فمجالسه حافلة بشتى العلوم والمعارف، وقد سئل في إحدى مجالسه عن الحج المبرور وعن جزائه وكيف يكون مبروراً قال: (آية ذلك

---

(١) لطائف المعارف: ١٤.

(٢) لطائف المعارف: ١٠٢.

(٣) المرجع السابق: ٥٧.

أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. وقيل له جزاء الحج المغفرة؟ قال: آية ذلك أن يدع سيء ما كان عليه من العمل)[1]، وكأنه يشير بذلك إلى أن لكل عبادة مقتضى إذا أدت مقتضاها، فقد حققت غايتها حتى لا تكون الشعائر صوراً مجردة.

ولقد كان لمجالس العلماء هذه سلطة على القلوب والأرواح لما للعلماء من مكانة في قلوب الناس فكانوا قدوة للآخرين في العلم والعمل والسلوك والأخلاق ونضرب مثالاً بسيرة الحسن البصري يرحمه الله.

روى (ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال: ما نظرت ببصري ولا نطقت بلساني ولا بطشت بيدي ولا نهضت على قدميا حتى أنظر على طاعة الله أو معصيته، فإن كانت طاعة تقدمت وإن كانت معصية تأخرت)[2].

إنها التربية الذاتية والمراقبة الدقيقة والخشية من الله في السر والعلانية، فأفادوا من علمهم واستفاد الناس منهم، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن المربي المسلم ينبغي أن يكون مستقيماً على طاعة الله حريصاً على تعليم الناس بلسان الحال والمقال.

فما أحوجنا في مؤسساتنا التربوية اليوم إلى مربين من هذا الطراز، يجمع الواحد منهم من العلم الغزير والطريقة المثلى وحسن السيرة وسلامة السريرة فيكون قدوة لمن يربيهم ومثالاً يحتذى، فإنني آمل وأرجو من مربينا أن يعودوا إلى سيرة سلفنا وفي مقدمتهم قدوتنا النبي المصطفى ﷺ كيف كانوا في مجال التربية حتى نحذوا حذوهم

---

(١) المرجع السابق: ٦٠.

(٢) كلمة الإخلاص: ٣٥، ٣٦.

ونسير على منهجهم.

يقول ابن رجب: (كان بعض العلماء المشهورين له مجلس للوعظ، فجلس يوماً فنظر إلى من حوله وهم خلق كثير، وما منهم إلا من قد رق قلبه أو دمعت عينه، فقال لنفسه فيما بينه وبينها: كيف بك إذا نجا هؤلاء وهلكت أنت؟ ثم قال في نفسه: اللهم إن قضيت علي غداً بالعذاب فلا تعلم هؤلاء بعذابي، صيانة لكرمك لا لأجلي؛ لئلا يقال: عذب من كان في الدنيا يدل عليه)[١].

إنها التربية الذاتية والمحاسبة الدقيقة للنفس من هؤلاء العلماء الربانيين الذين يجعلون خوف الله والخشية منه نصب أعينهم، وما كانت الدنيا تجد في نفوسهم مكانة ولا يولونها أي اعتبار، فأعطاهم الله سعادة الدنيا وراحة القلب وطمأنينة النفس فتوجهوا إلى تعليم الناس وتربيتهم من خلال مجالسهم التي كانوا يشعرون فيها بسعادة منقطعة النظير ويتعزون بها عن الدنيا التي لا يذكرونها ولا ينشغلون بحطامها، ولقد: (.. كان سفيان الثوري يتعزى بمجالسه عن الدنيا)[٢]... (وكان أحمد لا يذكر الدنيا في مجالسه ولا تذكر عنده...)[٣].

لقد عرف هؤلاء العلماء أن من تمكنت الدنيا من قلبه أصمته وأعمته وهي كما يقال عنها السحارة التي تسحر قلوب العلماء. فعلماء السلف زهدوا فيها وأعرضوا عنها، ومن زهدهم أنهم تركوها خلف ظهورهم واستقبلوا الآخرة، ولقد كانوا يقولون إن من بلغ الستين من عمره فينبغي

(١) لطائف المعارف: ١٧.
(٢) المرجع السابق: ١٤.
(٣) المرجع السابق: ١٤.

أن يجعل الآخرة نصب عينيه وأن يتخذ له كفناً حتى لا يغفل عنها طرفة عين (. . . قال سفيان الثوري: من بلغ سن رسول الله ﷺ فليتخذ لنفسه كفناً)[1].

وهؤلاء العلماء على قدر ما يبذلونه من جهد بتعليم الناس وتوجيههم إلى الخير وتربيتهم على الإسلام، وبقدر ورعهم وزهدهم في الدنيا وعلى مالهم من سيرة حميدة مرضية كانوا يخشون ويخافون ويحذرون أنفسهم وغيرهم من الرياء المحبط للأعمال.

فهذا سفيان الثوري أحد هؤلاء العلماء يتلوا آية في كتاب الله ويقوم بتفسيرها ويحذر من الرياء أشد التحذير يذكر ذلك ابن رجب بقوله: (. . كان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية: ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾[2] ويل لأهل الرياء من هذه الآية)[3].

وهؤلاء العلماء كانوا يرون أن للطاعة عزاً وللمعصية ذلاً، فكان الواحد منهم يدعو الله أن يعزه بالطاعة ولا يذله بالمعصية فقد (. . . كان الإمام أحمد يدعو ويقول: (اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك، وكان عامة دعاء إبراهيم: اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة. . .)[4].

فبهذا السلوك المستقيم وهذا التوجه إلى الله والخوف على أنفسهم، وبهذا الفهم لآثار الطاعة ومضار المعصية، بهذا كله أصبحوا قدوة في

---

(١) لطائف المعارف: ١٠٥.

(٢) سورة الزمر، الآية [٤٧].

(٣) المحجة في سير الدلجة: ٩٣.

(٤) لطائف المعارف: ٦٣.

الخير وكان لهم ذلك التأثير البالغ على الجماهير من عامة المسلمين .

إن المجتمعات المسلمة اليوم في حاجة ماسة إلى علماء ربانيين ودعاة مصلحين ينزلون في الساحة الاجتماعية ليخالطوا الناس ويشخصوا أمراض النفوس وأدواء القلوب ويصفوا العلاج لها ويتذكروا قول الرسول ﷺ : «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١) .

فما أحوج الناس إلى من يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم إلى طريق هدايتهم ويدلهم على ما يرضي ربهم، وهذا لا يتم إلا عن طريق العلماء عندما يكونوا في أوساط الناس، ولقد كان يوصف الإمام أحمد رحمه الله بأنه رجل عامة، أي داخل في أوساط الناس، أما حينما يكون العلماء في بروج عاجية لا يتحسسون مشاكل الأمة، ولا يختلطون بأوساط الناس فأنى يكون التوجيه وكيف يحصل التعليم ويتم الإرشاد والنصح؟! .

وحتى يتم النصح على الوجه الأكمل وتؤتي التربية ثمارها فلا بد من إقامة جسر من الثقة والاحترام والمحبة والتوقير بين العامة والعلماء. أما إذا لم يحصل هذا فإن الأجيال اللاحقة تفقد الثقة في علمائها، وفي هذا خطر على الأمة وضياع لها وتهديد لمستقبلها .

الكتـــــــاب:

والكتَّاب من وسائط التربية الإسلامية، ولقد كان له نشاط ملموس في مجال التربية والتعليم منذ الصدر الأول في الإسلام، ودليل ذلك أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يمر على الغلمان في الكتاب ويطلب منهم الدعاء له ويؤمن على دعائهم لأنه يرى أنهم يعيشون مرحلة الطفولة

---

(١) ابن ماجه، كتاب الفتن .

ومرحلة البراءة لم تثقلهم الذنوب ولم تذلهم المعصية، فحري أن يجاب دعاؤهم ولا سيما وهو يؤمن على هذا الدعاء. أشار إلى ذلك ابن رجب في كتابه القيم أسباب المغفرة تحت عنوان: طلب الاستغفار ممن قلت ذنوبهم حيث قال رحمه الله: (كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول لغلمان الكتّاب: قولوا: «اللّهم اغفر لأبي هريرة»، فيؤمن على دعائهم)(١).

من هذا نستنبط أن الكتاب عرف منذ زمن الصحابة بوصفه مؤسسة تربوية للتلاميذ صغار السن الذين يحظون بتوجيه الكبار والتعلم منهم وأن التعليم يأخذ طابع التلقين، والتلقين أسلوب في التعليم جيد، إذا وجد من يحسن استعماله، والطفل في أول مراحل عمره يتعلم بأسلوب المحاكاة والتقليد والتلقين من معلمه. فيا حبذا لو أن معلمي المرحلة الابتدائية وبالذات في الصفوف الدنيا استفادوا من أسلوب التلقين هذا ووجهوه وجهة يفيدون بها تلاميذهم ويجعلونهم يجيدون مهارتي القراءة والكتابة.

مجالس الذكر:

وفيها يتعلم الناس العلم النافع وينالون الخير الوفير والأجر العظيم (... وفي مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة وتحف الملائكة ويذكر الله أهلها فيمن عنده، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، وربما رحم معهم من جلس إليهم وإن كان مذنباً وربما يكون فيهم باك من خشية الله فوهب أهل المجلس كلهم له، وهي رياض الجنة. قال النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»(٢))(٣).

---

(١) أسباب المغفرة، ابن رجب، تحقيق أشرف عبد المقصود، مكتبة الثقافة، الحجون، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، ص ٧٩.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات.

(٣) لطائف المعارف: ١١.

وهذه المجالس من يحضرونها على ثلاثة أصناف: (. . . فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر ولا يزداد هدى ولا يرتدع عن ردى، وهؤلاء أشر الأقسام، ويكون ما سمعوه حجة عليهم فتزداد به عقوبتهم وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ﴿. . . **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون**﴾[1].

ومنهم من ينتفع بما سمع وهم على أقسام، فمنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات ويوجب لهم[2] التزام الواجبات، وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين، ومنهم من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات والتورع عن دقائق المكروهات ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات وهؤلاء السابقون المقربون)[3].

وهذه المجالس تورث من ارتادها رقة في القلب وانكساراً للنفس وزهداً في الدنيا (. . . كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجالس سماع الذكر خرجوا وعليهم السكينة والوقار، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاماً عقب ذلك، ومنهم من كان يعمل بما سمعه مدة)[4].

(. . . خرَّج الإمام أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فآنسنا أهلنا وسمعنا أولادنا أنكرنا نفوسنا. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة النحل، الآية [١٠٨].

(٢) في المطبوع «له» ولعل الصواب ما ذكرنا.

(٣) لطائف المعارف: ١١.

(٤) لطائف المعارف: ١٣.

«لو أنكم إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلكم لزارتكم الملائكة في بيوتكم»)[1].

لقد كانت تلك المجالس توجب لأصحابها كما ذكر أبو هريرة رضي الله عنه رقة القلب، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فأما رقة القلب فتنشأ من الذكر، فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ويذهب بالغفلة عنه، قال الله تعالى: ﴿**الذين آموا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[2])[3]، وهذا يدخل في صميم التربية الإيمانية التي تسعى مؤسسات التربية إلى ترسيخ الإيمان في النفوس.

---

(١) المرجع السابق: ١٠.

(٢) سورة الرعد، الآية [٢٨].

(٣) لطائف المعارف: ١١.

الفصل السابع

المحتوى العلمي والمعرفي عند ابن رجب

* أهمية العلم.
* أنواع العلوم والمعارف.
* العلماء الربانيون.
* نشر العلم.
* طرق التعليم
* مصادر العلم النافع.
* ثبات العلم.
* مواسم العلوم.

أهميـــة العلـــم:

إن للعلم أهمية بالغة في الإسلام، فأول الآيات التي نزلت على الرسول ﷺ وهو في غار حراء. هي قول الله تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق...**﴾[1] تؤكد على هذه الأهمية للعلم في الإسلام، فأول (... ما نزل على محمد ﷺ ذكر العلم وفضله وهو قوله تعالى: ﴿**اقرأ...**﴾.

... وامتن الله على محمد بالعلم في مواضع كقوله تعالى: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً**﴾[2].

و أمره أن يسأل ربه علماً، فقال: ﴿**وقل رب زدني علماً**﴾[3])[4].

ولقد أظهر الله فضل آدم عليه السلام: (.. على الملائكة بالعلم حيث علمه أسماء كل شيء، واعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة ذلك)[5].

(... كذلك خواص الرسل إنما فضلوا على غيرهم بمزيد العلم المقتضي لزيادة المعرفة بالله وخشيته، وبهذا وصف الله في كتابه محمداً ﷺ ومدحه بالعلم الذي اختصه به وامتن به عليه في مواضع كثيرة وأمره أن يعلمه لأمته)[6].

---

(١) سورة العلق، الآية [١، ٢].

(٢) سورة النساء، الآية [١١٣].

(٣) سورة طه، الآية [١١٤].

(٤) ورثة الأنبياء: ١٠٩.

(٥) المرجع السابق: ١٠٧.

(٦) المرجع السابق: ١٠٨.

(قال مطرف: فضل العلم أحبُّ إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع... ونص كثير من الأئمة على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة)[1].

(... وتعلم العلم النافع وتعليمه أفضل من الصيام)[2]، وهذا العلم الذي له هذه الأهمية وهذه المكانة الرفيعة هو العلم بالله الذي يورث محبته وخشيته لأن (أصل العلم بالله الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه)[3] وهذا العلم هو أفضل العلوم وأجلها ويأتي بعده في المنزلة و(... يتلوه العلم بأحكام الله وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد)[4].

فالأول: علم أصول الدين، والثاني: علم أصول الفقه، ومجموع هذين العلمين هو العلم النافع.

يقول ابن رجب: (... فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه نافعاً، ومن فاته هذا العلم النافع صار علمه وبالاً وحجة عليه)[5].

ومما يوضح أهميـة هذا العلم أنه يدل على الله من أقرب الطرق وأوضحها، وبه تتحقق السعادة للعبد ويصل إلى الجنة التي أعدت للمتقين.

يقول ابن رجب: (إن العلم يدل على الله من أقرب الطرق وأسهلها،

---

(١) لطائف المعارف: ٢٧٠.
(٢) المرجع السابق: ١٣٠.
(٣) فضل علم السلف: ٧٩.
(٤) فضل علم السلف: ٦٩.
(٥) المرجع السابق: ٦٩.

فمن سلك طريقه ولم يعرج عنه وصل إلى الله وإلى الجنة من أقرب الطرق وأسهلها، فتسهلت عليه الطرق الموصلة إلى الجنة كلها في الدنيا والآخرة)[1].

إن العلم النافع هو كما قلنا العلم الذي يعرف العبد بربه حتى ولو كان من العلوم التطبيقية. قال تعالى: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[2].

وهذا ما يراه ابن رجب رحمه الله حيث قال: (.. العلم النافع ما عرف العبد بربه ودله عليه حتى عرفه ووحده وأنس به واستحى من قربه وعبده كأنه يراه)[3]. قال تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[4].

(والعلم النافع هو الذي يكون سبباً في تقوى الله، أما إذا لم يحقق ذلك فهو كسائر الأشياء، قال الثوري: إنما فضل العلم لأنه يتقى به الله وإلا كان كسائر الأشياء)[5]، (فغاية العلم معرفة الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته)[6].

ولا طريق يوصل إلى الله إلا طريق هذا العلم، وبه يحصل الفوز والرضوان والقرب من الرحمن.

يقول ابن رجب: (فلا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى

---

(١) ورثة الأنبياء: ٣٧.
(٢) سورة الذاريات، الآية [٢٠، ٢١].
(٣) فضل علم السلف: ٦٧.
(٤) سورة فاطر، الآية [٢٨].
(٥) ما ذئبان جائعان: ٣٦.
(٦) ما ذئبان جائعان: ٣٧.

رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع)[1].

ثم أوضح رحمه الله نوعية هذا العلم وأنه ما جاءت به الرسل فقال: (الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وهو الدليل عليه وبه يهتدى في ظلمات الجهل والشبه والشكوك)[2].

وفي هذا دليل على قيمة العلم وأهميته ومكانته حيث يهتدى به في الظلمات سواء ظلمات الجهل أو ظلمات الضلالة والغواية أو ظلمات الشبهات أو الشكوك والأوهام والخرافات.

وابن رجب يؤكد هذه الحقيقة ويكرر الحديث عن العلم النافع في مواضع شتى من كتبه وتراثه الفكري: (فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوقر فيه معرفة الله وعظمته وخشيته وإجلاله وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارح تبعاً له... إن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع)[3].

هذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن العلم له علاقة وثيقة بتنمية جوانب التربية، فهذا النص من كلام ابن رجب يدخل ضمن التربية الإيمانبة التي تحدثنا عنها في فصل سابق.

ولا يزال ابن رجب يعطي مزيداً من الإيضاح عن العلم النافع فيقول: (العلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته

---

(١) ورثة الأنبياء: ٣٨.
(٢) المرجع السابق: ٣٨.
(٣) ورثة الأنبياء: ٤٥.

ومحبته ورجاءه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال...

فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه والابتعاد عما يكرهه ويسخطه، فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا، فهو علم نافع. فمتى كان العلم نافعاً ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له وذل هيبة وإجلالاً وخشية ومحبة وتعظيماً)[1].

وهذا يدخل فيما يسمى بالتربية العاطفية بجانب مجيئه في التربية الإيمانية، وفي هذا دليل على مدى التكامل والشمول في الفكر التربوي عند علمائنا وسلفنا الصالح. ومما يدل على أهميته وقيمته أن طلبه و(... التماسه... سبب موصل إلى الجنة... وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ: («إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر»[2])[3].

وطلاب العلم تصلي عليهم الملائكة لأن مطلبهم عزيز غالٍ، ذو أهمية بالغة وقيمة عالية.

يقول ابن رجب: (إن الله وملائكته يصلون على أهل الذكر. والعلم من أفضل أنواع الذكر)[4].

وهذا العلم الذي نتحدث عنه إذا انتشر وفشى بين الناس وظهر على

---

(١) فضل علم السلف: ٦٤.

(٢) الحديث في ضعيف الجامع برقم (٦٩٩).

(٣) ورثة الأنبياء: ٥٨.

(٤) المرجع السابق: ٧٧.

وجه الأرض عم الخير بسببه (. . . ودرَّت البركات ونزلت الأرزاق فيعيش أهل الأرض كلهم حتى النملة وغيرها من الحيوانات ببركته، ويستبشر أهل السماء بما يرتفع من أهل الأرض من الطاعات والأعمال الصالحات فيستغفرون لمن كان السبب في ذلك)[1].

بل إن قيمة العلم تظهر على صاحبه بتقديمه على غيره حياً وميتاً، فلو مات اثنان: أحدهما من أهل هذا العلم والآخر ليس كذلك ودفنا في قبر واحد قُدِّم صاحب العلم على غيره، فقد كان الرسول ﷺ يجمع بين الرجلين من شهداء أحد يقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن» فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد»[2].

والعلم: (. . . مصباح يستضاء به في ظلمة الجهل والهوى، فمن سار في طريق على غير مصباح لم يأمن أن يقع في بئر بوار فيعطب)[3].

ولقد عرف سلفنا قيمة هذا العلم وأهميته في حياة الأمة المسلمة. قال ابن سيرين: (إن قوماً تركوا العلم واتخذوا محاريب فصلوا وصاموا بغير علم، والله ما عمل أحد منهم بغير علم إلا كان ما يفسد أكبر مما يصلح)[4].

إن معرفة السلف بهذه الأهمية للعلم والمكانة الرفيعة له والقيمة العظمى دفعهم ذلك إلى طلب الاستزادة منه، وأن طلبه أفضل من كثير من نوافل الطاعات.

---

(١) المرجع السابق: ٨٠.
(٢) تجريد الجامع الصحيح، الزبيدي ١/ ٩١.
(٣) لطائف المعارف: ١٣٠.
(٤) المرجع السابق: ١٣٠.

(عن أبي هريرة رضي الله عنه وأبي ذر رضي الله عنه قالا : لباب من العلم أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً .

وروي عن أبي الدرداء قال : مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة .

وعن الحسن قال : لأن أتعلم باباً من العلم فأعلمه مسلماً أحب إليَّ من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله تعالى)[1] .

(. . . وسئل الإمام أحمد : أيما أحب إليك أن أصلي بالليل تطوعاً أو أجلس أنسخ العلم؟ قال : إذا كنت تنسخ ما تعلم من دينك فهو أحب إليَّ وقال أيضاً : العلم لا يعدله شيء)[2] .

ويقول ابن رجب : (. . . ومما يدل على تفضيل العلم على جميع النوافل أن العلم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة)[3] .

وعندهم أن (. . . تعلم العلم النافع وتعليمه أفضل من الصيام . . . وقد نص الأئمة الأربعة على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ، والصلاة أفضل من الصيام المتطوع به ، فيكون العلم أفضل من الصيام بطريق الأولى)[4] .

وإذا كان العلم الظاهر يجعل لصاحبه منزلة وشرفاً في الدنيا ، (فإن العلم الباطن يجعل لصاحبه منزلة وزلفى عند الله في الآخرة)[5] .

---

(١) ورثة الأنبياء : ٩٧-٩٩ .
(٢) المرجع السابق : ١٠٢ .
(٣) المرجع السابق : ١٠٣ .
(٤) لطائف المعارف : ١٣٠ .
(٥) ما ذئبان جائعان : ٦٥ ، ٦٦ .

وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد إيماناً وتقى لله، (لأن زيادة المعرفة بما أنزل الله على رسوله توجب زيادة المعرفة بالله والإيمان به)[1].

أنـــواع العلـــوم والمعـــارف:

إننا نتحدث عن العلم النافع؛ وهو ما ورد عن الله وعن رسوله ﷺ فـ(معرفة ما أمر الله به وما يحبه ويرضاه وما يكرهه فيجب على كل من احتاج إلى شيء من ذلك أن يتعلمه، ولهذا روى.. «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2])[3].

و(إنه يجب على كل مسلم معرفة ما يحتاج إليه كالطهارة والصلاة)[4].

(... ويجب على كل من له مال معرفة ما يجب عليه في ماله من زكاة ونفقة وحج وجهاد. وكذلك يجب على كل من يبيع ويشتري أن يتعلم ما يحل ويحرم من البيوع كما قال عمر رضي الله عنه: لا يبع في سوقنا إلا من قد فقه في الدين.

وروي بإسناد فيه ضعف عن علي قال: الفقه قبل التجارة، إنه من اتجر قبل أن يتفقه ارتطم في الربا ثم ارتطم.

وسئل عبد الله بن المبارك: ما الذي يجب على الإنسان من تعلم العلم. ثم فسره وقال: لو أن رجلاً لم يكن له مال لم يكن عليه واجب أن

---

(١) ورثة الأنبياء: ١١٤.

(٢) الحديث في ضعيف الجامع برقم (٣٦٢٥).

(٣) المرجع السابق: ٦٠.

(٤) المرجع السابق: ٦١، انظر الإحكام في الأحكام لابن حزم ٥/ ٨٩٩-٩٠٢، الفقيه والمتفقه للخطيب ١/ ٤٦، شرح السنة للبغوي ١/ ٢٨٩، ٢٩٠، مفتاح دار السعادة ابن القيم ١/ ١٨٦، منهاج القاصدين، ص ١٨.

يتعلم الزكاة، فإذا كان له مائة درهم وجب عليه أن يتعلم كم يخرج؟ ومتى يخرج؟ وأين يضع سائر الأشياء على هذا.

سئل الإمام أحمد عن الرجل ما يجب عليه من طلب العلم؟ فقال: ما يقيم به صلاته وأمر دينه من الصوم والزكاة وذكر شرائع الإسلام، وقال: ينبغي عليه أن يتعلم ذلك. وقال أيضاً: الذي يجب على الإنسان من العلم ما لا بد له منه في صلاته، وإقامة دينه)[1].

أما الإمام الشافعي رحمه الله فيذكر أنواع العلوم فيقول: (من قرأ القرآن عظمت قيمته، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تفقه نبل قدره، ومن تعلم العربية رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه)[2].

والعلم منه ما هو نافع ومنه ما هو غير نافع، فقد: (جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وإلى غير نافع، والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع وسؤال العلم النافع.

ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[3]..

وخرج النسائي من حديث جابر عن النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع»[4])[5].

---

(١) ورثة الأنبياء: ٦١-٦٣.

(٢) المرجع السابق: ١٥٥، ١٥٦.

(٣) الحديث في صحيح الجامع برقم (١٢٨٦).

(٤) الحديث حسن في صحيح الجامع برقم (٣٦٣٥).

(٥) فضل علم السلف: ٢٢، ٢٣.

ولقد قسم العلماء العلم إلى (علم باطن وعلم ظاهر. فالعلم الباطن ما باشر القلب، فأثمر الخشية والخشوع والتعظيم لله والإجلال له والمحبة والأنس والشوق إليه، والظاهر ما كان على اللسان فبه تقوم حجة الله على الإنسان)[1].

وابن رجب رحمة الله عليه يوضح مفهوم العلم الظاهر فيقول: (أشار وهب بعلم الظاهر إلى علم الفتاوى والأحكام والحلال والحرام والقصص والوعظ وهو ما يظهر على اللسان)[2].

ثم بين ما يعود على الإنسان من فوائد هذا العلم وحثه على الاهتمام بعلم الباطن حيث: (... يوجب لصاحبه محبة الناس له وتقدمه عندهم، فحذره من الوقوف عند ذلك والركون إليه والالتفات إلى تعظيم الناس ومحبتهم، فإن من وقف مع ذلك فقد انقطع عن الله وانحجب بنظره إلى الخلق عن الحق، وأشار بعلم الباطن إلى العلم الذي يباشر القلوب فيحدث لها الخشية والإجلال والتعظيم، وأمره أن يطلب بهذا المحبة من الله والقرب منه والزلفى إليه)[3].

وقال رحمه الله في مكان آخر: يؤكد ما ذكر: (.. إن العلم قسمان: أحدهما: ما كان ثمرته في القلب... وهو العلم بالله تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله المقتضي لخشيته ومهابته وإجلاله والخضوع له ومحبته ورجاءه ودعاءه والتوكل عليه ونحو ذلك، وهذا هو العلم النافع..

والقسم الثاني: العلم الذي على اللسان وهو حجة الله لك أو

---

(١) ورثة الأنبياء: ٤٧.

(٢) ورثة الأنبياء: ٤٨.

(٣) المرجع السابق: ٤٨.

عليك، فأول ما يرفع من العلم النافع وهو علم الباطن الذي يخالط القلوب ويصلحها ويبقى علم اللسان حجة فيتهاون الناس به ولا يعملون بمقتضاه لا حملته ولا غيرهم ثم يذهب العلم بذهاب حملته..)[١].

وأشار بالقسم الثاني إلى جميع العلوم التي هي على اللسان يعلم صاحبه الناس ويبين لهم بلسانه وقوله وهذا حجة لصاحبه أو حجة عليه حسب التزامه به عملاً وتركاً، وهذا العلم هو الذي يذهب بموت العلماء، ولقد أورد ابن رجب قول الحسن البصري في هذا التوزيع فقال: (.. العلم كما قال الحسن علمان، علم اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب فذاك العلم النافع)[٢]، وكرر هذا التقسيم في فضل علم السلف على علم الخلف.

ثم أوضح رحمه الله بعض الاتجاهات الفاسدة والانحرافات الفكرية من أقوال أهل التصوف المنحرفين الذين يرون أن المعول على علم الباطن فقط.. حدثني قلبي عن ربي، ويردون كل ما جاء من مشكاة النبوة، وينتقدون أهل الحديث ويقولون إنكم تأخذون علمكم عن ميت عن ميت حدثني فلان حدثني فلان، أما نحن فنأخذ علمنا عن الله مباشرة فيردون بذلك علم الشريعة وعلم الحلال والحرام؛ فـ(... كثير ممن يدعي الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه يذم العلم الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام فيطعن في أهله ويقول: هم محجوبون وأصحاب قشور، وهذا يوجب القدح في الشريعة المطهرة والأعمال الصالحة التي جاء الرسل بالحث عليها والاعتناء بها، وربما انحل

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٣٠٠، ٣٠١.
(٢) ورثة الأنبياء: ٤٤.

بعضهم[*] عن التكاليف وادعى أنها للعامة.

وأما من وصل فلا حاجة به إليها وأنها حجاب له وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين وصلوا إلى سقر)[١].

وذكر في مكان آخر ظنهم الكاذب فقال: (... ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يتلقى من مشكاة النبوة ولا من الكتاب والسنة وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات، فأساءوا الظن بالشريعة الكاملة حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب، وأوجب لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية والتكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر فضلوا وأضلوا)[٢].

إن ابن رجب رحمه الله قد أوضح في فكره التربوي وهو يشير إلى أنواع العلوم والمعارف أن أفضل العلوم وأشرفها: (... العلم بالله وهو العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته والتبتل إليه والتوكل عليه والصبر والرضا عنه... ويتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك. والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وما يكرهه من عباده من

---

(١) ورثة الأنبياء: ٥٥.

(٢) المرجع السابق: ٥٦.

(*) أمثال محمود طه. طاغية السودان من الجمهوريين الذين يرون أن الصلاة قد رفعت عن الذي لا يعمل المعاصي لأن الله تعالى يقول: ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾، وما دام لا يعمل فحشاء فلا داعي من الصلاة، ومحمود طه هو الذي أعدمه نميري.

الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)[1]، وهذا هو علم العقائد وهو من أجل العلوم وأفضلها وعلم الفقه وأصوله.

وفي مكان آخر يشيد بعلم الفقه ويبين منزلته بين العلوم ويوضح ما تَعَلُّمه فرض عين وما تَعَلُّمه فرض كفاية، ثم يوضح أن تعلم هذا العلم أفضل من نوافل الطاعات فيقول رحمه الله وهو يخاطب تلاميذه ويحدث إلى من يقرأ عن فكره التربوي: (... واعلم أن علم الحلال والحرام علم شريف ومنه ما تَعَلُّمه فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، وقد نص العلماء على أن تعلمه أفضل من نوافل الطاعات)[2].

ثم يذكر أهم المعارف والعلوم التي تستفاد من القرآن الكريم فيجملها في ثلاثة أصناف حيث يقول إنها: (... ثلاثة أجزاء توحيد، وتشريع، وقصص)[3].

وروي عن (... عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة)[4].

وينقسم العلم إلى علم ممدوح وعلم مذموم، (وقد ذكر الله في كتابه العلم تارة في مقام الحمد وهو العلم النافع وتارة في مقام الذم وهو العلم الذي لا ينفع، فأما الأول فمثل قوله تعالى: ﴿**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾[5].

وأما العلم الذي ذكره الله تعالى على جهة الذم فقوله تعالى في

---

(١) المرجع السابق: ١١١، ١١٢.

(٢) المرجع السابق: ٦٣.

(٣) تفسير سورة النصر: ٨٠.

(٤) فضل علم السلف: ٢٩.

(٥) سورة الزمر، آية [٩].

السحر: **﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾**[(1)])[(2)].

ثم أوضح رحمه الله علامات العلم غير النافع فقال: (وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع أنه يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء وطلب العلو والرفعة في الدنيا والمنافسة فيها وطلب مباهاة العلماء ومجاراة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه... وعدم قبول الحق والانقياد إليه والتكبر على من يقول الحق...... ومن علمه غير نافع فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس وإظهار فضل علمه عليهم ونسبتهم إلى الجهل وتنقصهم ليرتفع بذلك عليهم... ومن علمه غير نافع إذا رأى لنفسه فضلاً على من تقدمه في المقام وتشقق الكلام ظن لنفسه عليهم فضلاً في العلوم أو الدرجة عند الله لفضل خصه به عمن سبق فاحتقر من تقدم واجترأ عليه لقلة علمه)[(3)].

وهذا العلم الجهل أفضل منه فـ(... العلم الذي لا ينفع جهل لأن الجهل به خير من العلم به، فإن كان الجهل به خيراً منه فهو شر من الجهل وهذا كالسحر وغيره من العلوم المضرة في الدين والدنيا)[(4)].

ثم ذكر رحمه الله أفضل العلوم وأشرفها وهو ماله علاقة بكتاب الله عز وجل: (.. فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثوراً عن الصحابة والتابعين ومن تابعهم إلى أن ينتهي إلى أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم)[(5)].

---

(1) سورة البقرة، الآية [102].

(2) فضل عل السلف: 19 ـ 22.

(3) فضل علم السلف: 70 ـ 71.

(4) المرجع السابق: 27.

(5) المرجع السابق: 58.

ويرى رحمه الله أن العلم المأخوذ من هذه المصادر ومن تراث سلفنا الصالح هو العلم النافع: (. . . وفي ذلك كفاية لمن عقل . . . وبالعلم النافع عني واشتغل)[1]، وهذا العلم هو الذي اشتغل به السلف الصالح من الأئمة وعلماء هذه الأمة (قال الأوزاعي: العلم ما جاء به أصحاب محمد ﷺ، فما كان غير ذلك فليس بعلـــم)[2].

ولكن لا بأس بتعلم بعض العلوم الأخرى إذا كان القصد منها تحقق بعض المصالح الدنيوية لكن دون توغل وتبحر فيها فقد (ورد الأمر بأن يتعلم من الأنساب ما توصل به الأرحام من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا وتعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا. وتعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا. .»[3])[4]. وهذه العلوم وسيلة وآلة لتحقيق غاية وهدف، فتعلم العربية والرياضيات والفرائض من علوم الآلة أي الوسائل التي توصلنا إلى غاية وهدف وهي معرفة ما ينفع وما يضر.

وابن رجب يحذر من التوسع في هذه العلوم، ويرى أن هذا يضيع الوقت ويفوت الزمن على تعلم العلم النافع فيقول: (إن التوسع في علم الأنساب هو مما لا يحتاج إليه. . وكذلك التوسع في اللغة العربية لغة ونحواً هو ما يشغل عن العلم الأهم والوقوف معه يحرم علماً نافعاً. . . ولهذا يقال: (إن العربية في الكلام كالملح في الطعام. يعني أنه يؤخذ منها ما يُصْلِح الكلام كما يؤخذ من الملح ما يُصْلِح الطعام. وما زاد فإنه

---

(١) المرجع اسابق: ٦٣.

(٢) المرجع السابق: ٥٩.

(٣) رواه الترمذي، كتاب البر.

(٤) المرجع السابق: ٢٩، ٣٠.

يفسده، وكذلك علم الحساب يُحْتاج منه إلى ما يعرف به حساب ما يقع من قسمة الفرائض والوصايا والأموال التي تقسم بين المستحقين لها والزائد على ذلك مما لا ينتفع به إلا في مجرد رياضة الأذهان وصقلها لا حاجة إليه ويشغل عما هو أهم منه)(١).

ثم ذكر رحمه الله بعض العلوم التي أحدثت بعد القرون المفضلة وبين حكم تعلمها: (أما ما أحدث بعد الصحابة من العلوم التي توسع فيها أهلها وسموها علوماً وظنوا أن من لم يكن عالماً بها فهو جاهل أو ضال فكلها بدعة وهي من محدثات الأمور المنهي عنها، فمن ذلك ما أحدثته المعتزلة من الكلام في القدر وضرب الأمثال لله؛ وقد ورد النهي عن الخوض في القدر... ومن ذلك ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله وصفاته بأدلة العقول، وهو أشد خطراً من الكلام في القدر، لأن الكلام في القدر كلام في أفعاله تعالى وهذا الكلام في ذاته وصفاته تعالى... ومن ذلك ما أحدثه فقهاء الرأي من ضوابط وقواعد عقلية ورد فروع الفقه إليها وسواء خالفت السنة أو وافقتها طرداً لتلك القواعد المقررة وإن كان أصلها مما تأولوا على نصوص الكتاب والسنة)(٢).

وفيما يتعلق بالرأي استدرك واستثنى رحمه الله وأورد أثراً عن عمر بن عبد العزيز استثنى فيه من الرأي ما وافق الكتاب والسنة: (قال عمر بن عبد العزيز: خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم فإنهم كانوا أعلم منكم، فأما ما خالف عمل أهل المدينة من الحديث، فهذا مالك يرى

---

(١) فضل علم السلف: ٣٧-٣٩.

(٢) المرجع السابق: ٣٩-٤٧.

الأخذ بعمل أهل المدينة والأكثرون أخذوا بالحديث)[1].

ومع هذا يرى ما أحدث من العلوم التي تتكلم عن علم الباطن بالرأي فهي بدعة ويحذر منها وهذا ما يفعله بعض غلاة المتصوفة قال: (. . . ومما أحدث من العلوم الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق والكشف وفيه خطر عظيم)[2].

ولقد أوضح رحمه الله ما يباح من علم النجوم وما يحرم، ألا وهو علم التأثير والتسيير فيقول: (. . إن علم التأثير باطل محرم وفيه ورد الحديث المرفوع: «ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»[3] . . . فعلم تأثير النجوم باطل محرم والعمل بمقتضاه كالتقرب إلى النجوم وتقريب القرابين لها كفر.

وأما علم التسيير فإذا تعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطريق كان جائزاً عند الجمهور، وما زاد عليه فلا حاجة إليه وهو يشغل عما هو أهم منه، وربما أدى التدقيق فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين في أمصارهم)[4].

وهذا النص أوضح فيه ابن رجب قسماً محرم وهو التأثير وأن النجوم لها علاقة في إنزال الغيث والتقارب بين نجمين يؤثر في التقارب بين شخصين وهذا علم محرم. وعلم التسيير هو العلم الجائز، فالنجوم زينة في السماء وعلامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ومع كون هذا العلم جائزاً، لكن يؤخذ منه بقدر.

---

(١) فضل علم السلف: ٤٨.

(٢) المرجع السابق: ٦١.

(٣) مسند أحمد ١/ ٢٢٧.

(٤) فضل علم السلف: ٣٤، ٣٥.

العلمـــــاء الربانيـــــون :

(. . . إن أكمل العلماء وأفضلهم العلماء بالله وبأمره الذين جمعوا بين العلمين وتلقوهما من الوحيين، أعني الكتاب والسنة، وعرضوا كلام الناس في العلمين معاً على ما جاء به الكتاب والسنة، فما وافق قبلوه وما خالف ردوه، وهؤلاء خلاصة الخلق، وهم أفضل الناس بعد الرسل، وهم خلفاء الرسل حقاً)[1].

وهؤلاء الموصوفون في كتاب الله بأنهم ربانيون وأجرهم عظيم عند الله عما يقومون به من تعليم الناس وتربيتهم على دين الله: (قال أبو العالية: قرأت في بعض الكتب: يا معشر الربانيين من أمة محمد انتدبوا لدار أرضها زبرجد أخضر، تجري عليها أنهار الجنة، فيها الدر واللؤلؤ والياقوت، وسورها زبرجداً أخضر، متدلياً عليها أشجار الجنة وثمارها)[2].

والعالم الرباني هو الذي يربي الناس بكبار العلم قبل صغاره، وهو الذي: (. . . لا يتكلف ما لا علم له به فإنه يخشى عليه من ذلك الهلكة)[3].

ولقد كان علماء السلف من هذا الصنف، فعلمهم علم نافع وقر في نفوسهم واستقر في قلوبهم فأثمر لهم عملاً صالحاً فأفادوا الناس بعلمهم وربوهم على دين الله، (فسعدت بهم البشرية وعبروا بألسنتهم عن القدر المحتاج إليه من ذلك، وهذا هو الفقه والعلم النافع)[4].

---

(١) ورثة الأنبياء: ٥٦.

(٢) لطائف المعارف: ٢٣.

(٣) اختيار الأولى: ٤١.

(٤) فضل علم السلف: ٥٨.

وقد كانوا يأخذون العلم عن أهله، (والغالب عليهم المسكنة وعدم المال والرفعة في الدنيا ويدعون أهل الرياسات والولايات فلا يأخذون منهم ما عندهم من العلم بالكلية)[1]، لأنهم يرون أن هذا العلم دين، فلا يأخذونه إلا ممن ظهر لهم صلاحه وتقواه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: (إن هذا العلم دين فانظروا ممن تأخذون دينكم)[2].

والعلم النافع ما لم يترجم إلى عمل فإنه لا ينفع صاحبه، (فقد أخبر الله تعالى عن قوم أنهم أوتوا علماً ولم ينفعهم علمهم، فهذا علم نافع في نفسه، لكن صاحبه لم ينتفع به)[3].

قال تعالى: ﴿**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً**﴾[4].

وأخبر (النبي ﷺ أن العلم الذي عند أهل الكتابين موجود بين أيديهم ولا ينتفعون بشيء منه، لما فقدوا المقصود وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم، وإنما هو على ألسنتهم تقام به الحجة عليهم)[5].

ولكن بعض أهل الكتاب نفعهم ما معهم من علم فأورث لهم خشوعاً ووجدوا حلاوته في قلوبهم (قال تعالى: ﴿**إن الذين أوتوا العلم**

---

(١) اختيار الأولى: ١٠٤.

(٢) فضل علم السلف: ٢١.

(٣) فضل علم السلف: ٢١.

(٤) سورة الجمعة، الآية [٥].

(٥) الخشوع في الصلاة: ٢٦.

من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾[1]، وقوله تعالى في وصف هؤلاء الذين أوتوا العلم﴿**ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً**﴾مدح لمن أوجب له سماع كتاب الله الخشوع في قلبه)[2].

وليس كل من نال العلم أصبح به عالماً ربانياً، بل إن العالم الرباني هو الذي أعطاه الله الحكمة، فعرفها وعمل بعلمه (.. قال الفضيل: العلماء كثير والحكماء قليل، وقال: الحكماء ورثة الأنبياء، فالحكمة هي العلم النافع الذي يتبعه العمل الصالح وهو نور يقذف في القلب يفهم به معنى العلم المنزل من السماء. ويحض على اتباعه والعمل به، ومن قال: الحكمة السنة فقوله حق لأن السنة تفسر القرآن وتبين معانيه وتحض على اتباعه والعمل به، فالحكيم هو العالم المستنبط لدقائق العلم المنتفع بعلمه)[3].

فالحكمة هي فهم القرآن والعمل به، (فلا يكتفى بتلاوة ألفاظه، بل لا بد من معرفة معناه والعمل بمقتضاه، فمن جمع ذلك كله فقد أوتي الحكمة قال تعالى: ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾[4])[5].

(... ومن علامات أهل العلم النافع أنهم لا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقاماً، ويكرهون بقلوبهم التزكية والمدح ولا يتكبرون على أحد)[6].

---

(١) سورة الإسراء، الآية [١٠٧-١٠٩].

(٢) الخشوع في الصلاة: ٢٧.

(٣) لطائف المعارف: ٨٥.

(٤) سورة البقرة، الآية [٢٦٩].

(٥) لطائف المعارف: ٨٥.

(٦) المرجع السابق: ٨٥.

ومن علامات العلم النافع (أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرياسة والشهرة والمدح . . . ومن علامات العلم النافع أن صاحبه لا يدعي العلم ولا يفخر به على أحد ولا ينسب غيره إلى الجهل)[١] .

بل (يحب ظهور ومعرفة المسلمين له، سواء كان ذلك في موافقته أو مخالفته)[٢] .

إن هؤلاء العلماء (يسيئون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بمن سلف من العلماء، ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم)[٣]، لكنهم يوضحون الصواب من الآراء وأماكن الخطأ فيها لأنهم يرون أن (بيان خطأ من أخطأ من العلماء لا حرج فيه ولا لوم)[٤] منه إذا كان بأدب وتقدير لهم .

والعالم الرباني يحرص على أن يعمل بعلمه، لأنه قدوة للناس فهو يعلم بلسان حاله ومقاله، كما أنه يعلم أن (العالم الذي لا يعمل بعلمه كمثل المصباح يضيء للناس ويحرق نفسه)[٥] .

والعلماء الربانيون (مجمعون على قصد إظهار الحق الذي بعث الله به رسوله وأن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمته هي العليا)[٦] .

(. . . وكلهم معترفون بأن الإحاطة بالعلم كله من غير شذوذ شيء

---

(١) فضل علم السلف : ٧١ـ٧٤ .

(٢) الفرق بين النصيحة والتعيير : ٢٩ .

(٣) فضل علم السلف : ٧٤ .

(٤) الفرق بين النصيحة والتعير : ٢٩ .

(٥) لطائف المعارف : ١٤ .

(٦) الفرق بين النصيحة والتعيير : ٢٦ .

منه ليس هو مرتبة أحد منهم)[1] .

ولقد كان العلماء الربانيون من سلف هذه الأمة (يقبلون الحق ممن أورده عليهم ولو كان صغيراً، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم)[2] . فهم يرون أن الحكمة ضالة المؤمن ويفرقون بين الفكرة وصاحبها ، فالفكرة الصائبة يأخذونها والفكرة الخاطئة يردونها وإن صدرت من صديق لهم، وهذه هي الأمانة العلمية والتي نحن اليوم في أمس الحاجة إليها وشبابنا بحاجة إلى التربية عليها (وقد استحسن الإمام أحمد ما حُكي عن حاتم الأصم أنه قيل له : أنت رجل أعمى لا تفصح وما ناظرك أحد إلا قطعته ، فبأي شيء تغلب خصمك؟ فقال : بثلاث : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه . فقال أحمد ما أعقله من رجل)[3] .

هذه هي الأمانة العلمية التي عرفها سلفنا ، لا يجرحون ولا يشهرون بفئة من الجماعات ، لكن يناقشون الفكرة غايتهم الوصول إلى الحقيقة بصرف النظر عن مصدرها ، أكانت منهم أم من غيرهم، وكان بعض المشهورين إذا قال برأيه في شيء يقول : كانوا يقولون حال إبداء رأيهم . . . هذا رأينافمن جاءنا برأي أحسن منه قبلناه .

وكان الشافعي يبالغ في هذا المعنى ويوصي أصحابه باتباع الحق وقبول السنة إذا ظهرت لهم على خلاف قوله وأن يضربوا بقوله حينئذ الحائط ، وكان يقول في كتبه : لا بد أن يوجد فيها ما يخالف الكتاب والسنة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه**

---

(١) المرجع السابق : ٢٦ .

(٢) المرجع السابق : ٢٦ .

(٣) المرجع السابق : ٢٨ ، ٢٩ .

اختلافاً كثيراً﴾[1]، وأبلغ من هذا أنه قال: (ما ناظرني أحد فباليت أظَهَرَت الحجة على لسانه أو على لساني. وهذا يدل على أنه لم يكن له قصد إلا في ظهور الحق ولو كان على لسان غيره ممن يناظره أو يخالفه؛ من كانت هذه حاله فإنه لا يكره أن يرد عليه قوله ويتبين له مخالفته للسنة)[3].

إن واجب الكلمة كان يحتم عليهم رد ما هو خطأ بجرأة أدبية اعتمادها وسندها الحجة والبرهان والمنطق والدليل، فقد: (. . . بالغ الأئمة الورعون في إنكار مقالات ضعيفة لبعض العلماء وردوها أبلغ الرد، كما كان الإمام أحمد ينكر على أبي ثور وغيره مقالات ضعيفة تفردوا بها وبالغوا في ردها عليهم)[4].

(. . فردُّ المقالات الضعيفة وتبيُّن الحق في خلافها بالأدلة الشرعية ليس هو مما يكرهه أولئك العلماء، بل مما يحبونه ويمدحون فاعله ويثنون عليه)[5].

(. . . كان الإمام أحمد رحمه الله يذكر إسحاق بن راهويه ويمدحه ويثني عليه ويقول: وإن كان يخالف في أشياء، فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً، وكان كثيراً يعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة ومأخذهم في أقوالهم فلا يوافقهم في قولهم، ولا ينكر عليهم أقوالهم، ولا استدلالهم، وإن لم يكن هو موافقاً على ذلك كله)[6].

---

(١) سورة النساء، الآية [٨٢].

(٢) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٢٦، ٢٧.

(٣) المرجع السابق: ٢٨.

(٤) المرجع السابق: ٣٠.

(٥) المرجع السابق: ٢٩.

(٦) المرجع السابق: ٢٨.

وهذا من أدب الخلاف الذي عرفه علماؤنا رحمهم الله لأن لكل مجتهد أجراً، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر اجتهاده، فالخلاف عندهم لا يفسد للود قضية، هذا شيء وشيء آخر لم يختلفوا إلا فيما كان دليله ظنياً.

والرد على العلماء له طابعان، إما أن يكون الهدف منه النصيحة لله ولرسوله وتبين وجه الصواب في الأقوال ووجه الخطأ فيها، وإما أن يكون بقصد التنقص لقدرهم وذمهم والعيب فيهم، وهذا محرم ولا شك وعلى من يفعل ذلك أن يتوب إلى الله.

يقول ابن رجب: (. . . من عرف منه أنه أراد برده على العلماء النصيحة لله ولرسوله فإنه يجب أن يعامل بالإكرام والاحترام والتعظيم كسائر أئمة المسلمين، ومن عرف أنه أراد برده عليهم التنقص والذم وإظهار العيب فإنه يستحق أن يقابل بالعقوبة ليرتدع هو ونظراؤه عن هذه الرذائل المحرمة)[1].

فعلى المسلمين أن يضعوا ثقتهم في علمائهم لأن فقدان الثقة هو الضياع بعينه، فالعلماء هم المصابيح التي تنير للناس دروب الحياة، فإذا فقدت الثقة فيهم لم يستفد الناس منهم فينبغي أن نضع لعلمائنا حصانة علمية تجعلهم في مكان التقدير والاحترام عند الخاص والعام، فهم ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا هذا العلم.

نشر العلم:

إن هؤلاء العلماء الذين ذكرنا وصفهم هم دعاة لدين الله يعلمون الناس شرع الله، ويربون الناس على منهج الله، ولا يضنون عليهم بشيء

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٣٣، ٣٤.

من العلم، لأنهم يعلمون أن (. . . من كتم العلم الذي أمر الله بإظهاره لعنه الله وملائكته وأهل السماء والأرض حيث سعى في إخفاء نور الله في الأرض الذي بسبب إخفائه تظهر المعاصي والعداوة والبغي)[1].

وفي تقصير العلماء في هذه الرسالة إطفاء لنور البصيرة ونشر للجهل وإظهار للفساد، وفي هذا التقصير هلاك للعالم لقلة هطول الأمطار وإدرار الخيرات فيعم البلاء على وجه الأرض لأن: (كتمان العلم النافع سبب لظهور الجهل والمعاصي، وذلك يوجب منع نزول المطر وحلول البلاء، فتهلك دواب الأرض لخطأ بني آدم فتلعن الدواب من كان السبب في ذلك)[2].

وأعظم الجرم يكون على العالم الذي كتم ما أعطاه الله من علم، لأن العلم حق مشاع للجميع، وما أصبح العلم بهذه المثابة إلا لحاجة جميع الناس إليه، فرسالة التربية والتعليم رسالة عظيمة.

وفي نشر العلم يتحقق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتذكير)[3].

ومسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقع بشكل خاص على العلماء والدعاة وطلبة العلم وكل من آتاه الله مقدرة على ذلك، ولا يشترط فيه العصمة، لأن الله عز وجل أبا أن تكون العصمة إلا لأنبيائه. فلو: (. . . لم يعظ إلا معصوم لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد؛

(١) ورثة الأنبياء: ٨٠.
(٢) ورثة الأنبياء: ٨٣.
(٣) لطائف المعارف: ١٦.

لأنه لا عصمة لأحد بعده، وروى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف عن أبـي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وإن لم تتناهوا عنه كله»[1]. وقيل للحسن: إن فلاناً لا يعظ ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال الحسن: وأينا يفعل ما يقول؟ ود الشيطان أنه ظفر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر، وقال مالك عن ربيعة قال سعيد ابن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك ـ وصدق ـ من ذا الذي ليس فيه شيء)[2].

والأمر بالمعروف يشمل الرد على أهل الضلالات والمقالات الضعيفة التي لا تستند على أثارة من حق أو أي دليل أو برهان، فإذا رد على هؤلاء شخص (كان مقصوده مجرد تبين الحق ولئلا يغتر الناس بمقالات من أخطأ في مقالاته فلا ريب أنه مثاب على قصده ودخل بفعله هذا بهذه النية للنصح لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، أما إذا كان مراده إظهار عيب من رد عليه وتنقصه وتبين جهله وقصوره في العلم ونحو ذلك كان محرماً)[3].

طرق التعلم:

إذا كانت الحاجة شديدة إلى العلم فمن الطرق الصحيحة في كسبه أن يتعلمه لوجه الله، وأن يخلص النية في طلبه، وأن يبتعد عن المماراة به والجدال فيه (... ومما أنكره السلف الجدال والخصام والمراء في مسائل الحلال والحرام، ولم يكن ذلك طريقة أئمة الإسلام وإنما أحدث ذلك

(١) رواه الطبراني في الصغير.
(٢) المرجع السابق: ١٦.
(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير: ٣١ ـ ٣٣.

بعدهم كما أحدث فقهاء العراقيين في مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية وصنفوا كتب الخلاف ووسعوا البحث والجدال فيها، وكل ذلك لا أصل له وصار ذلك علمهم حتى شغلهم عن العلم النافع)[١].

من هذا يتضح أن طريق كسب العلم النافع هو التوجه إلى الله والبعد عن مواضع الخلاف التي تفرق شمل الأمة (. . . قال ﷺ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحيزوا به المجالس، فمن فعل ذلك النار النار» وفي رواية «لكن تعلموه لوجه الله والدار الآخرة»[٢])[٣].

وابن رجب ينهى عن الخوض في أقوال المتكلمين وعلوم الفلاسفة فقال: (فأما الدخول مع ذلك في كلام المتكلمين المتكلمين أو الفلاسفة فشر محض وكل من دخل في شيء من ذلك تلطخ ببعض أوضارهم)(٣).

مصادر العلم:

أهم مصدر هو كتاب الله عز وجل، وتليه سنة النبي ص هذه هي مشكاة النبوة نورها كنور الشمس، فالعلماء استمدوا ما معهم من نور هذه المشكاة وهذا القبس الذي لا يخبو ضوءه على مر العصور والدهور، فالعلم يشبه بالقمر الذي يستمد نوره من الشمس، ولقد شبه العالم وهو يقتبس علمه من نور الإسلام وهدي محمد بن عبد الله بهذا القمر.

---

(١) فضل علم السلف: ٤٨، ٤٩.

(٢) الحديث في صحيح الجامع، رقمه (٧٣٧٠).

(٣) ما ذئبان جائعان: ٤٠.

(٤) فضل علم السلف: ٦١.

يقول ابن رجب : (إن القمر إنما يستفيد نوره من ضوء الشمس، كما أن العالم مقتبس من نور الرسالة، فلذلك شبه بالقمر ولم يشبه بالشمس)[1].

ومصدر آخر هو ما أوصل إليه اجتهاد العلماء ونظرهم في نصوص القرآن والسنة، وقد ورَّث لنا علماؤنا تراثاً علمياً ضخماً في شتى العلوم والمعارف، فإن الأجيال اللاحقة هي بحاجة إلى هذا التراث ومطالبة بالبحث فيه والتنقيب في ثناياه وإجالة النظر والانتخاب منه ما هي في حاجة إليه والإضافة عليه. إن هذه هي وسائل الرقي والتقدم وفقدانها هي التخلف والسير في مؤخرة القافلة البشرية.

ثبات العلم:

من أراد ثبات العلم فعليه أن يعمل به، فالعلم قائد ودليل والعمل تابع، والعلم ينادي بالعمل فإن إجابة حل وثبت وإلا ارتحل، أما إذا لم يعمل بالعلم فإنه لن يدوم ولن يبقى، لأن: (... ذهاب العلم بذهاب العمل، وأن الصحابة فسروا ذلك بذهاب العلم الباطن من القلوب وهو الخشوع)[2] فمتى ما كان العالم متقياً لله خاشعاً له، متذللاً خاضعة جوارحه لله، عاملة بما يرضيه، لسانه رطباً بذكر الله عز وجل كان راسخ العلم سليم التوجه مطمئن النفس، يفيد الناس ويسترشدون بنصحه.

كما أن طالب العلم هو في أمس الحاجة إلى تقوى الله حتى ينور العلم قلبه وينير بصيرته. قال تعالى: ﴿**واتقوا الله ويعلمكم الله**﴾[3].

---

(١) ورثة الأنبياء: ٩٠.

(٢) المرجع السابق: ٤٣.

(٣) سورة البقرة، الآية [٢٨٢].

ولقد ظهر الخوف من المعاصي وتقوى الله في مقالة الشافعي لشيخه حيث اشتكى إليه سوء حفظه فأرشده شيخه إلى ترك المعاصي لأنها تطفىء نور البصيرة فأنشد يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتى لعاصي

مواسم العلوم:

إن القرآن الكريم هو الكتاب الجامع الشامل للعلوم والمعارف والمصدر الأول في التربية الإسلامية ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شي**﴾[(١)]، لذا فقد اهتم الرسول ﷺ بتلاوته وتلقينه، قال تعالى: ﴿**يتلو عليهم آياته**﴾[(٢)]، يعني يتلو ما أنزله الله تعالى من آياته المتلوة وهو القرآن وهو أعظم الكتب السماوية، وقد تضمن العلوم والحكم والمواعظ والقصص والترغيب والترهيب وذكر أخبار من سبق وأخبار ما يأتي من البعث والنشور والجنة والنار ما لم يشتمل عليه كتاب غيره حتى قال بعض العلماء: لو أن هذا الكتاب وجد مكتوباً في مصحف في فلاة من الأرض ولم يعلم من وضعه هناك، لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف ذلك[(٣)].

لقد كان جبريل عليه السلام يعرض القرآن على رسول الله ﷺ في كل عام مرة، ولقد عارضه إياه في العام الذي توفي فيه مرتين، وكان ذلك في شهر رمضان، لأن الله عز وجل أنزله في رمضان كله دفعة واحدة من

---

(١) سورة الأنعام، الآية [٣٨].

(٢) سورة الجمعة، الآية [٢].

(٣) لطائف المعارف: ٣٦.

اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر: **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾**[1] **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾**[2] **﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾**[3] لذا: (... كان استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان)[4] ومدارسته في ليالي رمضان من أفضل القربات، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن المدارسة بين النبي ﷺ وبين جبريل عليه السلام كانت ليلاً، يدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً؛ فإن الليل تنقطع فيه الشواغل وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر)[5]، وكان (... مالك رحمه الله: إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم ويقبل على تلاوة القرآن من المصحف)[6].

فالسلف رحمهم الله كانوا يهتمون بمدارسة العلم وتدريس العلوم الشرعية ومنها الحديث وعلومه طوال العام، ويكثفون جهودهم في مدارسة القرآن في شهر رمضان، بل كانوا يخففون من جميع العبادات وبالذات النوافل منها في رمضان، ويصرفون كل الوقت والجهد في دراسة القرآن وتلاوته، فقد (... كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن... وقال: كان زبيد اليامي إذا حضر رمضان أحضر المصاحف وجمع إليه أصحابه)[7]، ومدارسة

---

(١) سورة القدر، الآية [١].

(٢) سورة البقرة، الآية [١٨٥].

(٣) سورة الدخان، الآية [٣].

(٤) لطائف المعارف: ١٧٩.

(٥) لطائف المعارف: ١٧٩.

(٦) المرجع السابق: ١٨١.

(٧) المرجع السابق: ١٨١.

جبريل القرآن لرسول الله ﷺ تدل (. . . على استحباب دراسة القرآن في رمضان والاجتماع على ذلك وعرض القرآن على من هو أحفظ له . . .)[1] .

إن مدارسة القرآن والمداومة على تلاوته وحضور القلب عند التلاوة والتأثر بما فيه والعمل به هو (. . . العلم النافع وهو ما باشر القلوب وأوجب لها السكينة والخشوع والإخبات لله والتواضع والانكسار ، وإذا لم يباشر القلب ذلك من العلم وإنما كان على اللسان فهو حجة الله على ابن آدم يقوم على صاحبه وغيره كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع صاحبه)[2] (. . . هذا هو الخشوع وهو العلم النافع وهو أول ما يرفع من العلم)[3] .

---

(١) المرجع السابق : ١٧٩ .

(٢) الخشوع في الصلاة : ٢٥ .

(٣) المرجع السابق : ٢٣ .



الفصل الثامن

الطريقة التي يقدم بها المحتوى
كما يراها ابن رجب

* تمهيد
* مكانة العلماء .
* مسؤولية العلماء .
* أنواع العلماء .
* من صفات العلماء الربانيين :
  - الصفات الذاتية .
  - صفات العالم مع طلاب العلم .
  - صفات العالم مع عامة الناس .
* صفات طالب العلم .
* تيسير العلم لطالبه .
* الطريقة المثلى لكسب العلم .
* من فوائد طلب العلم .



تمهيـــــــــــــــد

سنتناول في هذا المبـحث مكانة العلمـاء والمسـؤوليـة المناطة بـهم، وصـفـات العـلمـاء الربانيين، وأنواع العلمـاء، وصـفـات طالب العـلم، والطريقة المثلى في كسب العلم وتحصيله، مع تيسير العلم لطالبه.

مكانــــــة العلمـــــــاء:

للعلماء في الإسلام مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، ولهم قدر في نفوس الناس ودرجة عـالية من التـقـدير لـهم، لأن العـلمـاء ورثة الأنبيـاء؛ يعني أنهـم ورثوا مـا جـاء به الأنبـيـاء من العلـم فـهـم خلف الأنبـيـاء في أممـهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته والنهي عن معـاصي الله والذب عن دين الله (... فالعلماء في مقام الرسل بين الله وبين خلقه. قال ابن عيينة: أعظم الناس منزلة من كان بين الله وبين خلقه، الأنبياء والعلماء)[1].

فالمربـو ن الحقيقيـون هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قـاموا بمهـمة التربية والتعليم والإرشاد والتوجيه خير قيام، وجهوا الناس إلى طاعة الله ونهوهم عن معصيته، وخلفهم على هذه الرسالة وهذه المهـمة العلماء وكفى بهذا شـرفاً ومكانة ومنزلة لهم (إن الرسـل لـم تبعث بـجمع الدنيا وتوريثها لأهليهم، وإنما بعثوا بالدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والعلم النافع وتوريثه لأممهم)[2].

لذا فإن (العـالـم الذي هو وارث الرسـول حقيقـة كـمـا أنه ورث علمـه ينبـغي أن يورِّث العلـم كـمـا ورَّث الرسـول ﷺ العـلم، وتوريث العـالـم العلم هو أن يـخلفــه بعــده بتـعليم أو تـصنيف ونحــو ذلك مما ينتـفـع به

---

(١) ورثة الأنبياء: ١٢٦، ١٢٧.

(٢) المرجع السابق: ١٣٨.

بعد . . . ومن كمال ميراث العالم للرسول أن لا يخلف الدنيا كما لم يخلفها الرسول ﷺ، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول وبسنته في الزهد في الدنيا وتقلله منها واجتزائه منه باليسير)[(١)].

ومما يؤكد منزلة العالم ومكانته (ما ذكره الرسول ﷺ من فضله حيث قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[(٢)])[(٣)].

والعلم النافع هو الميراث الذي ورثه الأنبياء، (فمن أخذ به وقام على تحصيله فقد فاز بالحظ الوافر الذي يغبط صاحبه)[(٤)].

إن العلماء في درجة تالية للأنبياء وإنه . . . (لا درجة بعد النبوة أفضل من درجة العلماء. وقد يطلق اسم العلماء ويراد إدخال الأنبياء فيهم كما في قوله تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم . . .**﴾[(٥)] فلم يفرد الأنبياء بالذكر بل أدخلهم في مسمى العلماء، وكفى بهذا شرفاً للعلماء، (إنهم يسمون باسم يجتمعون هم والأنبياء فيه)[(٦)].

مسؤولية العلماء:

مسؤولية عظيمة وهامة، إنها مسؤولية التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد؛ فالعلماء (. . هم الأدلاء الذين يهتدى بهم في ظلمات الجهل والشبه والضلال، فإذا فقدوا ضل السالك)[(٧)]؛ ومن هذا الجانب تأتي

---

(١) المرجع السابق: ١٤٠، ١٤١.
(٢) الحديث في صحيح الجامع رقمه (٤٢١٣).
(٣) ورثة الأنبياء: ٩٣.
(٤) المرجع السابق: ١٣٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية [١٨].
(٦) ورثة الأنبياء: ١٣٢، ١٣٣.
(٧) المرجع السابق: ٣٩.

خطورة هذه المهمة، كما أن العالم (.. يوقع عن الله أمره ونهيه)[1] وعليه أن يعلم (.. أنه موقوف ومسؤول عن ذلك)[2] يوم القيامة.

والعلماء الربانيون (.. هم أفضل الخلق بعد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)[3]، (ولقد تفردوا بفضيلة العلم بأمر الله وبفضيلة دعوة الخلق إلى الله وهدايتهم إليه، وهو مقام الرسل، وكذلك كان خلفاء الرسل وورثتهم)[4]، ونفعهم لا يقتصر على هداية الناس والإحسان إليهم بل تعدى إلى الحث على الإحسان إلى جميع الكائنات، فهم (.. يأمرون الناس بالإحسان إلى المخلوقات كلها، وبإحسان قتل ما يجوز قتله أو ذبحه من الحيوانات فيتعدى نفعهم إلى الحيوانات كلها، فلذلك تستغفر لهم)[5].

إن العالم يسعى إلى الصلاح، ويحارب الفساد في الأرض، فمن سعى في قتل عالم، أو باشر هذا فعلاً (.. فقد قتل خليفة نبي فهو ساع في الأرض بالفساد)[6]. نعم فما قتل العلماء وما ضيق عليهم، وقام بسجنهم وتعذيبهم إلا المفسدون في الأرض.. لكن لهم يوم يجدون فيه جزاء ما فعلوا ﴿**ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم**

---

(١) ما ذئبان جائعان: ٤٥.

(٢) المرجع السابق: ٤٥.

(٣) ورثة الأنبياء: ١٢٥.

(٤) المرجع السابق: ١١٤.

(٥) المرجع السابق: ٧٨، ٧٩.

(٦) المرجع السابق: ٨٧.

وأفئدتهم هواء﴾[1].

إن العلماء (.. هم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويدخلون في الدين ما ليس منه من أهل الأهواء، وما دام العلم باقياً في الأرض، فالناس في هدى... وبقاء العلم ببقاء[*] حملته، فإذا ذهب حملته ومن يقوم به وقع الناس في الضلال)[2]. وجميع المخلوقات تحس بقيمة وقدر العلماء، لذا يستغفرون لهم (.. فيستغفر لهم أهل الأرض حتى الحيتان في البحر)[3] و (العالم لا يستغني أحياناً عن موعظة النّاس والقصص عليهم وإزالة القسوة عن قلوبهم بالتذكير بالله وأيامه، فإن القرآن يشتمل على ذلك كله..)[4].

ومن مسؤولية العالم أن يعلم كتاب الله ويعمل بما جاء فيه ثم يعلم الناس بقوله وبفعله، لأن (.. الفقيه العالم حقاً هو من فهم كتاب الله واتبع ما فيه)[5].

أنـــــــواع العلمـــــــاء:

للعلماء ثلاثة أقسام ذكرها ابن رجب حيث قال: (.. كان السلف يقولون: إن العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس عالماً بأمره، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله. وأكملهم الأول؛ وهو الذي

---

(١) سورة إبراهيم، الآية [٤٢، ٤٣].
(٢) ورثة الأنبياء: ٤٠.
(٣) المرجع السابق: ٧٥.
(٤) المرجع السابق: ٦٧.
(٥) المرجع السابق: ٦٨.
(*) في الأصل (بكاء)، ولعل الصواب ما ذكر.

يخشى الله ويعرف أحكامه)[1].

وهذا التقسيم يعود إلى تقسيم العلم إلي قسمين: علم الظاهر وهو الذي على اللسان وهو حجة الله على عباده، وعلم الباطن وهو العلم بالله والخشية منه والرغبة فيما عنده.. لذا (.. كان كثير من السلف كسفيان الثوري وغيره يقسمون العلماء ثلاثة أقسام: عالم بالله عالم بأمره.. وهؤلاء أشرف العلماء... ويقولون أيضاً: عالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وهم أصحاب العلم الباطن الذين يخشون الله وليس لهم اتساع في العلم الظاهر... ويقولون: عالم بأمر الله ليس بعالم بالله، وهم أصحاب العلم الظاهر الذين لا نفاذ لهم في العلم الباطن، وليس لهم خشية ولا خشوع، وهؤلاء مذمومون عند السلف)[2].

أما أنواع العلماء من حيث تأثير الشهوات ووقع الشبهات فهم ثلاثة أقسام أيضاً: (.. لقد قسم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه العلماء إلى ثلاثة أقسام: قسم هم أهل الشبهات، وهم من لا بصيرة له من حملة العلم فتنقدح البدع والضلالات في قلوبهم. وقسم هم أهل الشهوات. وهم نوعان: أحدهما: من يطلب الدنيا بنفس العلم، فيجعل العلم آلة لكسب الدنيا... والثاني: من همه جمع الدنيا واكتنازها وادخارها، وكل هؤلاء ليسوا من دعاة الدين وإنما هم كالأنعام؛ ولهذا شبه الله تعالى من حُمِّل التوراة ثم لم يحملها بالحمار الذي يحمل أسفاراً، وشبه عالم السوء الذي انسلخ من آيات الله وأخلد إلى الأرض واتبع هواه بالكلب، والكلب والحمار أخس الأنعام وأضل سبيلاً... والقسم الثالث من حملة العلم، وهم أهله وحملته ورعاته والقائمون بحجج الله

(١) فضل علم السلف: ٦٨.
(٢) ورثة الأنبياء: ٤٩، ٥١.

وبيناته . . . وهم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً، وفي هذا دليل على قلة هذا القسم وغربته من حملة العلم)[1] .

علماء الدنيا خطرهم شديد وبغضهم للعلماء الربانيين ظاهر وكيدهم لا يخفى، فـ(. . علماء الدنيا يبغضون علماء الآخرة ويسعون في أذاهم جهدهم كما سعوا في أذى سعيد بن المسيب، وعلماء السوء فيهم شبه من اليهود وهم أعداء الرسل وقتلة الأنبياء ومن يأمر بالقسط من النّاس، وهم أشد الناس عداوة وحسداً للمؤمنين، ولشدة محبتهم للدنيا لا يعظمون علماً ولا ديناً وإنما يعظمون المال والجاه والتقدم عند الملوك)[2] .

من صفات العلماء الربانيين:

الصفات الذاتية:

من أهم الصفات في العالم أن يريد بعلمه وجه الله عز وجل، ويعلم الناس دين الله ابتغاء مرضاته وثوابه سبحانه وتعالى، وبهذا ينال سلطة علمية يتربع بها على عرش القلوب ويخشى منه ويخافه كل شيء لأن (. . العالم إذا أراد بعلمه وجه الله خافه كل شيء)[3] وهذا ما يجعل له مكانة في نفوس الخلق، أما (. . إن أراد بعلمه أن يكثر به الكنوز، خاف من كل شيء)[4] .

من صفات العلماء الربانيين الخشية والزهد (. . وقد وصف الله في كتابه العلماء بأوصاف منها: الخشية والخشوع والبكاء . . واحتقار الدنيا

---

(١) كشف الكربة: ٢٣، ٢٤ .
(٢) ورثة الأنبياء: ٥٢، ٥٣ .
(٣) ما ذئبان جائعان: ٦٣ .
(٤) المرجع السابق: ٦٣ .

والزهد فيها)[١]، ولقد كان علماء السلف يتحلون بهذه الصفات، وهذا هو حال (.. الربانيين كالحسن وسفيان وأحمد اجتزءوا من الدنيا باليسير إلى أن خرجوا منها ولم يخلفوا سوى العلم... وكان الحسن يقول: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة المجتهد في العبادة، القائم بسنة محمد ﷺ)[٢]، وقيام العالم بسنة النبي ﷺ صفة هامة من صفاته الذاتية، لأن العالم متبع لا مبتدع ومبلغ لا مشرع، والذي يدعو إلى البدع والضلالات هو من علماء السوء... كما أن من أهم صفات العالم الرباني الزهد في الدنيا وعدم التكالب على حطامها؛ لكن هذا لا يعني أن لا يأخذ مما أحله الله عز وجل لعباده المؤمنين، ويتقشف ويعيش حياة الشظف والعوز والمسغبة، إن الله جميل يحب الجمال، كان بعض السلف (.. يلبس لباساً حسناً ويأكل أكلاً متوسطاً بعيداً عن التقشف)[٣]، والمقصود هو التوسط دون إفراط ولا تفريط حتى في الأمور المباحة، لأن (.. الحرص على الدنيا والطمع فيها قبيح، وهو من العلماء أقبح...)[٤].

قال الحسن: (إن لكل شيء شيناً وشين العلم الطمع)[٥]، فالعالم هو قدوة للنّاس يعلمهم بلسان الحال ولسان المقال، فعليه أن يكون ورعاً عما في أيديهم غني النفس متعففاً حتى يفرض احترامه عليهم، ويكون هذا أدعى للاستفادة من علمه وسلوكه، لأنه يؤدي هذه الرسالة طلباً لمرضاة الله وحباً في تعليم الناس الخير. فمن (.. نشر علمه للناس، وتكلم

---

(١) ورثة الأنبياء: ١٤٨.

(٢) المرجع السابق: ١٤٢، ١٤٣.

(٣) المرجع السابق: ١٤٣.

(٤) ورثة الأنبياء: ١٥٤.

(٥) ورثة الأنبياء: ١٥٤.

عليهم ينبغي أن يكون ورعاً عما في أيديهم غير طامع في شيء من أموالهم ولا أرزاقهم ولا اجتلاب قلوبهم إليه . . . وإنما ينشر علمه لله ويتعفف عن الناس بالورع)[1] ، والعالم إذا لم يكن كذلك فإنه سيهلك ويجرِّىء الجهال عليه ، وينتقصه الناس الخاص منهم والعام ؛ (. . . إنما أهلك أهل العلم وأوجب إساءة ظن الجهال بهم وتقديم جهال المتعبدين عليهم ما دخل عليهم من الطمع في الدنيا . .)[2] .

ومن صفات العالم الرباني أن (. . لا يتظاهر بالعلم والزهد والورع والحصول على الكرامات حتى يزار وتلتمس بركته ودعاؤه وتقبل يده)[3] ، بل هو يكره ذلك أشد الكراهة ؛ لأن (. . من لا يصون نفسه لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره)[4] .

وقد كان علماء السلف يرفضون المناصب والوجاهة ؛ لأنهم يؤملون أن يحشروا في زمرة النبيين والصديقين والشهداء (. . قال بعض السلف لما أريد على القضاء فأباه : إنما تعلمت العلم لأحشر به مع الأنبياء لا مع الملوك ؛ فإن العلماء يحشرون مع الأنبياء ، والقضاة يحشرون مع الملوك)[5] ، وهذا لأن من اشتغل بالعلم الباطن الذي هو خشية الله والخوف منه عن غيره (. . كان له في ذلك شغل عن طلب المنزلة عند الخلق ، ومع هذا فإن الله يعطيه المنزلة في القلوب والشرف عند الخلق ،

---

(١) ورثة الأنبياء : ١٥٠ ، ١٥٢ .

(٢) المرجع السابق : ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) ما ذئبان جائعان : ٥٤ .

(٤) ورثة الأنبياء : ١٥٥ .

(٥) فضل علم السلف : ٧٩ .

(٦) ما ذئبان جائعان : ٦٦ .

وإن كـان لا يريد ذلك ولا يقف معه بل يهرب منه أشد الهرب ويفر أشد الفرار خشية أن يقطعه الخلق عن الحق جل جلاله. قال تعالى: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا﴾** [1])[2].

والعلماء الربانيون يتصفون ببر القلوب وقلة التكلف، ولقد وصف ابن مسعود رضي الله عنه علماء الصحابة بأنهم (... أبر الأمة قلوباً وأعمقها علوماً وأقلها تكلفاً)[3].

يقول ابن رجب معلقاً على هذا (.. وفي هذا إشارة إلى أن من بعدهم أقل علوماً وأكثر تكلفاً... فمن كثر علمه وقل قوله فهو الممدوح، ومن كان بالعكس فهو مذموم)[4].

ومن تظاهر بالعلم، وتجمل به عند أهل الدنيا لينال عندهم مكانة وحظوة فهو مفتون (.. قد فتنه حب الدنيا والثناء والشرف والمنزلة عند أهل الدنيا، يتجمل بالعلم، كما تتجمَّلُ بالحلة الحسناء للدنيا، ولا يجمِّل عليه ما يعمل به)[5]. ويعلم (أن أعظم النّاس ندامة يوم القيامة العالم المفرط في حق الله عز وجل)[6].

ومن صفات العالم الرباني أن يحتقر نفسه وينزلها دون منزلتها، ولا يناظر بالعلم، فهو صغير عند نفسه كبير عند الله سبحانه وتعالى معظم عند النّاس؛ لأن من تظاهر بالعلم فهو في الحقيقة جاهل (.. قال عمر

---

(١) سورة مريم، الآية [٩٦].

(٢) ما ذئبان جائعان: ٦٧.

(٣) فضل علم السلف: ٥٧.

(٤) المرجع السابق: ٥٧.

(٥) ما ذئبان جائعان: ٢٤.

(٦) المرجع السابق: ١٥.

رضي الله عنه: من قال أنه عالم فهو جاهل)[1].

ومن صفات العالم الرباني التحرج من الفتيا وعدم التجرؤ على الله عز وجل: (.. كان أئمة السلف يتوقون الكلام [في الحلال والحرام][2] تورعاً؛ لأن المتكلم فيه مخبر عن الله بأمره ونهيه مبلغ عنه شرعه ودينه)[3].

فكان الواحد منهم يحرص على خلاص نفسه من تبعة الفتيا، ولا يكون همه صرف السائل وتخليصه (.. قال بعض العلماء لبعض المفتين: إذا سئلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل، ولكن تخليص نفسك أولاً..)[4]. (.. قال سفيان الثوري: أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتى لا يجدوا بداً من أن يفتوا، وإذا أعفوا عنها كان أحب إليهم)[5]، وكان الإمام مالك رحمه الله يقول: (.. في المسائل التي يُسأل عنها كثيراً: لا أدري، وكان الإمام أحمد رحمه الله يسلك سبيله في ذلك)(٦)، (.. وروي عن مالك أنه كان إذا سئل عن مسألة كأنه بين الجنة والنار... وكان الإمام أحمد شديد التورع في إطلاق الحلال والحرام ودعوى النسخ ونحو ذلك مما يجسر عليه غيره كثيراً، وأكثر أجوبته أرجو وأخشى وأحبّ إليّ ونحو ذلك، وكان هو ومالك وغيرهم يقولون كثيراً: لا ندري)[7]،

---

(١) فضل علم السلف: ٧٠.

(٢) زيادة للإيضاح.

(٣) ورثة الأنبياء: ٦٤.

(٤) ما ذئبان جائعان: ٦٧.

(٥) المرجع السابق: ٤٤.

(٦) فضل علم السلف: ٥٠.

(٧) ورثة الأنبياء: ٦٥.

(.. قال الحسن: لا يكون حظ أحدكم من علمه أن يقول الناس عالم)[1].

يقول ابن رجب: (.. ليس كل من كثر بسطه للقول وكلامه في العلم كان أعلم ممن ليس كذلك، وقد ابتلينا بجملة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم..)[2].. (ففي كلام السلف والأئمة كمالك والشافعي وأحمد وإسحاق التنبيه على مأخذ الفقه ومدارك الكلام بكلام وجيز مختصر، يفهم به المقصود من غير إطالة ولا إسهاب، وفي كلامهم من رد الأقوال المخالفة للسنة بألطف إشارة وأحسن عبارة، بحيث يغني ذلك عن إطالة المتكلمين في ذلك بعدهم)[3].

صفات العالم مع طلاب العلم:

العالم يشفق على طلاب العلم ويعطف عليهم ويترفق بهم، ولقد (.. ازدحم الناس مرة على باب الحسن البصري لطلب العلم فأسمعهم ابنه كلاماً، فقال الحسن: مهلاً يا بني ثم تلا هذه الآية: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾[4])[5].

والعالم يشجع طلاب العلم على كسب العلم وتحصيله ويبشرهم بما بشر به رسول الله ﷺ طالب العلم، وبما تعلموه أصحابه منه، فهذا أبو الدرداء رضي الله عنه بشر (.. من أخبره أنه رحل إليه لطلب الحديث بما سمعه من النبي ﷺ في فضل العلم وطلبه، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:

(١) ما ذئبان جائعان: ٤٢.
(٢) فضل علم السلف: ٥١.
(٣) المرجع السابق: ٥٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية [٥٤].
(٥) ورثة الأنبياء: ٣١.

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾[(1)])[(2)] .

ومن صفات العالم مع طلابه أنه يحبهم ويرحب بهم ، ويحثهم على العلم والعمل والجد .

يقول ابن رجب : (. . وينبغي للعالم أن يرحب بطلبة العلم ويوصيهم بالعمل . .)[(3)] .

ويراعي الحالة النفسية لهم ، ويخاطبهم على قدر عقولهم ويعطيهم من العلم ما تستطيع عقوله استيعابه «حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله»[(4)] ، ويستغل فرص نشاطهم ووقت فراغهم ، ويريحهم إذا لحظ عليهم علامة الفتور والكسل حتى لا يسأموا الدرس وينصرفوا بعقولهم عن المعلم ، فقد كان النبي ﷺ : «يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم»[(5)] .

صفات العالم مع عامة الناس:

إنّ النّاس في حاجة إلى علم العالم ونصحه وتوجيهه ، لذا فالعالم يبذل كل ما في وسعه في سبيل إفادة النّاس وتعليمهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم ، والعالم الرباني هو الذي يضحي بكل غال ونفيس في سبيل هداية الناس (. . قال بعض الصالحين : وددت أن جسمي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق كلهم أطاعوا الله عز وجل)[(6)] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية [٥٤] .

(٢) ورثة الأنبياء : ٣٠ .

(٣) ورثة الأنبياء : ٣٣ .

(٤) البخاري موقوفاً على علي بن أبي طالب .

(٥) رواه البخاري ، باب فضل العلم .

(٦) ما ذئبان جائعان : ٣٥ .

وإن الرسل وأتباعهم قد دعوا النّاس إلى دين الله وتحملوا في سبيل ذلك المصاعب والمشاق.

يقول ابن رجب: (.. كانت الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذى في الدعوة إلى الله، ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة وهم صابرون بها راضون بذلك؛ فإن المحبّ ربما يتلذذ بما يصيبه من الأذى في رضى محبوبه)[1].

صفات طالب العلم:

لطالب العلم جملة من الصفات ومن أهمها إخلاص النية لله في طلب العلم، فالرياء مذموم ويعتبر جرماً، وأشد ذلك إذا كان في طلب العلم، وعذاب من يرائي بالعلم عظيم جداً: (... عن النبي ﷺ قال: («تعوذوا بالله من جُبِّ الحزن» قالوا: وما جُبُّ الحزن؟ قال: «واد في جنهم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة» قيل: يا رسول الله؛ من يدخله؟ قال: «القراء المراءون بأعمالهم»[2])[3] و (... قال ﷺ: «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار»[4])[5].

إن لطالب العلم مكانة عظيمة قد نالها بالعلم الذي وهبه الله إياه، ومن حق العلم عليه طالما أنه أكسبه هذه المكانة والمنزلة أن لا يهينه بزيارة الظلمة والطغاة، فإن (... من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون

---

(١) المرجع السابق: ٣٥.

(٢) الحديث في ضعيف الجامع رقمه (٢٤٦٠).

(٣) ما ذئبان جائعان: ٤٩، ٥٠.

(٤) الحديث حسن في صحيح الجامع برقم (٦٣٨٢).

(٥) فضل علم السلف: ٧٨.

الأمراء الجورة)[1].

ومن أهم الصفات أيضاً: أن يكون حريصاً على طلب العلم والتضحية في سبيل تحصيله، وتحمل المتاعب والمشاق في نيله، وليأخذه من أي شخص كانت منزلته، فقد كان السلف رحمهم الله يرحل الواحد منهم... (إلى من هو دونه في الفضل والعلم لطلب شيء من العلم لا يجده عنده)[2]، وهذا (... لقوة رغبتهم في العلم والدين يرتحل أحدهم إلى بلد بعيد لطلب حديث واحد يبلغه عن النبي ﷺ)[3].

وهناك مواقف كثيرة لبعضهم تؤكد هذه الصفة في طالب العلم فقد (... رحل أبو أيوب زيد بن خالد الأنصاري رضي الله عنه من المدنة إلى مصر للقاء رجل من الصحابة بلغه عنه حديث يبلِّغه عن النبي ﷺ، وكذا فعل جابر بن عبد الله رضي الله عنه مع كثرة ما سمع من النبي ﷺ من الحديث وروى)[4].

(... وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: والله الذي لا إله إلا هو ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[5].

(وقال أبو الدرداء: لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحد يفتحها

---

(١) ما ذئبان جائعان: ٥٠.

(٢) ورثة الأنبياء: ٢٥.

(٣) المرجع السابق: ٢٢.

(٤) المرجع السابق: ٢٣.

(٥) ورثة الأنبياء: ٢٦، ٢٧.

عليَّ إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه)[1].

إن هذه الصفة ألا وهي الرحلة في طلب العلم تحلى بها السلف واتصفوا بها وهي تدل على جلالة قدرهم وعلو مكانتهم، إن هذا مما اكتسبوه من مدرسة النبوة التي كان يفد إليها طلاب العلم من كل حدب وصوب (. . . عن مالك بن الحويرث قال: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهلينا قال: «ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكبركم»)[2].

إن الرحلة في طلب العلم هي وسيلة هامة وطريقة مثلى في كسب العلم، ووسائل كسب العلم وطرقه متعددة منها: (الشرح، والقصة، وضرب الأمثال، والتعليم عن طريق القدوة، والرحلة لطلب العلم، والتعليم عن طريق الملاحظة)[3] وهذه الطرق. . . قد استخدمت من قبل المربين المسلمين)[4].

تيسير العلم لطالبه:

إن من توفيق الله وفضله ومنه أن (. . يتيسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله تعالى والانتفاع به والعمل بمقتضاه فيكون سبباً لهدايته ولدخول الجنة بذلك)[5]، والتيسير لطالب العلم أن يفتح الله له أبواباً من أبواب العلم كان يجهلها ولم يعلم بها، فقد ييسر (الله لطالب العلم

---

(1) المرجع السابق: ٢٧.
(2) تجريد الجامع الصحيح ١/ ٥٦.
(3) المنهاج، عبد الرحمن الصالح:
(4) المرجع السابق: ١٢.
(5) جامع العلوم والحكم: ٣٠٠.

علوماً أخر ينتفع بها وتكون موصلة إلى الجنة)[1] و(. . . قد ورد الوعيد على تعلم العلم لغير وجه الله، كما خرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[2])[3].

ولقد كان النبي ﷺ يقول: («اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً»[4])[5].

ومما ييسر لطالب العلم تحصيله الخشية لله والخوف منه ودعاءه بأن يكسبه علماً نافعاً وعملاً صالحاً متقبلاً، وأن يسلك مسلك السلف في ذلك حيث كانوا يعرفون أهمية الخشوع في رسوخ العلم وتيسيره لطالبه.

قال عبادة بن الصامت لجبير بن نفيع: (. . . لو شئت لأخبرتك بأول شيء يرفع من الناس، الخشوع يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا تجد فيه خاشعاً)[6].

ومما ييسر طلب العلم لين القلب ورقته وعدم الغفلة؛ لأن قسوة القلب والغفلة سبب لفقدان آثار العلم الطيبة مثل الخشوع والإخبات وإنابة القلب إلى الله.

يقول ابن رجب: (هؤلاء الذين وقفوا مع ظاهر العلم ولم يصل العلم النافع إلى قلوبهم ولا شموا له رائحة، غلبت عليهم الغفلة

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٣٠٠.
(٢) الحديث في صحيح الجامع ورقمه (٦١٥٩).
(٣) جامع العلوم والحكم: ١٢.
(٤) الحديث في ضعيف الجامع ورقمه (١١٨٣).
(٥) فضل علم السلف: ٢٤.
(٦) ورثة الأنبياء: ٤٢.

والقسوة والإعراض عن الآخرة والتنافس في الدنيا ومحبة العلو فيها والتقدم بين أهلها)[1].

الطريقة المثلى لكسب العلم:

يكتسب العلم بتصحيح النية والتوجه إلى الله به، لا (. . . بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد)[2].

ونور العلم هذا يناله طالب العلم بتقوى الله والخشية والخوف منه، فبذلك يتفتح الذهن. قال تعالى: ﴿**واتقوا الله ويعلمكم الله**﴾[3].

إن للعلم نوراً وضياء ينبغي المحافظة عليه بترك المراء والجدال فيه، قال مالك رحمه الله: (المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم. وقال: المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغن[4])[5].

وسلوك الطريق لالتماس العلم (يحتمل أن يراد به السلوك الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلم، ويحتمل أن يشمل ما هو أعم من ذلك من سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثل حفظه ودراسته ومطالعته ومذاكرته والتفهم له والتفكر فيه ونحو ذلك من الطرق التي يتوصل بها إلى العلم)[6].

---

(١) المرجع السابق: ٥١.
(٢) فضل علم السلف: ٥٣.
(٣) سورة البقرة، الآية [٢٨٢].
(٤) الضِّغْن والضغينة الحقد، مختار الصحاح.
(٥) فضل علم السلف: ٥٠.
(٦) ورثة الأنبياء: ٣٤، ٣٥.

ويكتسب العلم بحفظه عن ظهر قلب، فمن حفظ المتون حاز الفنون، ثم دراسته ومدارسته أي مطارحته مع الغير ومناقشتهم فيه حتى تثبت المعلومة وتنجلي المشكلة العلمية، ومطالعته أي الاطلاع والقراءة في كتب العلم ومراجعه ومصادره، وإعطاء العلم جل الوقت لأنه كما قيل: العلم إن أعطيته كل وقتك أعطاك بعضه، ومذاكرته بين الفينة والأخرى تحاشياً من النسيان لأن آفة العلم النسيان، ومذاكرته تخلص طالب العلم من هذه الآفة، وكتابته لأن كتابته ترسخ الفكرة وتثبت المعلومة في الفكر، والتفهم له أي النظر فيه بعين البصيرة والفكر والعقل وإجالة النظر فيه؛ لأن المرور عليه مر الكرام وبقراءة سريعة خاطفة لا يثبته في الذهن، والتفكر فيه أي بمقارنة المعلومة الجديدة بما هو في الذهن سابقاً لتنقدح الفكرة وتثبت، وهذا العلم قد توارثته الأجيال جيلاً بعد جيل بالرواية والضبط والتحقيق ومعرفة الجرح والتعديل وعلل الحديث (وضبط ما روي في ذلك أفضل العلوم مع تفهمه وتعقله والتفقه فيه . . . ويحتاج من أراد جمع كلامهم إلى معرفة صحيحه من سقيمه وذلك لمعرفة الجرح والتعديل والعلل)[1].

وكان السلف في دراستهم للقرآن الكريم ينفرد الواحد منهم ويرون أن التجمع من البدع المحدثة: (. . . قال زيد بن عبيد الدمشقي: قال لي مالك بن أنس: بلغني أنكم تجلسون حلقاً تقرأون، فأخبرته بما كان يفعل أصحابنا فقال مالك: عندما كان المهاجرون والأنصار عندنا كان المهاجرون والأنصار ما تعرف هذا. قال: فقلت: هذا طريف. قال: وطريف رجل يقرأ ويجتمع الناس حوله هذا من غير رأينا. قال أبو مصعب إسحاق بن محمد القروي: سمعنا مالك بن أنس يقول: الاجتماع يكره بعد صلاة الصبح لقراءة القرآن، وهذا بدعة ما كان

(١) فضل علم السلف: ٥٨، ٥٩.

أصحاب رسول الله ﷺ ولا العلماء بعدهم على هذا، كانوا إذا صلوا يخلو كل بنفسه ويقرأ ويذكر الله تعالى ثم ينصرفون من غير أن يكلم بعضهم بعضاً اشتغالاً فهذه كلها محدثة. وقال ابن وهب: سمعت مالك يقول: لم تكن القراءة في المسجد من أمر الناس القديم، وأول من أحدث في المسجد الحجاج بن يوسف، وأنا أكره ذلك الذي يقرأ في المسجد في المصحف، وقد روى هذا كله أبو بكر النيسابوري في كتاب مناقب مالك يرحمه الله)[١].

من فوائد طلب العلم:

لطلب العلم جملة فوائد منها:

١ - أن من سلك طريق العلم سهل الله به طريقاً إلى الجنة.

٢ - أن الله سبحانه ييسر لطالب العلم أمر التحصيل والطلب كما ييسر له أبواباً مغلقة من العلم.

٣ - أن طريق العلم موصل إلى رضوان الله والجنة.

٤ - أن هذا العلم الذي يقرب للعمل هو سبب للهداية والاتباع لهدي الرسول ﷺ.

٥ - الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع. وقد ورد في تفسير ذلك (أنها قد تحف طلاب العلم بأجنحتها، أو أنها تبسط أجنحتها لطلاب العلم لتحملهم عليها إلى مقاصدهم من الأرض التي يطلبون فيها العلم إعانة لهم على الطلب وتيسيره عليهم. وقد فسر وضع الملائكة أجنحتها للتواضع والخضوع لطالب العلم)[٢].

---

(١) جامع العلوم والحكم.

(٢) ورثة الأنبياء: ٧٠ ـ ٧٤.

٦ - إن كل ما في هذا الكون يستغفر لطالب العلم: ((ففي مسند الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق أتيت النبي ﷺ فقال: ما جاء بك؟ قلت: كبر سني ورق عظمي وأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله به. قال: «يا قبيصة ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك»[١])[٢].

٧ - إن لطالب العلم المتقدم فيه منزلة رفيعة ودرجة عالية إلى من هو أقل منه في العلم حال حياته وبعد موته، فلو كان جملة من الأموات وقصد دفنهم في قبر واحد يقدم من هو أكثر أخذاً للعلم: (.. عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «أيهما أكثر أخذاً للقرآن؟» فيقدمه في اللحد[٣])[٤].

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٦٠.

(٢) ورثة الأنبياء: ٧٠-٧٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز.

(٤) ورثة الأنبياء: ٧٧.

الخاتمة

* خلاصة البحث .

* نتائج البحث .

* توصيات أبرزها البحث .



خلاصة البحث

إن الفكر التربوي الإسلامي فكر أصيل استمد أصوله ومبادءه من كتاب الله الكريم وسنة النبي العظيم، واسترشد باجتهاد أئمة السلف في تهذيب السلوك وترسيخ الأخلاق وحسن العلاقة بين الإنسان وخالقه، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين بني جنسه، بل بينه وبين المخلوقات جيعاً.

إن الحديث عن التربية الإسلامية هو الحديث عن كل ما جاء في الإسلام في جميع المناحي.

ولقد أجلنا النظر في الفكر التربوي لابن رجب رحمة الله عليه وهو من أصحاب المدرسة السلفية. وفي هذا الفكر تناولنا نظرته رحمه الله إلى الإنسان، لأنه هو محور التربية سواء كان معلماً أو متعلماً، فالله عز وجل الذي خلقه شرع له من الشرائع ما يصلح حاله ويسعده في دنياه وأخراه. فالتربية الإسلامية هي ربانية المصدر، والله هو الخالق لهذا الإنسان قد حدد له غاية ورسم له طريقاً سوياً، إن استقام عليه وصل إلى دار النجاة، وإن حاد عنه وجد العطب والهلاك.

كما تناولنا مفهوم المجتمع عنده؛ لأن التربية الإسلامية تهدف إلى بناء الإنسان المسلم الصالح، وتكوين المجتمع الخير هذا المجتمع الذي يحمل رسالة الإسلام عقيدة في النفس وواقعاً في السلوك ودعوة إلى البشرية عامة. قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية [١١٠].

كما تناولنا الحديث عن وسائط التربية كالمسجد ومجالس الذكر ومجالس العلماء والأسرة بصفتها محضن تربوي هام والكُتَّاب، إن عملية التربية التي تمارس من خلال هذه الوسائط هي التربية الناجحة التي أثمرت ثماراً يانعة انعكست آثارها على الفرد والأسرة والمجتمع، كما تناولنا غاية التربية وأهدافها كما يراها ابن رجب يرحمه الله وكما استقاها من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وأطرها بفكره التربوي الأصيل واستفاد من علماء السلف في جيل الصحابة ومن بعدهم.

كما استخلصنا من فكره التربوي هذا المحتوى العلمي والمعرفي الذي يقدم لهذه التربية، فأوضحنا أهمية العلم، وبينا أنواع العلوم والمعارف، وتعرفنا على العلماء الربانيين، وأوضحنا أهمية نشر العلم، وتعرفنا على مصادر العلم النافع، وأوضحنا كيف يكون ثبات العلم، كل ذلك كما ورد في فكر ابن رجب التربوي.

وكما أن التربية بحاجة إلى هذا المحتوى العلمي هي بحاجة إلى معرفة الطريقة المثلى في تقديم هذا المحتوى. لهذا فقد أوضحنا الطريقة التي يقدم بها المحتوى العلمي، فأوضحنا مكانة العلماء، والمسؤولية التي يضطلعون بها، وأنواع العلماء، وصفات العالم المربي سواء صفاته الذاتية أو صفاته مع طلاب العلم أو صفاته مع الناس عامة، ثم ذكرنا صفات طالب العلم، فأوضحنا كيفية تيسير العلم لطالبه، ثم ذكرنا الطريقة المثلى لكسب العلم والمعرفة، وذكرنا جملة من فوائد طلب العلم.

ولعلنا بما ذكرنا نكون قد أجملنا الحديث عن الفكر التربوي لعلم من أعلام الإسلام هو الإمام ابن رجب رحمة الله عليه، وعلى الله قصد السبيل وهو الهادي والموفق.

نتـــائــــج البحــــث

لقد وصلنا من خلال هذا البحث إلى جملة من النتائج نجملها في الآتي:

١ - إن للمسلمين فكراً تربوياً أصيلاً، صالحاً لكل زمان ومكان.

٢ - إن التربية الإسلامية هي ربانية المصدر، تهتم بهذا الإنسان من جميع الجوانب، وتحقق له التوازن في حياته، وهي شاملة تشمل أمور الدنيا والآخرة.

٣ - إذا كانت التربيات المعاصرة تهتم بهذا الإنسان بعد أن وجد على وجه البسيطة فإن التربية الإسلامية قد اهتمت به قبل أن يوجد، وبعد أن وجد في عالم الأجنة، وبعد أن خرج على قيد الحياة، وتوجيهات هذه التربية تسير معه في جميع أطوار حياته حتى يستقر به القرار ويضع عصا الترحال في الجنة أو النار.

٤ - إن الإنسان في منظور التربية الإسلامية مخلوق مكرم ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾[1]، وهو صاحب رسالة وغاية ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾...»[2].

(١) سورة الإسراء، الآية [٧٠].

(٢) سورة الذاريات، الآية [٥٦].

٥ - إن للتربية الإسلامية غاية محددة، وأهدافاً واضحة، وأغراضاً نبيلة.

٦ - إن التربية الإسلامية تسعى إلى تكوين الإنسان الصالح والمجتمع المؤمن.

٧ - إنها دعوة عامة إلى دين الله للبشرية جمعاء ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾[١].

٨ - إن لهذه التربية مؤسسات تربوية تسهم إسهامات مباشرة في تحقيق غايتها وأهدافها.

٩ - وهذه المؤسسات تمارس فيها عمليتي التربية والتعليم جاعلة اعتمادها على الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وإن هذه المؤسسات متى ما تعاونت وتآزرت حققت نجاحاً مرموقاً في التربية الإسلامية، وإنه متى ما حصل التضارب بينها والتفاوت في رسالتها فإن الازدواجية ستؤثر تأثيراً بالغاً على التربية وغايتها وأهدافها.

١٠ - ولهذه التربية طريقة مثلى في تحقيق غايتها وأداء رسالتها تتمثل في: المنهج الواضح، والمعلم الرباني، والطالب المجتهد.

١١ - إن للتربية ركائز هامة: من المكان الذي يجتمع فيه المربي والطلاب، ومن المعلم الناجح، والمنهج الواضح، والطالب النجيب، وقد تحققت هذه الركائز في أجلى صورها وأبهى حللها في أول مدرسة للإيمان أنشأها رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية [١٥٨].

إن هذه أهم نتائج هذا البحث، وإن المتصفح لما ورد فيه سيجد فكراً تربوياً أصيلاً لو أخذنا به اليوم في تربية أجيالنا لجنينا ثماراً يانعة في التربية والتهذيب والأخلاق، فجدير بنا ونحن نؤصل لهذا الفكر أن نرى ما نحتاجه في تربيتنا المعاصرة من مبادىء تربوية عظيمة نطبقها في ذات أنفسنا، وفي تربية أبنائنا، وفي توجيه أهلينا، وفي دعوة البشرية عامة إليها.

توصيات أبرزها البحث

إنني بعد دراستي للفكر التربوي لابن رجب وكتابتي هذا البحث أستطيع أن أدون التوصيات التالية:

١ - إنني أوصي طلاب الدراسات التربوية بأن يهتموا بالفكر التربوي الإسلامي، وذلك بدراسة السيرة الذاتية لأعلام التربية في الإسلام.

٢ - إنني أوصي المتخصصين في مجال التربية الإسلامية أن يجمعوا بين الحس الإسلامي الأصيل والفكر التربوي الثاقب حتى يستطيعوا أن يضعوا النصوص الإسلامية التي تحمل دلالات تربوية في البناء التربوي المعاصر.

٣ - إن الإنخراط في تخصص التربية الإسلامية ينبغي أن يكون من منطلق الرغبة في توضيح هدي الإسلام في المجال التربوي لا لغرض الترف الذهني ودراسة العلم للعلم.

٤ - الاهتمام بكتب ابن رجب رحمة الله عليه من حيث التحقيق والدراسة والطباعة والإخراج وإنشاء مكتبة له رحمه الله تهتم بإحياء تراثه ففي هذا خدمة للعلم من جهة وطاعة لله من جهة أخرى.

٥ - إن الخطوة التالية بعد تأصيل الفكر التربوي لعلم من أعلام الإسلام هي استنباط ما يمكن الإفادة منه وتطبيقه في حياتنا التربوية المعاصرة.

والله أسأل أن يوفقنا إلى طريق الخير والصلاح ويأخذ بنواصينا إليه.

الفهـــرس

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة